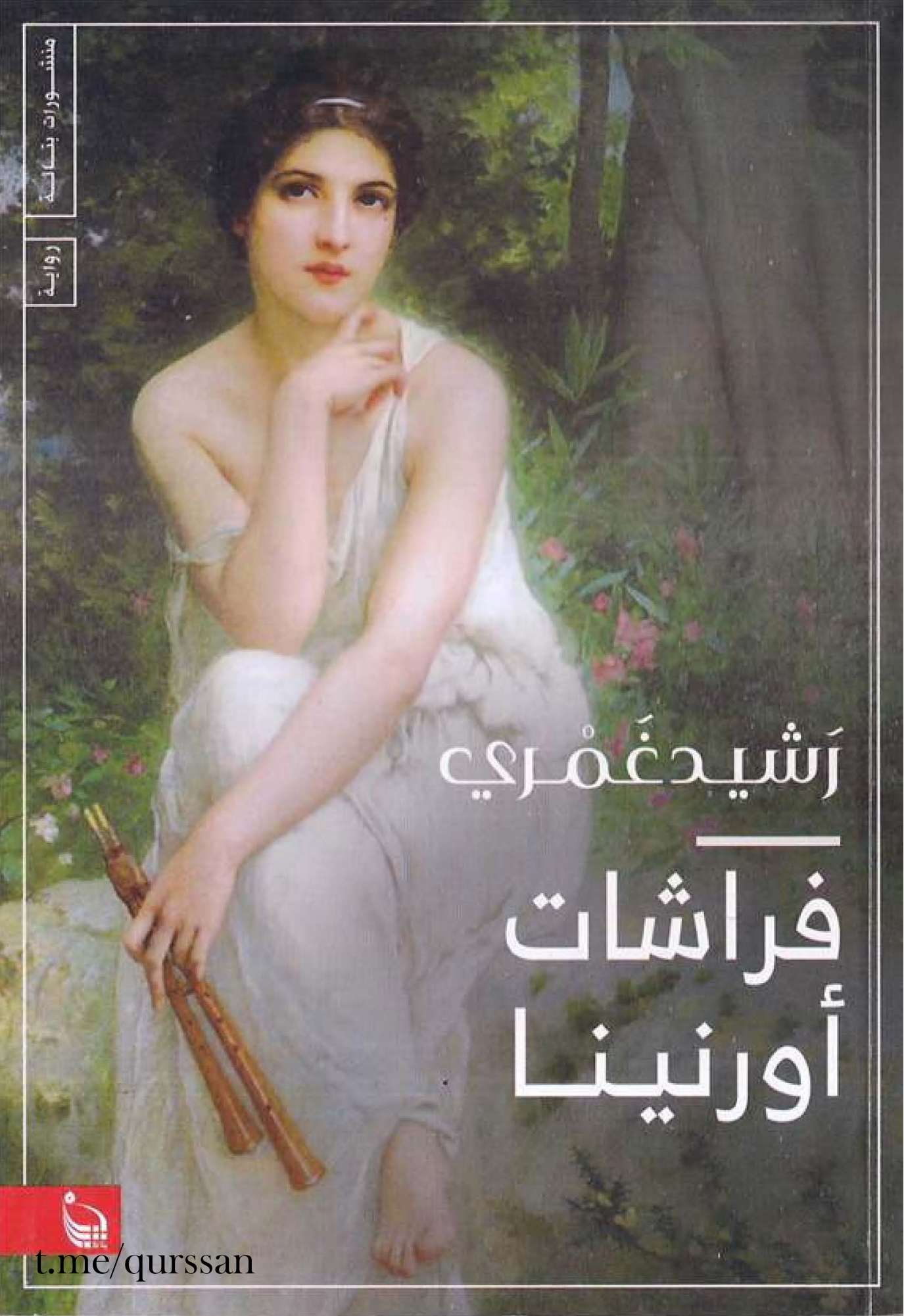

t.me/qurssan

فَراشاتُ أوزْنينا

زَشيد غَمْري

التصميم الداخلي: عصام حسني

الطبعة الأولى، 2017

رَدمُك:7-99-6233-977-978
رقْمُ الإيداع:2017/22950

مـؤسسة بتــانـة

القاهرة
34 شارع طلعت حرب
عمارة يعقوبيان - شقة 25
ت: 49570 257 -202+

دبي
ص ب : 97721
ت: 971543446107+

www.battana.org
@battana.org
@Battana_

جميع الحقوق محفوظةٌ للناشِر
طِبْقًا لِقوانين حِفْظِ حقوق المِلْكِيّة الفِكْرِيّة

لا يُسْمَحُ بإعادةِ استخدامِ وطبعِ أو توزيعِ أيِّ جزءٍ من مادّة الكتاب؛ مرئيًا، أو صوتيًا، أو مطبوعًا، أو إلكترونيًا بدون إذنٍ مُسْبَقٍ من النّاشر؛ طِبْقًا لِقوانين حِفْظِ حقوق المِلْكِيّة الفِكْرِيّة

الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأي مؤلفها ولاتعكس بالضرورة رأي مؤسسة بتانة

t.me/qurssan

رَشِيد غَمْرِي

فَرَاشَاتُ أُورْنِينَا

رواية

منشورات بتانة
الطبعة الأولي
2017

t.me/qurssan

t.me/qurssan

فهرس

بيتو حاد 7

بيتو ترين 75

بيتو ثلوثو 137

بيتو أربعو 191

t.me/qurssan

t.me/qurssan

بيتو حاد

كنتُ نبيًا، نزلت مدينةً بِلَا ظلال. رحتُ أرسم لها ظلالًا، وكانت تنمحي، وأرسمها، فتنمحي. صِرْتُ أرسم الضَّوْءَ، وأترك مكانًا للظلّ، لكنَّ الضوء سال ومحاه. نظَرتُ خلفي، فوجدت ظلّي يتبعني من حيث أتيت، والناس ينظرون من خلف نوافذهم قائلين: الرجل ذو الظل يمرُّ.

في المساء كان الضوء يُشِعُّ من كل شيء. يَنْشَعُ من البنايات. يَنِزُّ من جذوع الأشجار. يتكثَّف على بَتَلاتِ الزُّهور. حتى الناس كانوا يسيرون بأجسادٍ مضيئة، تحيط رؤوسَهُم أقمارٌ بيضاءُ. وحدي كنتُ ظلًا مُعْتِمًا، أهرول مَذْعُورًا، أتوجّع من عضّات الضَّوْءِ.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

طرق الباب بقوة عدة مرات. تقلّب «نوربا» العجوز، بجسده النحيل بين الصحو والنوم. نهض متعبًا حتى الإعياء. أزاح المِغْلاقَ الخشبيَّ لبابه الواطئ، فاندفع رجل إلى الداخل يلهث، وعلى كتفه حمل ثقيل. انخفض متوجِّعًا، وانحنى ليضعه على الأرض بِحِرْصٍ. استدار «نوربا» حاملًا قنديله، ونظر إلى الرجل الجالس مكفهرًّا. دقَّق بعينيه مُزِيحًا طَرْفَ الملحفة الكتّانيّة، فرأى جثّة فتاةٍ ملفوفة بعناية. توسّل له الرجلُ أن يساعده. كان «نوربا» مذهولًا من جرأة الرجل الذي حمل الجثة عبر شوارع المدينة، ودخل بها إلى المقابر في هذا الوقت المتأخّر، ثم صعد إلى الربوة، حيث يقع كوخه. شعر بالقلق. نهض، ونظر خارج البيت، فلم يَرَ إلّا ظلامًا حالكًا. انتظر قليلًا مُصْغِيًا بأذنه، فلم يسمع صوتًا ولا حركة، بخلاف هزيم الريح المعتاد في ذلك الوقت. أغلق الباب وسأله:

- هل تعقَّبَكَ أحدٌ؟

- الجميع نائمون، وجئتُ من طرق جانبية. تعبت كثيرًا حتى وصلت إلى هنا.

- عزائي لك، ولكن لماذا لم تَسْتَدْعِنِي، إلى البيت؟

- لأنّهم في كل مكان حولنا، وحتى داخل البيت، لديَّ ابنٌ منهم، ولحسن الحظ أنه كان في الخارج عند موتها. وقد أمسكتُ أمّها عن الصراخ بصعوبة، وأجّلْنَا إعلانَ وفاتها، حتى نتدبّرَ أمرَنا.

t.me/qurssan

بكى الرجل، ثم قال:

- إنها ملاك بريء، وليس أمامنا سواك ليساعدنا.

- سأفعل، ولكن كما تعلم، إذا عثروا علينا، سيحرقون الكوخ بنا، وبجثة الفتاة المسكينة.

- لا أريد أن أسبّب أي أذى. إنني فقط أب حزين، وقد تقبّلتُ موتَها، فهذه إرادة التّاسوع، ولكنني لا أستطيع دفنَها مثل دجاجة. إنها تستحق أن تُخَلَّدَ روحُها.

- لا تقلقْ، سأقوم بواجبي، ولكن دعني أفكر في طريقة.

فكّر نوربا بسرعة في مكان قريب وآمن، ثم طلب من الرجل أن يحمل ابنته، ويهبط بها نحو المقابر. تبعه «نوربا» حاملًا صُرّةً بها قَصْعَةُ الشّمع، وبعض أعواد من الجريد المُعَدّة، وقِطَعًا من ورق الذهب، وبيضة دجاجة، وعدّة أحجار صغيرة ملوّنة، ولوحًا رقيقًا من خشب الليمون، اختاره بعد أن أغمض عينيه، وسحبه من بين أنواع أخرى.

كانت الريح متقطّعَةً، تشتدُّ وتهدأ، والظلام يخيّمُ على الخلاء، إلّا من بقايا قمر، يظهر من بين السحب، فيضع لمساته على مستعمرة الموتى، بشواهدها التي بدت كَأَيْدٍ تستغيث، وسرعان ما يختفي خلف غَيْمَةٍ داكنة، فتضيع معه معالم الأفق والطريق. هبط الرجلان، حتى مقبرة «أوديشو» التي لا تشبه غيرها. جلس

t.me/qurssan

«نوربـا» بجسـده العجـوز النحيـل، وطـرق البـاب الخشـبيَّ عـدَّةَ مـرَّات، بينـما ظـلَّ الرجـل الحزيـن حامـلًا ابنتَـه كَذَنْـبٍ.

داخـل جبَّانتـه، وقـف «أوديشـو» العجـوز بقامتـه الفارعـة. كان يقـرِّب رأسـه، مدقِّقًـا في تفاصيـل صغـيرة بأحـد الحوائـط، عـلى ضـوء قنديـل. ابتعـد محـاولًا أن يـرى الصـورة كاملـة، لكـن بـصره الضعيـف للغايـة، بالـكاد رأى بُقَعًـا ملوَّنـة؛ لذلـك لجـأ إلى خيالـه، وأعـاد جَولاتِـهِ بـين الجـدران الأربعـة مـرَّاتٍ، محـاولًا التأكُّـدَ مـن تناسـقها. ووصـل أخـيرًا إلى قناعـة، بـأن مـا قـام بـه صديـق طفولتـه «نوربـا» الرسـام هـو معجـزة حقيقيـة.

شـعر «أوديشـو» بامتنـان، وفكَّـر أنـه رغـم الآلام التـي عاناهـا في حياتـه، ربمـا سـيهنأ لحظـةَ مَوْتِـهِ؛ إذ لم يَعُـدْ ينقصـه سـوى شيء واحـد، وهـو أن يُمـلي عـلى صديقـه رسـالته، وبعدهـا سـيضع جسـده في التابـوت، والثعبـان عـلى صـدره، ويغلـق الغطـاء، ويغمـض عينيـه، وينـام إلى الأبـد. هكـذا كان منهمـكًا في التأمـل والتفكـير، عندمـا أخرجتـه تلـك الطرقـات المتتابعـة مـن عالمـه، وسـمع صوتـا مـن بعيـد يناديـه باسـمه، ويطالبـه بـأن يفتـح البـاب. ميـز «أوديشـو» صـوت صديقـه «نوربـا» الرسـام متعجِّبًـا، ، فقـد كان معـه قبـل سـاعات، عندمـا أنهـى رسـم المقـبرة الـذي اسـتغرق منـه أسـابيع، ومـن المفـترض أن يكـون نائمًـا الآن.

t.me/qurssan

صعد «أوديشو» الدَّرَجَ الحجريَّ عبر الممرِّ الضيِّق، وفتح الباب الصغير لمقبرته. أطلعه «نوربا» على الأمر سريعًا. لم يكن «أوديشو» يؤمن بتلك الطقوس، لكنه تعاطف مع الرجل؛ لأنه نظر إليه كأبٍ فقد ابنتَه، ويريد أن يطمئن على خلود روحها. عاون الرجل، وأنزلا جثمانَ الفتاة إلى المقبرة. كان «نوربا» الرسَّام في الخارج يراقب المكان، ليتأكد أن أحدًا لم يَرَهُمْ، ثم تبعهما إلى الداخل. ودَّعهم الرجل تاركًا ابنته. وعاد ليمنع الأمور من الانفلات في بيته؛ فلا يفتضح أمرهم.

كان «نوربا» مُرْهَقًا، بعد أيام قضاها يرسم مقبرة صديقه، ودون أن يأخذ كفايته من النوم. أراد أن ينهي عمله قبل الفجر؛ ليعود إلى بيته، ويستريح، وأيضًا ليتمكَّن الأب من أخذ جثمان ابنته قبل الضوء. أسرع بوضع قصعة الشمع فوق القنديل. سحق قطعًا صغيرة من الأحجار الملوَّنة. كان يلزمه من أجل الوجه خليطٌ من الأبيض والأصفر، وبعض الأحمر، وقليل من الأسود، أما الجزء اليسير الذي سيظهر من ردائها فقد اختار له اللون الأرجواني. قرَّر أن يجعل الخلفيَّةَ مُذَهَّبَةً، وفصل بياض البيضة لأجل لصق الورق، كما فكَّر في تذهيب قرطها وعقدها. هيَّأ فرشاة عريضة من بين أعواد الجريد، وأخرى دقيقة. وأمسك بقطعة من الفحم، وبدأ العمل.

t.me/qurssan

تخصَّص «نوربا» منذ صباه في رسم وجوه الموتى. ذلك العمل الذي اكتسب أصوله من مُعَلِّمِهِ «ريموند» الهارب من «كميت» وقتها، والذي كان اسمه غريبًا عن الأسماء السيريانية التي صارت سائدة في «أورنارا» وما حولها؛ فسمَّى نفسه «حوبو». لكنه لم يَعِشْ طويلًا، فاعتمد «نوربا» على نفسه، وأتقن فنَّهُ وطوَّره، وبرع حدَّ الإعجاز في تصوير ملامح الأموات على الرقائق الخشبية، لِتُوضَعَ مع الجثامين داخل التوابيت. هذا الطقس الوافد، اعتمده الكهنة، فاكتسب طابعًا دينيًّا شعبيًّا لأتباع المعبد الشرقي. وصار الناس يعتقدون بضرورة هذه الصور، لتساعد الروح على معرفة جسدها، واصطحابه، ليقف أمام تاسوع الآلهة، طالبًا الخلاصَ والخلود. ولكن بعد الأحداث الأخيرة، صاروا يلاحقون الناس، ويقتلون مَنْ يقيم تلك الشعائر، باعتبارها هرطقة.

بدأ «نوربا» عمله بوضع خطوط وجه الفتاة بقطعة الفحم. كانت خبرتُه كفيلةً بأن يرسم ملامحها مُطَابِقَةً، وبسرعة مدهشة. لكنه اعتاد على طريقة خاصَّة في العمل، جعلتْهُ الأفضلَ على الإطلاق، وجعلتْ صورَه تتجاوز الملامح، فتلتقط روح المُتَوَفَّى، وتلخِّص شخصه وحياته. هذه الطريقة ظلَّت سرِّيَّةً؛ لأنها انطوت على مخالفة صريحة للطقوس والأعراف. كان يختلي بالجثَّة في حجرة الرسم الجنائزية، ويضع البخور على المجمرة؛ ليعبِّقَ المكان

t.me/qurssan

بالدخان المعطر، ويعرّي الجسد كاملًا، بخلاف المسموح، ويتأمّله مُرَكِّزًا بصره على كل جزء فيه، ثم يقف عند قدمَيْ الميت، مُحَمْلِقًا في وجهه حتى تتلاشى صورته، فيمسك روحه مروِّضًا إيَّاها، لتنطبع على لَوْحٍ، تختاره هي من بين أخشاب الجمّيز أو السَّرْوِ أو الليمون.

فكر نوربا بأنه يمكن أن ينجز الصورة بسرعة، دون كل ذلك، فالظروف لا تتيح له كثيرًا من الوقت، والمكان ليس مُجَهَّزًا. لكنه بوازع من ضميره، قرّر أن يُتْقِنَ عمله كالمعتاد. نظر إلى وجه الفتاة، فرآها تستحقُّ أجمل صورة على الإطلاق. تكاد ألَّا تكون بشرًا، من فرط وداعتها، وسحر ملامحها. كَشَفَ عن جسدها، مُزِيحًا القماش الكتَّانِيَّ الذي لُفَّتْ فيه. خلع ثوبها، وأرقدها في تناسق واسترخاء. تأمَّلها بإمعان، مستشعرًا جلال الموت، والذي عظَّمَه جمالها. أخرج من جيبه قشرة «عنفر» وأشعلها، ففاح منها دخان عَطِرٌ. نظر لها مُجَدَّدًا، واستحضر ورعه، فوجده يتصاغر أمام فتنتها.

راقب «أوديشو» ما يحدث بانبهار. إنها المرة الأولى التي يشاهد فيها «نوربا»، يرسم وجه جثة. نظر لهما كمشهد خلّابٍ وفريد من الحياة. كان واضحًا أن صديقه قد دخل في حالة وَجْدٍ، لذلك حرص أن يظلَّ ساكنًا. بدأ «نوربا» يخلط مسحوق أحجاره الملوَّنَةِ، بالشمع المنصهر. وضع اللون الأساسي لملامح الفتاة. لوّن بالفرشاة شَعْرَها البُنِّيّ. رسم ضفيرتها الغليظة التي تتوّج ناصيتها، وتطوّق

t.me/qurssan

وجهها المستدير. وضع لمسات صفراء، تُبَيِّنُ الْتِمَاعَ الأجزاء البارزة من الضفيرة، فبدت كإكليل ذهبي يتوِّجُ طَلَّتَها الملائكية. رسم جبهة مضيئة كنصف شمس، وأنفًا مستطيلًا في غير تَزَيُّدٍ، وشفتين ممتلئتين. بدت كأنَّما تُطِلُّ من سديم نورانيٍّ، أو كأنَّ وجهها ضوءٌ تَشَكَّلَ لِتَوِّه إنسانًا، أو نصفَ إله.

كان وجه الفتاة فادحَ البراءة، ومن يراه يظنُّه لطفلة في التاسعة، في حين بدا جسدها أنثويًا مكتملًا. رأى «نوربا» عنقها، وكأنه لنبيلة من بلاد الغابات العالية، وصدرها لعذراء من الغابات الصفراء، وحلمتَيْها شفَّافتين كَشَفَةِ مولود «سلتي». تأمَّلَ بطنها المشدود كنساء «أوركينا» المُتَأَنِّقَاتِ، وفَخِذَيْها الممتلئتين، كفاتنات بلاد الغابات الحمراء. وجدهما شهيَّتَيْن بصورة تدعو للبكاء. وبعد أن دقَّق وتأمَّل وتوحَّد؛ أغمض عينيه، واستحضر روحها، وجعل وجهها المرسوم على اللوح، مُلَخِّصًا لكل ما لا يظهر في الصورة، حتى أنَّ مكمن عُذْرِيَّتِها، بوعوده التي لن تتحقَّق أبدًا، تجلَّى في خشوع وحسرة، عكستهما الشَّفَتان باقتدار.

امتلأ صاحب المقبرة بسعادة غامضة، امتزجت بشجنه الذي يعرف الجميعُ مصدرَه. صحيحٌ هو لا يؤمن بديانة المعبد الشرقي وطقوسه؛ لكنه نظر لما يفعله صديقه، كشعيرة إنسانيَّة تستحقُّ التَّعاطُفَ. وهو لم يَرَ التفاصيل؛ لِضَعْفِ بصره، لكنه شاهد ظِلَّ

t.me/qurssan

صديقه مُنْكَبًّا يرسم بإخلاص وتَبَتُّلٍ. ورأى جسد الفتاة المُمَدَّدَ عاريًا، وكأنه عناقيدُ من النور، تضيء أرجاء المقبرة. ميَّز بالكاد ركبتين مدملكتين، وقدمين صغيرتين، واستدارات مُشَوَّشَة، كانت في الماضي كمائنَ عَجْزِه، ومحفِّزات جموحه. ومن خلفهما تماوجت رسوم المقبرة غائمة، فمنحها عدم الوضوح سحرًا إضافيًّا، جعلها تتحرك على الجدران، تتحدَّث، وتغنِّي لحنًا جنائزيًّا.

إنَّها الرسوم التي طلبها «أوديشو» بتفاصيلها، وحدَّد لصديقه ترتيبها؛ لتروي سيرة حياته الطويلة: رسم العذراوات الأربعة، والده الذي رآه مرَّةً واحدة، نساء جنونه ومجونه وحبِّه المُبْتَسَر، موتى الأوبئة، الممرِّضة «أميلا»، أستاذه «إيديلا»، زملاءه المحاربين، الفتى الطيِّبَ دارسَ الكهنوت، مُحَارِبًا من الأعداء ذا أجنحة. وجعل جدارًا كاملًا لـ«إميلدا» وهي تحتضن ابنتهما في وداعة. رسم الأحداث الأخيرة، والأنبياء الهاربين عبر الصحراء، والبَغِيِّ الوحيدة التي دفع لها أجرًا، ومواكبَ عُرْسٍ، وجنازات، وقواربَ، وأقبيةَ نبيذ، ورقصات احتفال. رسم كلَّ الأشخاص الذين مرُّوا بحياته عُرَاةً تمامًا، حتى أمه وشقيقاته وحبيبته وابنته.

كان الجميع يحيطون به، فيما يشبه مشهد حشر مهيب، ينتظر العرض على إله بخلاف التاسوع. وفي أسفل كل جدار، رسم أغصانًا وأوراق أشجار وزهورًا، بينها كائنات تتصارع. رسم حيوانات تتزاوج،

t.me/qurssan

وفي أفواهها فرائسها، وأخرى ترضع صغارها، وهي تمضغ عظام كائنات أخرى. ورسم ثعبانه المُحَنَّطَ، والذي اعتبره دليله وتميمته، ورفيق تابوته الوحيد، بدلًا من صورة وجهه، وبدلًا من أكاليل الزهور، وتمائم «الإيلمار».

كان «أوديشو» قد عثر على المقبرة المهجورة، قبل سنوات. وجدها ممتلئة بالرمال، فأعاد تهيئتها، وعاش فيها، بعد النوائب التي حلَّتْ به، وظلَّ على مدى سنوات، يغادرها ويعود. وخلال ذلك قام بتحسينها، وصنع لها درجًا حجريًّا. ولما عاد مؤخَّرًا، بعد الأحداث الأخيرة، طلب من صديقه، أن يرسم على جدرانها، مُذَكِّرًا إيَّاه بجبَّانات «كميت» التي رأوها محفورة في الجبال، خلال هروبهما. لكن «نوربا» أنجزها مقبرة فريدة، لا تشبه ما شاهدوه في «كميت» ولا جبانات «أورنارا». فالقبور من حولهم، مجرد لحود، توضع فيها التوابيت، ويبنون فوقها هياكل صغيرة، يعلو كلًّا منها شاهدٌ، أشبه برقبة جمل أو حصان. ويقوم ابن حفَّار القبور، فيما بعد، بعمل رسوم بدائية عليها من الخارج.

أنهى «نوربا» رَسْمَ وجه الفتاة، وغطَّى جسدها، وانزوى مُنْهَكًا، في زاوية من المقبرة، انتظارًا لوالدها، وراح في النوم. انعكس ضوء القنديل على وجهها وعنقها، فلمعت كأنَّها تمثال من الذهب. نهض العجوز «أوديشو» ووقف عند قدميها. تعملق ظلُّه على

t.me/qurssan

الجدار وجزء من السقف المُرَصَّعِ بالعيون. بدا بأرديته الكتانية المهلهلة، ولحيته البيضاء الكثيفة، كوحشٍ خرافيٍّ، نهض لتوِّه من سُبَاتٍ قرون. أزاح الغطاء عن جسد الفتاة، وتأمَّله غائمًا. ركع على ركبتيه، وانحنى عليها، وانخرط في البكاء، وصار ينشج مردِّدًا اسم ابنته.

استيقظ «نوربا» الرسَّام، فسأله «أوديشو»:

- هل سيجد والد الفتاة كاهِنًا للصلاة على روحها؟

- أخبرته عن كاهن طيِّبٍ، كان قد غادر البلاد منذ سنوات، تاركًا الكهانةَ، وعمل نافخًا للبوق ضمن جماعة جوَّالة، وقد عاد مؤخَّرًا في أعقاب الأحداث الأخيرة. ورغم أنه يبدو غير مؤمن بمعبد ما؛ إلَّا أنه ما زال يحفظ التراتيل، وقام بقراءتها إكرامًا لأُمٍّ فقدت طفلها منذ أيام. وهو مستعدٌّ لأدائها لمن يحتاجه.

- أظنُّني أعرف مَنْ يكون. التقيت به منذ سنوات، وسألت عنه بعدما حدث في المعبد، ولم يكن قد عاد. إنه فعلًا إنسان طيب.

سمع «نوربا» طَرْقًا على الباب الخشبي للمقبرة، فَنَبَّهَ صديقه الجالس عند جثمان الفتاة. نهض «أوديشو» وصعد الدَّرَجَ، بينما أحكم «نوربا» لَفَّ الجثة. نزل الوالد المكلوم، وأعطى «نوربا» مبلغًا من المال، وشكر صديقه على الاستضافة. حمل ابنته وصورتها، وصعد الدَّرَجَ. راحت عيون الرَّجُلَيْن تشيِّعَانِه والفتاة. وعندما أوشك

t.me/qurssan

على الخروج، سأله «أوديشو» عن اسم ابنته، فقال له بأسًى:

- كان اسمها «أورنينا».

شعر «أوديشو» بحزن عميق. وطلب من صديقه أن يعود إلى بيته، ويأتي غدًا، ليملي عليه رسالته. ذهب «نوربا» الرسّام شاعرًا بالإنهاك. وانخرط «أوديشو» في بكاء طويل. وفي كوخه أخرج «نوربا» خصلة من شعر الفتاة، وأحكم لَفَّها وربطها بطريقته المعتادة، وفتح صندوقًا خشبيًّا، ووضعها مع المئات من الخصلات الأخرى، والتي تنوَّعتْ ألوانُها من الأسود إلى البُنِّيّ والأحمر والأصفر. وكالعادة مرَّتْ أطيافُ بعض من صاحبات الخصلات بذاكرته.

اعتاد «نوربا» أن يسير في شوارع المدينة، متأمِّلًا الوجوهَ، وأن ينظر بأسى للجميلات، شاعرًا بالحسرة. وكلما شاهد مُتَكَبِّرًا، أو شخصًا يصارع للحصول على شيء، أو يتكالب فَيُذِلُّ نفسَه لمنفعة؛ يتذكَّر لحظة استلقائه أمامه عاريًا، وكأنها حدثت في الماضي، ويشعر بسخرية مريرة. وقد جعله عملُه كئيبًا زاهدًا، لم يُرِدْ شيئًا لنفسه، وعاش فقط يبحث عن شخص، اعتقد أنه خُلِقَ في الحياة لينقذه، ورأى أن هذا هو الحكمة من وجوده.

كان الحزن يتملَّكُه أيَّامًا، بعد رسم طفل، أو عروس استعدَّتْ لزفافها، أو أُمٌّ تركت صغارًا. فَكَّرَ مرَّاتٍ أن يُغَيِّرَ مهنته. جرَّب أن

t.me/qurssan

يتعيَّش من أعمال مختلفة، وتيقَّن من أنه مُحَرَّمٌ عليه كسبُ رزقه بطريقة أخرى، وكأنه منذور لما يقوم به. كان الغريب أنه رغم أحزانه، والأسى الذي صبغ حياته، يشعر بلذَّةٍ غامضة، وهو يقوم برسم الموتى. حاول أن يفهم مصدرها، وتأمَّلها طويلًا. رأى أنه يتوَّج الناسَ في نهاية مشوارهم، وهو شرفٌ يفوق ما لدى الملوك. وخطر بباله أنه يجهزهم لبداية حياتهم الحقيقية، وهي سلطة تقارب صلاحيات الآلهة. ووجد أن قيامه بعمله، وكونه مَنْ يقوم بالرسم، يعني أنه ما زال حيًّا، وأن كل ميت، هو إعلان لنجاته مرة أخرى. تأمَّل تلك الطبيعة الروحية للذَّتِهِ، والتي تنبع من طريقته الخاصَّة والمُحَرَّمة في الرسم. وعرف أنه لم يلمس الحقيقة، ولم يَلْتَذَّ ببلوغها، إلا بإتيانه المحرمات، تلك التي وُضِعَتْ لحجبها. تأمَّل فوجد أن الحقيقة مؤلمة، ولَذَّتَه أيضًا.

شعر «نوربا» بأنه يعيش مفارقة صارخة، فهو يخلق بالألوان وجوهًا تنبض بالحياة، متطلِّعَةً عبر أفق لا نهائي، ولكنه يفعل ذلك في لحظة فَنَائِهَا. وهو يمنح الحياة والخلود للصور، في لحظة زوال الأصل. رأى التناقض بين مثول الجسد أمامه عاريا، بأقصى ما يُمْكِنُه من حضور، بينما يجهِّز ليغيب إلى الأبد. وهو دون غيره يمتلك تلك اللحظات، وينفرد بها، ويعيشها طازجة متجدِّدَةً كُلَّ مرَّة، سحرًا ورهبة وقداسة وحسرة. ووجد أن الموت يمنح الناس

t.me/qurssan

حضـورًا مُضَاعَفًـا واسـتثنائِيًّا، قبـل أن يبيدهـم ويمحوهـم. تعاطـف «نوربـا» مـع كل المـوتى الذيـن رسـمهم، الطيبـين والأشرار، بـل شـعر بشـفقة مضاعفـة عـلى الأوغـاد؛ لأنـه رأى عبثيَّـةَ شرورهـم، ومجَّانيَّـة تَدَنِّيهـم.

ظـلَّ «نوربـا» عـبر حياتـه، يقـوم بعملـه مخلصًـا، متوحِّـدًا مـع ذاتـه وفنِّـه، ومُنْكَبًّـا في تبتُّـلٍ عـلى رسـم وجـوه الجثـث، لكنـه أدرك مـع الوقـت لَـذَّةً أخـرى، قـاوم طويـلًا أن يعـترف بهـا، تلـك التـي كانـت تتعاظـم في حـضرة أجسـاد النسـاء الجميـلات. ضبـط نفسـه متلبِّسًـا بهـذه المشـاعر، وهـو يتلهَّـف للانفـراد بِهِـنَّ. شـعر بالخجـل من نفسـه. وحـاول أن يفهـم طبيعـة تلـك الأحاسـيس. وتأكَّـد أن الأمـر ليـس شـهوةً بمعناهـا المعتـاد، وأن غريزتـه الجسـدية لا يمكـن أن تتحـرك في حضـور تلـك الأجسـاد الجميلـة الميتـة؛ لأنـه حـاول أن يُقْحِـمَ عـلى خيالـه تلـك الرغبـات، فـكاد يتقيـأ. إنهـا ليسـت رغبـة حِسِّـيَّةً، ولا يمكـن أن تكـون. تأمَّـل في الأمـر طويـلًا، ورجَّـح أيضًـا أن الـسرَّ يكمـن في التناقـض. إنـه المفارقـة في أقـصى صورهـا هنـا، بـين عُـرْيِ الأجسـاد الأنثويـة الفاتنـة، كـذروة مـا يمثِّلـه معنـى الحيـاة، وبـين المـوت الـذي يُطِـلُّ عـبر الأجسـاد ذاتهـا. إنـه جـمال اللحظـة الفاصلـة والحرجـة والمسـتحيلة، وهـو مصـدر ذلـك السُّـكْرِ الغامـض، والنشـوة المخـدِّرة، والتـي يُحِـسُّ تيَّارَهـا يـسري تحـت أحزانـه وكآبتـه. رأى الجـمال بوصفـه سـلطة جبَّـارةً آسرة

t.me/qurssan

مستبدَّةً لا تُقَاوَمُ، وهي ترقد أمامه مستسلمة في خضوع. تعجَّب أن يكون للموت أيضًا جماله، وتعجَّب أكثر عندما خطر بباله، أنه ربَّما يكون الجمال في أفدح أشكاله.

صارح صديقه «أوديشو» ذات يوم عن تلك اللذَّةِ، فأخبره بأنه يعرفها، وأنه شعر بمثلها مرَّاتٍ عندما كان هو الآخر يؤدِّي عملَه. لكن «أوديشو» كان قد وصل إلى تصالُحٍ مع الموت. ولم يعد يرى حدودًا فاصلة بينه وبين الحياة، ولا بين اللَّذَّاتِ المختلفة. وهو حتى لا يستشعر دَنَسَ الغريزة، ولا تدنِّي الاشتهاء. صار عالمه طليقًا، وغائمَ الحدود، يشبه ما يسمح بصرُه برؤيته الآن. وهو عالَمٌ يراه الكثيرون لا أخلاقيًّا، لكنه رآه فطريًّا متحرِّرًا مما وجده أو وضعه الناس من قيود.

نام «نوربا» متوقِّعًا أن تزوره الفتاة التي رسمها الليلة لتشكره، كما يحدث عادة، لكنها لم تأت. وبدلًا من ذلك رأى نفسه داخل كهف، يتدفق الماء فيه من بين الشقوق، ويتجمَّع في مجرى تحته، ويواصل الانسياب داخل هُوَّةٍ، تذهب إلى المجهول. كان يرسم جثة رجل مُمَدَّدَةٍ في الماء. وعندما أتمَّ الصورة، تأمَّلها، فإذا هي وجهه. أصيب بفزع، ونهض ليتحقَّق من هوية الجسد الميت، وكان غارقًا في الظلام. أشعل قنديلًا، واقترب مرتعشًا، فوجد أنها جثته. أخذ يهزُّها بعنف دون جدوى، وشعر باختناق مميت.

t.me/qurssan

عندما استيقظ، كان على يقين بأن موعده قد اقترب. ما شغله هو أنه لم يؤدِّ بَعْدُ رسالتَه في إنقاذ شخص ما.

في مقبرته استلقى «أوديشو» داخل تابوته الخشبي. أثار اسم الفتاة الميتة شجونَه فلم يستطع النوم. نهض وصعد الدرج. أطلَّ برأسه من المقبرة. كانت الشمس على وشك الشروق. ورأى نسوةً يَجْلِسْنَ عند أحد القبور، يقرأن من «الإيلمار» مُعَرِّيَاتٍ صدورَهُنَّ، وبين شجيرات قريبة، وقف قردٌ يستمني، ولمح ثعبانًا يتَّجه نحوه. بصق، ودخل جبَّانته. أغلق بابها، وعاد إلى تابوته. كان ما يؤرِّقُه، هو الرسالة التي سيقوم بإملائها على صديقه الليلة.

استيقظ «نوربا» عند الغروب. شاعرًا برهبة وهلع. إنه موعده مع «أوديشو». هذه اللحظة التي خشيها طويلًا، منذ أخبره بأمر الرسالة. لو كان الأمر بيده لأقنعه بعدم جدواها. لكنه عرف أنه سيفعلها. وكل ما تمناه أن يمرَّ الأمر بسلام.

يعتقد «نوربا» أنه خُلِقَ في الحياة لأجل أن ينقذ شخصًا ما. سيطر عليه هذا الهاجس منذ طفولته، كنداء داخلي، ظل يوسوس له على الدوام. وكان دائم التحفُّز والاستعداد للقيام بذلك. استشعره كغريزة مُلِحَّةٍ، ورآه المعنى وراء حياته؛ لذلك شعر بالحزن وهو يفكِّر في موته الوشيك، وفي أنه سيرحل دون أن يؤدِّي ما عليه. لقد فعل أشياء كثيرة اعتقد أنها جيدة، ولكنها ليست

t.me/qurssan

إنقاذًا لأحد. وربما ستكون كتابتُه رسالةَ صديقه آخر تلك الأعمال، لكنها أيضًا تختلف عما تصوَّر أنه سيقوم به. صعب عليه الأمر، وصار مُشَوَّشًا.

تذكَّر المرات التي اعتقد أنه يقوم برسالته، وكلٌّ منها كشفت وجهًا لسذاجته، أو فشله وإخفاقه. كانت الأولى في صباه، عندما رأى فتاة تبكي أباها في المقابر. أحس بتعاطف جارف تجاهها، اختلط بعاطفة استشعرها لأول مرة. وقع في حب بياضها المريب، الذي جعلها كتمثال من الثلج.، وعشق حاجبيها الأسودين المتشابكين كجناحَيْ غراب. ورغم أنه رأى شاربًا خفيفًا ينبت فوق شفتَيْها المُحْتَقِنَتَيْن الزُّرْقَاوَيْن، لكنه وقع في هواها بمذاقٍ حارق، حتى أنه أصيب بالحُمَّى لعدَّة أيام، وظلَّ جسمه يرتعد، وهو يشعر بها تتخلَّله، كأنما قد حلَّتْ به. حام حولها، فتجاوبت معه بسرعة، وببعض من البلاهة. كانت تبالغ في كل شيء. تنهمك في الحديث وتتصايح، وفجأةً تبكي. أرادت أن تلقاه كل يوم عدة مرات، وفعلت لأجل ذلك أشياء جنونية.

رأى «نوربا» الصَّبيّ أنه خُلِقَ في الحياة ليبدد أحزانها، ويعوِّضَها عن أبيها، وينقذها من الضياع. استحضر قصص فتيات اضطررن للعمل كبغايا، بعد موت آبائِهِنَّ. واسترجع حكايات مأساوية لأُسَرٍ فَقَدَتْ عائلها. قرَّر أن يكون عائل هذه الفتاة، وحتى أسرتها إذا لزم

t.me/qurssan

الأمـر. وكان مسـتعدًّا لعمـل أي شيء ليحقـق ذلـك. اختلطـت مشـاعر حبـه بعزمـه عـلى إنقاذهـا، لكنهـا سرعـان مـا ملَّـتْ طِيبَتَـه وانصياعَـه. كان آخـر شيء قالـه لهـا إنـه مسـتعد ليمنحهـا روحـه؛ لتعيـش بـدلًا منـه. فاجأتـه في اليـوم التـالي، وأحبَّـتْ شـابًّا عِزْبيـدًا، لم يعـرف أبـدًا كلـمات الحـب، لكنـه كان جريئًـا يختـصر الطـرق إلى أجسـاد الفتيـات، وقـد طلبـت منـه أن يحميهـا مـن «نوربـا» المتطفِّـلِ.

في إحـدى المـرّات، اعتقـد «نوربـا» أنـه خُلِـقَ لأجـل أن يهـب حياتـه لفتـاة مُقْعَـدَة. كانـت جميلـة وحزينـة، وفي وجههـا المسـتدير أنوثـة لا تُقَـاوَم. شـعر نحوهـا بعاطفـة أبـوّة لا تناسـب سـنّه وقتهـا. هيّـأ حياتـه لإسـعادها، وإنقاذهـا مـن اليـأس والحـزن، لكنهـا رحلـت بعـد شـهور، وتركتـه غارقًـا في خيبـة جديـدة.

عندمـا صـار «نوربـا» الرسّـامَ الأبْـرَعَ لوجـوه المـوتى في «أورنـارا»، قـال لنفسـه: ربمـا يكـون هـذا مـا خُلِقْـتُ في الحيـاة لأجلـه. أليـس رَسْـمُ الوجـوه إنقـاذًا لأرواح المـوتى مـن الضيـاع؟ إنـه يمنـح النـاس الفرصـة للخلـود، ويحميهـم مـن التـلاشي، وهـو أهـم إنقـاذ يمكـن أن ينالـه شـخص. لكنـه شـعر بعـدم صفـاء؛ لأنـه كان مضطـرًّا لأخـذ المـال مقابـل هـذه الصـور. كان يعتقـد أن ذلـك الإنقـاذ الـذي خُلِـقَ ليقـوم بـه هـو عطـاءٌ دون مقابـل. أمّـا المـرّة التـي أوجعتـه حتـى المـوت، فكانـت قصَّتَـه مـع الغجريّـةِ، لكنـه اكتشـف أن خسـائر قلبـه تهـون أمـام مـآسٍ

t.me/qurssan

خبّأتها له الأيام، وتجرَّعَها واحدةً تلو الأخرى.

بدا «نوربا» أشبهَ بناسِكٍ، يؤمن بكلِّ الآلهة، وكل المعابد، ورأى الحياة متعدِّدَةَ الأَوْجُهِ بلا نهاية. أخبر صديقه «أوديشو»، بأنه مستعدٌّ ليكتب رسالته إلى ابنته، وجلس بجسده النحيل مُمْسِكًا قلمه وصحائفَه، بينما نظر «أوديشو» صوب الصورة الغائمة لزوجته «إميلدا» وابنتهما «أورنينا» على الجدار المواجه، وبدأ في إملاء رسالته.

ابنتي الحبيبة أورنينا..

أكتب لك الآن بعد طول انتظار، متحدِّيًا خجلي وضعفي، وأُقْدِمُ على المخاطرة التي أجَّلْتُها طويلًا. ولم يكن تأخُّري لنسيانٍ، أو تجاهُلٍ؛ ولكن لأنني كنت أستجمع نفسي وشجاعتي. وأجد أنني أقف الآن على أعتاب أصعب مواجهة في حياتي. هذه المواجهة التي لا أبغي من ورائها نَصْرًا؛ بل أجدني أضع كُلَّ أسلحتي، وأستسلم منسحقًا، وكل أملي أن أفوز بِصَفْحِكِ. أعلم ما يدور في خيالك عن والدَيْكِ، وألتمس لك كلَّ عُذْرٍ، وأتفهَّم ما تشعرين به من ألم وحسرة، ولكنني سأشرح لك ما حدث، راجيًا أن تتفهَّمي موقفنا، وألَّا تسيئي الظَّنَّ بنا. وعزائي أنَّكِ صِرْتِ بأمانٍ تامٍّ، كما أردنا أن تكوني.

t.me/qurssan

لقد ساءت الأمور هنا أكثر مما توقّعنا، وكان من المستحيل حمايتك. ولن أقول إننا فعلنا الصواب، لكننا اخترنا ما كان مُتَاحًا. كُنّا نشعر بالرعب بعدما حدث لـ «أبيلتا» إبنةِ صديقنا «نوربا» الرسّام، وزوجته «نوهرا» عازفةِ «الكينورا»، والتي كانت تشبهك كثيرًا، وسأروي لكِ مأساتَها لاحقًا. لكننا كنا خائفين، وقد تحدّثتُ مع «إميلدا» بشأن إبقائك حيث أنتِ، ووجدتها تتّفقُ معي تمامًا، وقالت إن هذا أفضل لكِ، ولنا أيضًا؛ لأننا سنكون مطمئنين عليك.

لقد أحبَبْتُكِ «إميلدا» بجنون، ولم تكف عن التفكير بك، لكنها اختارت أن تضحّي، وتتعذّبَ لتكوني بخير، وكان الثمن هو حرمانها من رؤيتك تكبرين أمامها كلّ يوم. كان بإمكانها أن تجعلك تعيشين معنا هنا وسط أخطار مُرَوِّعَةٍ، حيث يموت الناس لأتفه الأسباب، وأحيانًا دون سبب على الإطلاق، وحيث لا يمكنك الحصول على أبسط الأشياء إلّا بمُعَاناةٍ، وأن تقول: هذه حياتنا، وأن عليك كابنة صالحة أن تتحمّلي. وكانت ستبرّر لنفسها بأن الأطفال يكبرون على كل حال، وفي أي مكان. وذلك لتتمتّع بوجودك، وبالنظر إلى عينَيْكِ. لكنها لم تكن أنانيّةً، فتحمّلَتْ غيابك، مقابل أن تؤمّنَكِ من الأخطار والآلام.

أحبَبْتُ «إميلدا» حكايةً قديمة لرجل فقير، ترك ابنه داخل معسكر للفرسان، وودّعَهُ بعينَيْن دامِعَتَيْنِ، وهو يعلم أنه لن يراه

t.me/qurssan

مجـدَّدًا. أراد أن يضمـن لـه حيـاة غـير مـا عاشـها في فَقْـرٍ وذُلٍّ. رأتْ «إميلـدا» فيـه قِمَّـةَ الحـب والتضحيـة، وتأثَّـرَتْ باللحظـة التـي يُلْقَـى فيهـا المـالُ في النهـر، ذلـك الـذي منحـوه إيَّـاه مقابـلَ ابنـه؛ لأنـه - رغـم فقـره- لم يكـن ليبيعـه، وإنمـا يدفعـه لينـال حيـاةً أفضـل. هـي أيضًـا فضَّلَـتْ مَصْلَحَتَـكِ عـلى حُبِّهـا، ورغبتهـا في احتضانـكِ.

لَسْـتُ أبالـغ إذا قلـت إنهـا أحبَّتْـكِ منـذ كانـت طفلـةً صغـيرة، وحملتْـكِ دُمْيِـةً جميلـة بشَـعْرٍ مـن خيـوط، وغنَّـتْ لـك أنشـوداتِ جَدَّتِهـا، مـن بلادهـا البعيـدة في «أورشـمايا»، عنـد بحـيرة الغـروب، حيـث الأكـواخ الطينيـة، كانـت تطـلُّ عـلى الميـاه التـي تلوِّنهـا الشـمس قبيـل المسـاء، فتذيـب فيهـا البرتقـاليَّ مـع الأحمـر والبنفسـجيَّ، وخليـط الذهـب والفضـة مـع الأخـضر. تلـك الأغنيـات التـي أحببتهـا، ولم أفهـم معانيهـا؛ لأن جدَّتَهـا كانـت ابنـة قبائـل البـلاد الأصليـة، والذيـن ظلَّـتْ لهـم لغـة فيـما بينهـم، يغنُّـون ويعشـقون ويتألَّمـون ويحلمـون بهـا. فعندمـا هاجـم بلادَهـا محاربـو المعبـد الشرقـيُّ قبـل سـنين، أجـبروا النـاس عـلى الحديـث بلغتهـم، وقتلـوا رجـالًا كثيريـن، واغتصبـوا النسـاء إرضـاءً لآلهـة معبدهـم، وتنفيـذًا لمـا جـاء في التراتيـل المسـمَّاةِ «إيلمار»، بـأن يضعـوا بذرتهـم في أرحـام النسـاء في أي أرض يطأونهـا. وقـد وعدتهـم آلهتُهـم بـأن كُلَّ الأرض لهـم، لذلـك فعندمـا دخـل المقاتلـون؛ غرسـوا رايـات إلـه المعبـد الكبـير عـلى قمـم الجبـال، ونزلوا إلى السـهول

t.me/qurssan

مندفعين كَسَيْلٍ، وراحوا يقتلون الرجال، ويفتحون سيقان النساء، ليضعوا بِذْرَةَ شعب الإله الشرقي. لكن نساء القبائل البعيدة حافَظْنَ رغم كل شيء على لغتهن، وعَلَّمْنَها سِرًّا للأطفال، وتَحَدَّثْنَ بها معهم. وصار أهل «أورشمايا» لا يتحدثون بلغة الشرقيين إلَّا عندما يضطرون.

بقيت تلك الأغنيات أفضلَ ما حمل لغةَ ووجعَ القبائل، والتي كانت آمنةً، تعيش على موسيقى وأنشودات ورقصات لا مثيل لها، خصوصًا في مواسم جني الكروم، حيث تخرج الفتيات يراقصن الشباب بملابسَ ملوَّنَةٍ، ضيِّقَةٍ عند الخَصْرِ، وواسعة من أسفل، فتظهر سيقانُهُنَّ الجميلة، وهُنَّ يَقْفِزْنَ خلال الرقص، أو يَجْلِسْنَ ليحْتَسينَ الشراب، وحيث كل فتاة تعود بخطيب تقدِّمه لأسرتها، فيدخل على أُمِّ حبيبته حاملًا لها الجُمَّارَ الأبيض، وهو قلب النخلة؛ لينال قلبها، وهو ما يعني أنه ضحَّى لأجلها بإحدى نخلات العائلة. كان ذلك في الماضي، قبل أن يمنع الشرقيُّون خروجَ الفتيات والملابس الملوَّنة والغناء والرقص مع الشباب، ويمنعوا احتساء الشراب، وزراعة الكروم من الأساس. وبقيت الأمهات يُغَنِّينَ سِرًّا أغنيات حزينة تلخِّص ما أصاب تلك البلاد.

إنه حزن ستشعرين به إذا زرتِ بلاد أمك، رغم مرور سنين عديدة على تلك الوقائع والأحداث، فالحزن يا «أورنينا» يورَّث كما

t.me/qurssan

القهر، ويعيش عبر أجيال لم تعاصر ما جرى، لكنَّ سِحَنَها وأصواتها تتقمَّص وجع الآباء والأجداد. ولعل هذا أيضًا كان أحد أسباب اختيارنا ألّا تعيشي معنا؛ لأننا خفنا أن نورِّثَك حزننا، فأنا وأمك رغم انهماكنا بالحياة؛ إلّا أن حزنًا كبيرًا ظلَّ داخلنا، وإنْ خبَّأناه عن العيون. حزن ربما ورثنا بعضه، وربما كان ثمرة أننا رأينا العالم جيِّدًا، وعرفنا بالكثير ممَّا يحدث فيه. ولعل هذا كان أحد الأشياء التي جذبتنا لبعضنا، ليس لأن كُلًّا منّا أحب الحزن في أعماق الآخر، ولكن ربما لأننا أحسسنا بالأُلْفَةِ، وشعرنا بأننا يمكننا أن نحملق في عيون بعضنا دون خجل، وهو أمر مهمٌّ في هذه العلاقات.

ورغم ذلك فإن بلاد أمِّكِ كانت بالنسبة لي الجنة بعينها؛ فالطبيعة هناك ساحرة، والجبال الخضراء تطلُّ على بحيرة الغروب، والتي رغم جمالها فقد كرهها الشرقيون؛ لأن ترانيم إله معبدهم المُسَمَّاةَ «إيلمار» أخبرتهم منذ مئات السنين بأنها بحيرة آسِنَةٌ، كريهة الرائحة، وأن الشمس تبيت فيها، تتصارع مع وحش ضخم طوال الليل، وتنتصر عليه، لتشرق كلَّ صباح. لكنهم عندما غزو البلاد، اكتشفوا أن البحيرة جميلة، ومياهها صافية، حتى أنهم شاهدوا القوارب على سطحها، وكأنها تسبح في الهواء، ورأوا الأسماك الملوَّنة في الأعماق، والطحالب الفسفورية، وحتى الفقاعات الصغيرة التي تخرج من أفواه الأسماك، وهي تصعد على مهل؛ فأصابهم الدوار من جمال المشهد.

t.me/qurssan

لم يجد الشرقيون شَمْسًا تبيت في البحيرة، ولا رأوا وحش «الإيلمار» المزعوم؛ لذلك صبُّوا غضبهم على الناس؛ لأن البحيرة كذَّبت ما جاء في التراتيل. وراح كهنة المعبد الشرقي يبرِّرون للجنود حتى لا يُفْتَنُوا، وحتى لا يفكروا بأن الإله لا يعرف ماذا يقول. أخبروهم أن الشكل الجميل خدعة، وأن الجوهر قبيح كما قال الإله. شبَّهوا الأمر بفتاة جميلة من الخارج، لكنَّ قلبها أسودُ كشيطانة. وأما الوحش، فقالوا إنه لا يمكن رؤيته؛ رحمةً من الآلهة؛ لأن الناس لن تحتمل بشاعة منظره. ولذلك نظر الجنود إلى البحيرة الجميلة بصفائها وأسماكها وطحالبها الملونة، وإلى الزهور الرائعة التي تنشر العطر حولها، وكرهوها من أعماقهم، وحرَّموا على أنفسهم وأبنائهم بعد ذلك النظرَ لها. وإذا حدث ووقعت عين أحدهم عليها، كان يتمتم مستعيذًا بالآلهة من جمالها.

كانت القبائل الأصلية هناك قد أطلقت على الوديان والسهول أسماءً مُوحِيَةً مثل: وادي الجنَّة، وادي الجحيم، وادي الملائكة، وادي الشياطين، وادي الحوريات، وادي الحياة، ووادي الموت. وكانت لديهم أسباب لكل تسمية.

دخلت بقارب إلى وادي العذراء. اضطررتُ للانحناء حتى النوم؛ للعبور من بين أغصان متشابكة تسدُّ مجرى الماء، ولما توغَّلتُ فيه شاهدتُ عذراءَ جميلة مَلْساءَ، تضمُّ ساقَيْها، وتستلتقي على

t.me/qurssan

ظهرها، وجاء طائر مُغَرِّدٌ، ونام على بطنها، ومرَّغ رأسه، ثم حلَّق مُنْتَشِيًا. بدت نَحْتًا طبيعيًا في الصخور، تعلوها غابة خضراء عالية، لم يطأها بَشَرٌ من قبل لوعورتها، بينما يجري الماء أسفلها رائقًا منسابًا، يعزف أصواتًا تخالها الطيور غَزَلًا، فتردُّ عليها بمناجاة. وقد فتنني جسد العذراء، وأسكرتني غوايتها، فسبحت معها في حلم جميل. وأفقت فجأة، فوجدت قاربي على حافَّة شلَّالٍ حجريٍّ حادٍّ وسحيق. ورأيت القاع هُوَّةً قاتلة، مليئةً بِنِصَالٍ صخرية، تتشوَّق للانغراس في كل ما يسقط مع الماء. ولولا خبرة قائد القارب لسقطنا وتحطَّمنا. عرفت أنه يتعمَّدُ الاقترابَ من الحافَّة؛ لِيُشْعِرَ الزائرين بِلَذَّةِ المُخاطرة.

أخبرني الرجل خلال عودتنا بحكاية تلك العذراء الجميلة قائلًا:

- كانت ابنةٌ جميلة لملك في قديم الزمان، وقد أراد تزويجها رغمًا عنها، فهربت. بحث الأب في كل مكان ولم يجدها، فلجأ إلى نبيِّةِ الجبل، والتي عاشت ألفَ عام في مغارة عالية داخل الغابة. وكانت تستلقي عاريةً على حافَّة الوادي لتتلقَّى وحيَ القمر ليلةَ اكتماله، ثم تُلْقِيهِ شِعْرًا في الصباح؛ لتحفظَه غانياتُ المعبد، ويردِّدْنَهُ خلال الطقوس. طلب الملك الغاضب منها أن تثبِّتَ ابنتَه في موضعها أينما كانت، فرسَّخَتْها على الصخر حَجَرًا، حيث كانت مستلقية. ذهب الأب إليها، ولما رآها فَقَدَ بصرَه من هَوْلِ صدمته،

t.me/qurssan

فأمر بقتل النبيَّةِ، ولكنهم لم يعثروا عليها.

كانت الحكمة التي استخلصها قائد القارب، هي وجوبُ طاعة الأب، وإلّا تعرّض الإنسان لخسارة روحه، كما حدث للفتاة. قلت له:

- ها هي العذراء، صارت سيدةَ الوادي إلى الأبد، بينما مُحِيَ أثَرُ الأب، وذهبت النبيَّةُ.

زرت وادي الجحيم أيضًا، وكان عميقًا غائمًا تحت دخان أحمر، وبالكاد ظهرت في قاعه بئر تنفث ماءً وغازًا ساخنَيْنِ بلون الدم المحترق. لم نستطع الاقترابَ، لكن على مسافة نزلت في الماء الذي صار مائلًا للاصفرار، ويمكن احتمال حرارته. قالوا إنه يشفي من الأمراض. تأمَّلتُ تلك المفارقةَ بين هذا الجحيم الشافي، وتلك العذراء القاتلة.

يردِّد الناس هناك حكايةَ رجل عاش في بلاد بعيدة، وكان له زوجة وأبناء، ولكنَّ النخَّاسين خطفوا زوجته ذات ليلة، واقتادوها إلى أورشمايا عَبْدَةً. ترك الرجل أبناءَه، وجاء ليخلِّصَ زوجته، فألقوا القبض عليه، وعذَّبوه حتى مات، ودفنوه في ذلك الوادي الذي كان باردًا رائقًا، لكن قلب الرجل ظلَّ من يومها يَضُخُّ هذا الدمَ الساخن المُسْتَعِرَ بنيران الظلم الذي تعرَّض له.

لم تكن لديَّ رغبة لأزور وادي الموت في تلك الظروف. وسمعت أنه

t.me/qurssan

أخطرها؛ فالكثيرون سقطوا فيه، دون أمل حتى في جلب جثثهم؛ لأنه صَدْعٌ عميقٌ للغاية. كان بعض المغامرين يقتربون منه، ويلقون حجرًا فيه، فيظلُّون يسمعون صوت ارتطامه بالنتوءات الصخرية، وهو يهوي مبتعدًا نحو أعماق بلا قرار. ورغم ذلك يقول البعض إنَّ في أعماقه جَنَّةً من زهور ورياحين، وفتيات جميلات لا يَكْبُرْنَ، وفواكه أحلى ممَّا يعرفه الناس. ولكن أحدًا ممَّن سقط فيه، لم يعد ليؤكِّد ذلك.

أما وادي الحوريَّات، فَلِتَسْمِيَتِهِ قصَّةٌ قديمة: كان على حافَته مَعْبَدٌ لإلهة الجمال والحب في تلك البلاد، وكانت الفتيات اللاتي يَبْلُغْنَ خلال العام يَأْتِينَ إليه يوم العيد، ويَخْلَعْنَ ملابسهُنَّ، ويَخْرُجْنَ عاريات، لِيَغْتَسِلْنَ في مياهه، ويُؤدِّينَ طقوسًا، ثم تقوم الكاهنات بدهن أَجْسَامِهِنَّ بالعطور، وأَعْضَائِهِنَّ بزيوت شجرة مُقَدَّسَةٍ، لا تَنْبُتُ إلَّا في «أورشمايا»، ثم تعود الفتيات المَرِحاتُ لِيَغْتَسِلْنَ في النهر كحوريات.

لا تندهشي سأحدِّثكِ عن المزيد من هذه الأشياء، وعن «إميلدا»؛ فهي تستحقُّ أن تعرفيها بِحَقٍّ، حتى لا تشعري بأي لَوْمٍ تجاهها. وأنا مدينٌ بأن أروي حكايتها، كطيف طيب مَرَّ يَوْمًا بعالَمِنا، فمسَّ حياتَنا بنور لا يزول. لقد استحقَّتْ أن تكون حُبَّ حياتي؛ لأنها تحدَّتْ الجميعَ لتكون معي، وأنا لم أكن بالرجل الذي يُغْرِي امرأةً

t.me/qurssan

عاقلة لتتزوَّجه. لم أملك سوى أفكار في عقلي، وأغنيات أحفظها، وأدَنْدِنُ بها، وجُرْحٍ عميق طازج، كان ثمنًا لبقائي حيًّا، ورغبة في التمرُّد والمغامرة بلا حدود. هذه الرغبة هي التي دفعتني لأن أذهب - على غير المُتَوَقَّع- إلى تلك القرية الجبلية البعيدة، والمُطِلَّةِ على بحيرة الغروب، والتي لا يذهب لها الكثيرون لوعورة طريقها، وخطورة السقوط من الجرف إلى الشاطئ الصخري، حيث لا أمل في النجاة. لكنني ذهبت بدافع المغامرة والحجِّ، بعد أن نجوتُ بالكاد من الحرب.

كان لإله تلك القرية معبدٌ في قلب الصخور العالية. ذهبت أحجُّ إليه، شاكرًا على سلامتي، وأيضًا لأنني كنت أبحث عمَّا ينسيني ويلات الحرب التي دخلتها طبيبًا أضمِّد جراح المصابين، وخرجت منها قاتلًا، وبالكاد لم أفقد ساقًا أو ذراعًا. وفي تلك القرية الصغيرة والبعيدة، التقيت «إميلدا» التي كانت أيضًا في رحلة حجٍّ مع أسرتها، وكانوا يعيشون في مدينة قريبة. التقت عينانا، فابتسمت لي بنظرة حانية، جعلت عينها اليمنى تضيق قليلًا. ورأيت سِرْبًا من عصافير طفولية يحلِّق بعيدًا، كأنَّما يؤدِّي رقصةً جماعية. همست لها - ونحن نسير على حافَّة صخرية، ونتمسك بالعشب النابت من بين الصخور، وعلى بُعْدِ أمتار من أسرتها الذين سبقونا بخطوات - بأن تتزوجيني؟ وكانت إجابتها ابتسامةَ خَجَلٍ ودهشة وسعادة، لم

t.me/qurssan

أرَ مثيلًا لها، حتى أنني أمسكت بها خوفًا من أن تسقط.

كانت خطوة متهوِّرةً، ضمن سلسلة حماقات ارتكبتها في حياتي. هكذا كان يبدو الأمر لشخص يعرفني جيِّدًا. لكنني شعرت أن الأمر مختلف هذه المرة؛ فقد صرت أكثر نضجًا، وربما لأنني تحوَّلْتُ من طبيب إلى مقاتل حقيقي رغمًا عني، وعندما يُقْدِمُ الواحدُ منَّا على قتل شخص، لأنه إن لم يفعل سيموت؛ فإنه ينضج بصورة تدعو للبكاء. وقد كنت بالفعل على حافَّة الموت، وفي الحقيقة ظللتُ عالقًا في تلك اللحظة؛ لذلك شعرت أن نظرة أمك الحانية هي يد تمتدُّ لي، أما صوتها فكان يفيض طيبة ونقاء، ولم أستطع أن أقاوم امرأة جميلة وطيبة.

طلبتها من أسرتها، فنحن هنا لكي نتزوَّج من نحب؛ لا بُدَّ أن نطلبها من العائلة. والشيء نفسه يحدث في «أورشمايا» التي تُطِلُّ على بحيرة الغروب. وقد رفض طلبنا، وكانوا على حقٍّ؛ إذ كيف يتركون ابنتهم لتذهب إلى بلاد بعيدة، لا تَمَلُّ الحروبَ والاضطرابات، وبصحبة رجل لا يعرفونه. لكن أُمَّكِ أصرَّتْ على أن تكون معي. لم تكن على ما يرام وقتها. كانت مُحْبَطَةً وحزينة، ولم أستطع أن أخذل امرأة جميلة وطيِّبة، تضيق عينها اليمنى وهي تبتسم، وقد تشبَّثْتْ بي.

إنكِ بالمناسبة تشبهينها كثيرًا، بشعرك الأسود، وملامحك الجميلة المنمنمة، وعينيك اللتَيْن لا تكفَّانِ عن التلفُّتِ حولهما كعصفورَيْن.

t.me/qurssan

وقد أخبرتني بأنها كانت في طفولتها تنقلب رأسًا على عقب، وتنام رافعةً ساقَيْها الصغيرتَيْن إلى الحائط، وهي أيضًا عبثت بكلّ ما وقع تحت يديها في تلك الفترة، وكم خرّبتْ من أشياء. وقد حافظت على طفولتها حتى التقينا، وعشنا سويًّا أجمل أيامنا، أو ربما تكون قد وجدت الفرصة لاستعادتها معي. وكثيرًا ما تبحث المرأة عن رجل تعود معه طفلة، ونادرًا ما تجد. لكن طفولتها هذه كانت تعوّضني بعض الشيء عن غيابك؛ لأنني كنت أنظر لعينيها، فأراك أمامي بملامحك الجميلة، ونظراتك الدَّهِشَةِ والمتسائلة.

غادرنا غابات «أورشمايا» وأوديتها وبحيرتها الصافية، ودخلنا إلى صحراء "أورنارا" الشاسعة الممسوسة بالسحر والتاريخ. مررنا في الطريق بمعابِدَ مهجورةٍ لآلهة عملاقة نُزِعَتْ قداستُها ذات يوم، فغدت مَحْضَ أحجار منبوذة في العراء، ومع ذلك كانت «إميلدا» منبهرة، تتأمّلها بشغف. تعرّضت هذه الأرباب ومعابدها لإهانات فادحة، منذ أسقطها رجال المعبد الشرقي. وصفوها بآلهة الشّرِّ المُخَنَّثة، واتهموا تعاليمها المحفورة على الصخور بالزندقة، وهي التي لم تكن مقروءة حتى وقت قريب. وفي أحد الأيام، بينما كان أحد الرعاة يجلس خلف جدار معبد متهدِّم، نبش بعصاه الأرض، فعثر على جرار، وجد بها صحائف، ترجع إلى تلك الفترة التي غزا فيها الشرقيون «أورنارا» وتبيّن أنها ترجمة للمتون القديمة إلى لغة

t.me/qurssan

الشرقيين، قام بها أحد النُّسَّاكِ. وعندما قرأ الناس تلك النصوص، عرفوا أنها كانت آلهة خير، تحضُّ على الفضائل، ومع ذلك استمرَّ الكهنة في اختلاق الأكاذيب حولها.

كنَّا نستريح في ظلال تلك الصروح، ونتزوَّد بما نحتاج إليه من ماء وطعام، ونعاود السير حتى البلدة التالية. رأينا بكل قرية وكل واحة على الطريق أطلال معبد قديم؛ فقد حرص الأجداد أيضًا على أن تكون الآلهة حاضرة في حياة الناس، واهتم الملوك ببنائها؛ لأنها تروِّض نفوس العباد، وتزرع الرهبة في قلوبهم، وتجعلهم يتقبَّلون كل شيء. وأيقنوا أن بقاءهم، وانصياع الناس لهم مرهونٌ بما يفعله رجال المعبد بأدمغتهم؛ لذلك أغدقوا عليهم العطايا، فدائمًا كان إطعام الكهنة أَيْسَرَ من إطعام شعب بأكمله.

مررنا بمعبد صغير مَنْحُوتٍ بأعلى الجبل لإلهة الخصب والنماء، كانت أعمدته فتياتٍ جميلاتٍ من حجر أبيض، يَحْمِلْنَ سقف العالم بنجومه وأجنَّةِ آلهته، وظهرت خَلْفَهُنَّ صورٌ بارزة لرجال يقدِّمون ماءهم كقرابين للإلهة، بينما تجود هي عليهم بالأطفال والزرع والثمر. ما زاده جمالًا كان إطلالته على السهل الأخضر، الذي ينحدر إلى حافة النهر، حيث مرسى حجري للقوارب. كان المعبد محطتنا الأخيرة بعد طريق الصحراء، وقبل أن نأخذ قاربًا في النهر لنكمل طريقنا.

على عكس مشقة الصحراء، كانت رحلة النهر مريحة، وأكثر

t.me/qurssan

متعـة. قضينـا أيامًـا شـاهدنا خلالهـا البلـدات عـلى الضفتـين. كنـا نتوقَّـف عنـد بعضهـا، ونتنـاول طعامًـا ريفيًّـا. أحبَّـتْ "إميلـدا" كل شيء، وكنـت مهتـمًّا بـأن أجعلها سـعيدة؛ لأنها تركـت بلادهـا وضَحَّـتْ لتكـون معـي. ولكننـي أشـفقت عليهـا مـن سـوء الأوضـاع في «أورنـارا» التـي عانـت ويـلات الحـرب. كانـت الغابـات قـد أحرقـت، والحقـول خُرِّبَـتْ، والمـدن نُهِبَـتْ. لم تهتـم بـكل ذلـك، وكانـت ممتنَّـةً فقـط لأن بيتنـا يطـلُّ عـلى المدينـة والنهـر مـن ربـوة عاليـة، فصرنـا ننظـر للعـالم مترفِّعـين عـن صغائـره، ومحاولـين ألا نُمْعِـنَ في تفاصيـل مـا حولنـا، ومكتفـين بدنيانـا الصغـيرة، وبكوننـا معًـا.

تبدَّلـت أحـوالي بصُحْبَتِهـا، فحتـى ذكـرى الرجـل الـذي قتلتـه، لم تعـد تطـاردني كلَّ صبـاح ومسـاء، وابتعـدَتْ كأنَّهـا صـارَتْ في ذاكـرة شـخصٍ آخـر. ورغـم ذلـك فقـد عانينـا بسـبب عـدم وجـودك معنـا؛ لأننـا حُرِمْنَـا أن نشـاهد فرحتـكِ بالنـور يلامـس عينيـك كل صبـاح، ونندهـش معـكِ وأنـت تنظريـن إلى العـالم، وتتعرَّفـين عليـه. وحُرِمْنَـا أن نتنسَّـم تَنَشُّـقَكِ للهـواء، ونؤخـذ وأنـت تستشـعرين الحيـاة بوجدانـك الصغـير، وعـبر حواسِّـكِ الطازجـة، وأن نلمـس يديـك، ونستسـلم لقبضتـك الصغـيرة وهـي تمسـك أصابعنـا، وتتشـبَّث بهـا، وأن نـرى عينيـك تنظـران لنـا بحـبٍّ وتَعَلُّـقٍ، ونشـاهدك نائمـة، فننتظـر صحـوك لنطمئنـك بأنـك بخـير، وأننـا إلى جـوارك. حُرِمْنَـا أن نراقـب حركتـكِ، ونخمِّـنَ مـا سـتكون عليـه طِباعُـكِ عندمـا

t.me/qurssan

تكبريـن، وأن نشـاهدك وأنـت تُجَرِّبـين مشـاعرَكِ الأولى مـن لهفـةٍ وغضـب ورفـض وبـكاء وضحـك، وأن نتأمَّلَـكِ وأنـت تدخلـين تحدِّيَاتِـكِ الصغـيرة لتعتـدلي ثـم لتنهـضي، ونشـاهد إحباطاتـك، ونشـجعك حتـى تتمكنـي مـن الوقـوف، ثـم السـير، والعـدو.

حُرِمْنَـا أن نندهـش معـكِ وأنـت ترين لأول مـرة عصفـورًا، وتصرخـين فَرِحَـةً باكتشـافكِ أنـه يطـير، وأنـت تشـاهدين قِطًّـا وكلبًـا وضِفْدَعًـا يقفـز، وتعرفـين أن في العـالم آخريـن سـوانا.

حُرِمْنَـا أن نصحَبَـكِ لأول مـرَّةٍ إلى الغابـة، ونشـعر بفرحتـك بـأن في الوجـود زهـورًا ورياحـينَ وفراشاتٍ وخريـرَ ميـاه، وأن نراقبـك تقفزيـن اضطرابًـا وسـعادة عندمـا تقفـين لأول مـرة عـلى شـاطئ بحـر أزرق بـلا حـدود، وعينـاك تتسـاءلان عـمَّا خلـف ذلـك الضبـاب السـاحر، وأنـت تلامسـين مياهـه بيـدك ثـم بجسـدك، وتَجْرِيـنَ مـن المـوج، فتتسـخ ملابسـك، وأمُّـك تُعَلِّمُـكِ الصـواب والخطـأ، محاوِلَـةً أن تفعـل ذلـك بغـير طريقـة أمِّهـا، لكنهـا تبتسـم حـين تـدرك أنـه لا منـاص مـن بعـض التكـرار. وأنـا أشـاهدكما طفلتَـيْن متشـابِهَتَيْن جميلتَـيْن، كلاكـما خطفـت قلبـي مـن أول نظـرة.

حُرِمْنَـا أن نشـاهدكِ تكتشـفين الموسـيقى، وتتحرَّكـين مـع ألحانهـا، فنتعـرَّفَ ذَوْقَـكِ يومًـا بعـد يـوم، وأن نسـمعك وأنـت تُغَنِّـينَ لأول مـرة، وتكتشـفين أن «أورنينـا» إلهـة الغنـاء قـد منحتـك صوتهـا، وأنـك

t.me/qurssan

ستخلبين الألباب بغنائك الذي يعانق السماء، ويلامس السحب، ويرقص مع الكواكب البعيدة.

حُرِمنا أن نشاهد يدَيْكِ الصغيرتين ملطَّخَتَيْن بالألوان، ترسمان شمسًا حمراء، وشجرة بنفسجية، وأطفالًا برؤوس كبيرة، وأصابع تكاد تَنْبُتُ من أكتافهم، وعيون تبدو كثقوب غير منتظمة، وهم يسيرون على حافَّة الورقة، كأنما يطوفون بعالمهم الصغير، وأقدام بعضهم تسير عند السقف متحدِّيَةً الطبيعة، ورؤوسهم إلى أسفل في عالم بلا عقبات.

حُرِمْنَا كلَّ ذلك وأكثر، لكن هذا أفضل يا ابنتي، أفضل لك ولنا؛ فأنت لا تعرفين ماذا يحدث هنا. وأنا أعلم أنَّكِ ما زلتِ تتساءلين، وتعيدين السؤال بطرق مختلفة: أما كان من وسيلة لتكوني معنا هنا؟ ولماذا نحن لسنا معكِ حيث أنت؟ وسأجيبك يا «أورنينا» عن كل أسئلتك؛ فأنا لم أكتب لك اليوم إلا لأخبرك بكل ما كان، ولتعرفي أننا ما فرَّطْنَا في أن نجتمع كعائلة إلا لأسباب قوية.

لعلك لا تعرفين تمامًا معنى أن يكون للشخص عائلة، وأن تكوني مُحَاطَةً بمن تحملين نُخَاعَهُم في تجاويف عظامك، ويربطكم حبل سُرِّيٌّ واحد بالحياة. بالنسبة لي كان الأمر مُعَقَّدًا؛ لأنني وُلِدْتُ في حِجْرِ أُمٍّ حزينة. مَنْ يراها يعتقد أنه يقف في المعبد أمام إلهة عَذْراءَ بائسة، أنجبت إلهًا ما بتوليًا ليموت، بعد فَقْدِ زوجها

t.me/qurssan

بطريقة مأساوية. كانت سحنة أُمّي، وجلستها مائلة الرأس، وعيناها الحزينتان، علاماتٍ تُبَشِّرُني بسوء المصير.

أنجبتْ أُمّي ثلاث أخواتٍ، أو هكذا كنت أعتقد، أصغرهن تكبرني بخمس عشرة سنة. وجميعهن تَقَمَّصْنَ الحُزْنَ ذاتَه، ومالت رؤوسهن لتماثل الوضع المأساوي للأمّ العذراء؛ ليكون المجموع أربع عَذْرَاوَاتٍ حزينات، مُنْهَكَات. كأنَّهُنَّ خُلِقْنَ هكذا؛ خائبات الرجاء منذ الأزل.

كُنَّ يَتَجَمْعْنَ حولي؛ أنا الطفل المولود ذَكَرًا، وكأنني المخلِّصُ: الذَّكَرُ الذي كان يضع بذرة في رحم الأم العذراء، ويسافر إلى حرب مقدّسة من أجل المعبد الشرقي وأرض «أورنارا»، والذَّكَرُ الذي مات عن الشقيقة الكبرى بعد زواجهما بيومٍ على إثْرِ مرض غامض، والذَّكَرُ الذي خدع الصُّغْرَى، وجعلها تُسَلِّمُ جسدها الفاتن، ثم هجرها، تاركًا لها الحسرة والألم. وحتى كنت ذلك الذَّكَرَ نَفْسَهُ الذي لن يطرق باب الشقيقة الوُسْطَى؛ لتمضي إلى آخر العمر عذراء لن يمسسها بشر.

كانت الشقيقات الثلاثة حتى مولدي قادرات على الاهتمام بشيء ما، وكنت ذلك الشيء، حيث يَتَوَسَّدْنَ كَتِفَيْ الأم، ويُحَمْلِقْنَ في الذَّكَرِ الصغير؛ تَوَسُّلًا لشيء خرافي على الأغلب؛ إذ لا شيء مِمَّا فاتَهُنَّ يمكن أن يعود. وكل مَصائِرِهِنَّ بَدَتْ مُقَدَّرَةً وحتْمِيَّةً. فلا بُدَّ

t.me/qurssan

لأبٍ محارب في بلاد المعبد الشرقي أن يترك أسرة بائسة، ويذهب لنصرة آلهة المعبد، ورفع راية «أورنارا» خفّاقة على حدودها التي تتقلّص يومًا بعد يوم. وليس غريبًا لزوج شقيقة يعمل في صُنْعِ أسلحة حارقة، أن يموت بداء غامض بعد زواجه بيوم. وكان متوقّعًا لفتاة جميلة - تعشق صورتها في المرآة، وتتوق لتجرب العشق- أن تكون فريسةً لثعلب، يقتنص براءتها ويهرب. كما لا يمكن لفتاة قليلة الجمال، في بلاد يذهب شبابُها للحرب ولا يعودون؛ إلّا أن تفقد الأمل في أن يَطْرُقَ بابَها رجلٌ.

هكذا كبرتُ في بيت، بالكاد تتردّد فيه جُمَلٌ معدودة، وبصوتٍ خافت، وبلا أداءٍ، من قبيل: الغذاء جاهز، أنا ذاهبة إلى السوق، لا تنسوا جمعَ الملابس من الحديقة قبل المساء. ثم يَنْسَحِبْنَ بعد الغروب، لتلوذ كُلٌّ مِنْهُنَّ بغرفتها المغلقة. كنتُ أحيانًا أذهب إلى حجرة أُمّي، لكنها دأبت على استقبالي بالنصائح؛ فلزِمْتُ غرفتي أيضًا.

43

جاءت ليلة عاصفة، تكسّرت خلالها أغصانُ الأشجار، وكادت تُقْتَلَعُ من جذورها. كان الرعد يقصف كطبول حرب تحرِّض على الخراب، وتهزُّ جَنَبَاتِ البيت، الذي صار يضيء فجأة بفعل بروق وصواعق، كأنها حرائق في الجوار. وبدا أن المطر لن يتوقّف أبدًا. نهضتُ؛ لأنني وسط هذه الجلبة المخيفة سمعت صوتًا كالبكاء. تتبّعتُ

t.me/qurssan

مصدره عبر الدهليز، فوصلت إلى باب غرفة شقيقتي الصغرى. توقَّفتُ وقد خُيِّلَ لي أنه غناءٌ مُبْتَسَرٌ، ثم صار مُلْتَبِسًا غامضًا، ثم ضحكًا منتشيًا سعيدًا غليظًا كضحكات ساحرة عجوز. لم أكن قد سمعتها، هي أو غيرها من نساء البيت يضحكن من قبل. أطلقت الريح صفيرًا حادًّا، وأنا أنظر من ثقب الباب، فأرعبني. لم ينكشف لي فراشها، لكن رأيت في مواجهتي صورة لمحارب، معلَّقة على الجدار، بالكاد تظهر في الضوء الخافت. دهشت لأنها لم تكن صورة أبي، وسَرَتْ في جسدي رعشة.

لم أكن قد دخلت حجرات شقيقاتي من قبل؛ فالغرف الثلاثة تقع في آخر ممرٍّ ينعطف يمينًا، ويمتدُّ لتنفتح عليه - أو بالأحرى تنغلق- أربعة أبواب: ثلاثة للشقيقات، وواحدة غامضة، بابها قديم ومُهْمَلٌ، وعليه مِغْلاقٌ صدئ. كان المحارب في الصورة ذا شارب كبير. قلت لعلَّه أبي عندما كان شابًّا. انتبهت، وقد تحوَّل صوت شقيقتي إلى ما يشبه حشرجة، ثم صار كعواء مكتوم. فتحت الباب على مهل، فأصدر صوتًا. نهضت مفزوعة، تُمْعِنُ في لَفِّ جسدها بالغطاء، رغم أن وجهها كان متعرِّقًا. صرخت بي أن أخرج، فعُدْتُ إلى غرفتي نادمًا.

ظلَّتْ شقيقتي الصُّغْرَى تتحاشى التقاء عيوننا أيَّامًا، وتشعر باضطراب في مواجهتي، وضعف لم أرَهُ من قبل على وجهها السَّامي.

t.me/qurssan

بالنسبة لي كنت مشغولًا بأمر صورة المحارب ذي الشارب الكثيف، حتى أنني ذهبت إلى حجرة أمي عِدَّةَ مرَّات لأتحقَّق مُجَدَّدًا من ملامح صورة أبي، محاولًا أن أجد أي شبه يزيل حيرتي. كنت بحاجة لأن أعود لغرفة شقيقتي مُجَدَّدًا لأتأكد من الأمر، وكصبيٍّ في العاشرة شعرت بالخوف والتردُّد بعدما حدث.

مرَّ شهران تقريبًا، ثم أخبرت الجميع ذات صباح، بأنني ذاهب لأشاهد عرض المحاربين العائدين من القتال. كانت أُمِّي تحبُّ أن أهتمَّ بعروضهم وأخبارهم؛ لأنها أرادت أن أكون محاربًا عندما أكبر، رغم أن والدي المحارب لم يَعُدْ منذ وضع بذرتي. خرجتُ في وقت ينشغل فيه الجميع بالتنظيف والطهي، وذهبت إلى الجهة الأخرى من البيت. تسلَّقْتُ سور الحديقة الخلفية، والتي تُطِلُّ عليها نوافذ شقيقاتي، ويُرَبِّينَ بها بعض الطيور. رأيت نافذتها مفتوحة، فأمسكت بفرع شجرة «إيلونا» كبيرة، وهبطت فوق خُمَّ الأوزات التي تصايَحَتْ ثم هدأت، ومنه إلى الأرض، ثم صعدتُ إلى النافذة، ودخلت.

كانت الغرفة مُرَتَّبَةً ونظيفة. ورأيت صورةَ المحارب واضحة أمامي. وكما توقَّعْتُ لم يكن أبي. عرفتُ أنه يمتلك رُتْبَةً عالية من ملابسه المزيَّنَةِ باللُّعَبِ النحاسية، والتي انعكس بريقها على وجهه المبتسم بزهو، وعلى عينيه اللامعتين المشابهتين لعيني شقيقتي

t.me/qurssan

الصُّغْرى. دفعتني رغبةٌ غامضة - تناسب صَبِيًّا- أن أفتح صناديقها الخشبية، حيث تحتفظ بأشيائها. فتحت أحدها، فوجدت ملابسَ مُلَوَّنَةً وشفافة، لم يسبق أن رأيتها ترتدي أحدها. وكان أن شعرت بخطوات في الممر، فارتعبت. اختبأت بسرعة خلف حصير ملفوف، ومستند إلى الحائط عند الركن الأبعد عن الباب، وعندما جلست، تذكَّرت على الفور أنني تركت الصندوق مفتوحًا، فارتعدت أوصالي.

مرَّت اللحظات ثقيلة. وكان يكفي أن أتخيَّل نظرة اللوم في عينَيْ أُمِّي الغاضبتين؛ لأتمنى الموت. ورأيت مجلس العائلة، والأخوات جالسات، يرمقن الذنب في عيني، وأنا أشعر بخزي وعار لا مثيل له؛ فتمنيت لو أنني لم أولد. انتبهت إلى صوت «قليذو» الغرفة، وهو يبحث عن مِرْوَدِهِ، وكأنَّه مخلب ينقِّب في أحشائي. وسمعته يلج في موضعه ويدور، وكأنما قبض المخلب على بغيته، ثم والباب ينفتح، كأنما شقَّ المخلب أحشائي، ليخرج بما ظفر. سمعت خطواتها داخل الغرفة، فرأيت الدم يقطر من المخلب، ولمحت ساقيها، وقد انحنت، وأغلقت الصندوق كعمل روتيني، وقالت شيئًا لم أتبيَّنْهُ. فتحت صندوقًا آخر، وأخرجت بعض محتوياته. كان بينها ما يشبه دُمًى وحبالًا، وقد أعادتها إلى موضعها، وأخذت ثوبًا كانت عادة ترتديه، وهي خارجة إلى السوق. بدأت تخلع ملابسها، فأغمضت عيني، حتى ارتدت الثوب وخرجت. أغلقَتْ

t.me/qurssan

البـاب؛ فاسـتعدت أنفـاسي. وسـمعت خطواتهـا تبتعـد في الممـر، فشـعرت بالنجـاة. خرجـت، وألقيـت نظـرة أخـيرة عـلى صـورة المحارب، وغـادرت مـن النافـذة.

ضبطـت أكـثر مـن مـرة بعدهـا، وأنـا أتأمَّـل وجـه شـقيقتي، وأمعـن النظـر في تفاصيلـه، وفي فكِّهـا السـفليِّ باسـتدارته، وعينيهـا الملوَّنَتَـيْن، ووجنتيهـا البارزَتَـيْن، وفي تلـك النظـرة التـي تعجَّبـت، كيـف تليـق بفتـاة رائعـة الجـمال مثلهـا، وبمحـارب خـاض حروبًـا كثـيرة، وحصـل عـلى كل هـذا القـدر مـن اللعـب النحاسـية. ظللـتُ أسـابيع أفكِّـر في تلـك الصـورة، وفيـما تخبِّئُـه شـقيقتي في صناديقهـا.

جـاء يـوم الوفـاء، فخـرج الجميـع لوضـع الزهـور عـلى قبـور المحاربـين. كان مـن المفـروض أن أشـارك في الاحتفـالات، وأن أمسـك رايـة «أورنـارا» صغـيرة، عليهـا صـورة إلـه المعبـد الشرقـي، وأن أسـتمر في التلويـح بهـا دون توقُّـفٍ، خـلال عبـور قاذفـات الزيـت المحمولـة عـلى عجـلات، وخـلال عبـور تمثـال كبـير يدفعـه الجنـود، لمحـارب قـويٍّ وشـجاع، يسـمُّونه (أبـو الوطـن)، وخـلال عبـور اسـتعراض الخيـول المزيَّنَـة بأغطيـة ملونـة، وموكـب الأفيـال المتوَّجَـةِ بالأكاليـل، والأقفـاص ذات العجـلات، وبداخلهـا الأسـود والنمـور التـي يطلقونهـا عـلى الأعـداء، وخـلال عبـور فتيـات في عمـر شـقيقتي الصُّغْـرَى، يُؤَدِّيـنَ طَقْسًـا جنائزيًـا، ويَلْطِمْـنَ الخـدود حُزْنًـا عـلى الشـهداء، وخـلال عبـور

t.me/qurssan

مجموعة من الجنود الصغار، يؤدُّون حركاتٍ قتاليةً خرقاء، وخلال عبور نسوة يُزَغْرِدْنَ ويَتَطَلَّعْنَ نحو السماء فَرْحَةً بالنصر، وخلال عبور صناديق تضم أشلاءَ جنود بلا أسماء، تقذفها الجموع بالورود. كان الاحتفال يتدفَّق من ناحية ميدان «سوهدو»، صوب مقصورة المراسم، على شاطئ النهر. وقد انسحبت على عجل، وكَفَفْتُ عن التلويح بالراية الصغيرة، وخضتُ وسط الزحام، حتى خرجت إلى شارع جانبيٍّ، ومنه إلى البيت.

تسلَّقْتُ سور الحديقة الخلفية من جديد. كانت نافذة شقيقتي الصُّغرى مفتوحة، لكن في اللحظة الأخيرة عدلت عنها، واستجبت لرغبة مفاجئة، ودخلت الغرفتين الأخريين. تفقَّدْتُهُمَا بسرعة، وكانتا كئيبتين بصورة لا تُصَدَّقُ. تضاعفت حيرتي، لأنني وجدت في كل منهما صورة لمحارب، لم يكن أبي، ولا ذلك الذي في حجرة شقيقتي الصُّغرى. محارب الكبرى كان يرتدي زيَّ الأسطول، وله جبهة عريضة تشبهها. لم يكن على ملابسه لعب كثيرة، وفقط زَيَّنَ صدره بشارة تشبه نصف شمس مشرقة. وإلى جوار الصورة وجدت مرآة غائمة مُسْوَدَّةَ الحوافِّ. أما محارب الوُسْطَى فكانت ملامحه قاسية، وعيناه ذابلتين بارزتين، وأنفه مستطيلًا، ويشبهها كثيرًا، ولم يكن في غرفتها مرآة.

سمعت القليل من حكايات نساء العائلة، ولم أفهم عَلَاقَتَهُنَّ بالمحاربين المُعَلَّقِينَ على الجدران. عرفت الحقيقة كاملةً بعد

t.me/qurssan

سنوات. كان البيت قد مات، وكففنا حتى عن ترديد الجمل المكرَّرة، وساد صمت طويل، حتى أنني جرَّبتُ التحدُّثَ إلى نفسي في غرفتي؛ فلم يخرج صوتي. بات الجميع في تلك المرحلة وقد حفظوا أدوارهم. وصرنا قادرين على أدائها بآليَّةٍ، ودون حاجة إلى كلام. بل إنني كنت أحيانًا أُصابُ بالرُّعب، عندما أتخيَّل أُمِّي بالذات على وشك أن تنطق. كان رعبي من الصدمة وردود الأفعال، والتي لم أكن أعرف إلى أي حدث جلل ستقود. لقد كنا جميعًا منشبِّثين بتلك الغلالة من الصمت، ونحتمي خلفها من المجهول، والذي يمكن أن ينزل علينا كصاعقة. أما النظرات فقد اضمحلَّتْ أيضًا بالتدريج. حلَّتْ في البداية محلَّ الكلمات الروتينية، ثم أصبحت تحدث كَصُدَفٍ عابرة، ثم كمصادفات غير مرغوب فيها، ثم كحوادث مؤلمة.

ازدادت ملامح أُمِّي وأخواتي قسوةً مع الأيام، حَاوَلْنَ كَبْحَهَا دون جدوى. وظللت وحيدًا، رغم عيشي مع أربع نسوة؛ لأنَّهُنَّ كُنَّ عَذْرَاوَاتٍ، حزينات، مَتْرُوكَاتٍ، أَرَامِلَ، مخدوعاتٍ، وغير مرغوب فيهنَّ، ولديهنَّ أربع صور لمحاربين، وغرفة مُغْلَقَة. كان ذلك كفيلًا بجعلي أكفر بالعائلة، وأفضِّل العَيْشَ وحيدًا ما تبقَّى لي. لكنني على العكس؛ كنت أتوق لأن تكون لي زوجة وأبناء، أصلح بهم خلل العالم، وأعطي لهم ما انتظرتُه من أبي الغائب. كنت في حاجة

t.me/qurssan

ماسَّةٍ لوجودكِ معنا؛ لأنني أردت أن أمحو بك عمرًا من الحرمان والانتظار واليأس، وأمنحك حياة سعيدة، لم أعشها.

رأيتُ شقيقتي الوُسْطَى وأنا طفل، تُطَرِّزُ مناديلَ بيضاءَ جميلة، يسيِّجُها أطفالٌ يمسكون بأيدي بعضهم البعض، كأنما يؤدُّون لعبة قروية. شقيقتي التي لم يمسسها بشر، كانت تتسلَّى بإنجاب العشرات من أطفال المناديل، جميعهم مبتسمون، بملابس ملوَّنَةٍ، رغم أنها كانت حزينة، ترتدي لونًا واحدًا كئيبًا بلا اسم، لذلك أردتُ أن تكون لي ابْنَةٌ جميلة؛ خوفًا أن يأتي يوم أجد فيه «إميلدا» تجلس منكفئة بعينين ذابلتين، تَلِدُ هي الأخرى أطفالًا من خيوط. أما شقيقتي الكبرى، فرأيتها تذهب في أعياد الحصاد والمحبَّةِ إلى الحدائق لتراقب الأطفال، والذين لم يكن لدى زوجها الفرصة ليمنحها واحدًا منهم، فأشفقت أن أرى أُمَّكِ تذهب إلى بائعي الحلوى، وتشتريها لأطفال الناس، مقابل حَمْلِهِمْ للحظات، أو أن أراها وقد خبَّأتْ دُمًى مشنوقة، كالتي كانت في صندوق شقيقتي الصُّغْرَى.

صرتُ شابًّا، وقرَّرتُ أن أكون طبيبًا؛ لأنني رأيت الناس في «أورنارا» يتألمون ويموتون. والناس في «أورنارا» كانوا يحتاجون أكثر شيء إلى أطبَّاءَ يعالجونهم. ولو سرت في الطرقات، فكنتِ ستشاهدين الألمَ والنحيب أمام المشافي التي تكدَّسَتْ بالمرضى دون علاج، والنسوة يبكين؛ لأن أطفالَهُنَّ يموتون. ومنذ كنت أتدرَّبُ، صرتُ أنهمك في

t.me/qurssan

العمل، وأفعل كلَّ شيء من أجل محاربة تلك الأمراض اللعينة. كانت أُمّي التي أمضت سنوات، لا تعرف أَهِيَ أرملةٌ أَمْ مهجورة، قد أرادت أن أكون محاربًا كأبي، والذي وضع بذرتي واختفى. ولكنني أردت أن أخفِّفَ آلام الناس. وعلمت أنه ليس بوسعي أن أصبح محاربًا؛ لأنني لا يمكن أن أقتل إنسانًا، حتى لو مدَّ إليَّ يَدَهُ ليقتلني؛ لذلك عصيتُها، وتعلَّمْتُ الطبَّ ومارسته. ولكن عندما مرِضَتْ، أردتُ أن أحقِّقَ أمنيتها؛ فالتحقت بالمحاربين كطبيب؛ لأجمع بين ما أريد وما تحب.

تنقَّلتُ بين البلدان، أطارد أوبئة مسعورة كحرائق. شاهدت آلام الناس، وعجزت عن علاجهم، فرحت أشعر بها نيابة عنهم، ولم يخفِّفْ ذلك من آلامهم شيئًا. كنت كُلَّمَا شاهدتُ وجعًا ينشع داخلي مذاق لحياة كنت أجهلها. ولما التحقتُ بالمحاربين، صرت أرى الناس كأعضاء تُبْتَرُ، وأخرى تأبى إلَّا أن تأخذ صاحبها إلى القبر. رحلت مع الكتائب إلى الحدود، وأحيانًا وراءها، خائِضًا في قلب الأخطار، حياة غير ما عشت. وعرفت الحبَّ في تلك البلاد البعيدة، وتَلَوَّيْتُ عِشْقًا. وكانت الأوامر تأتي أن نتحرَّك بسرعة إلى مكان آخر، فننفِّذها تحت كل الظروف، تاركين قلوبنا وراحلين. صرت كل يوم أتهجَّى حرفًا من الحياة، ولم أجدها تعني سوى انتظار، حزن، ألم، عجز، خطر، شغف، وفراق.

t.me/qurssan

وفي يوم كنّا نقوم بإخلاء بيوت في منطقة حدودية، وقعت عيني على كهل يقاوم، متمسّكًا ببيته. عرفته على الفور، رغم تقدُّمِ عمره ولحيته الكثيفة، وحالة سكره التي بَدَتْ مُزْمِنَةً. بدا بوجهه المحتقن ولحيته البيضاء، كطفل ضخم يتشبّث بِلُعْبَتِهِ. وظلّ يقاوم، رغم دفع زوجته له لينصاع للأوامر. رأيتُ زوجته كإلهة سابقة، أو كنجمة آفلة، ما تبقّى من حسنها يشير إلى فداحة ما كان من جمالها. فهمتُ أنه يتشبّث بالبيت من أجل معمل النبيذ الصغير في إحدى الغرف. ولم يكن هناك إمكانية لحمله. كذلك كان لديه مخزن يحتوي على عشرات الزجاجات المعتّقة، والتي لم يكن الوقت يسمح باصطحابها. ولأنّ معظم الجنود متديّنون؛ فلم يتعاطفوا معه.

عرفتُ الرجلَ منذ اللحظة الأولى، وتعرّفتُ عليه خلال دقائق. ترددْتُ في إخباره عن مَنْ أكون. فكرت في الرحيل، واعتبار أني لم أره. لكن وجدتني أهتم به وبامرأته وأساعدهما، وقد أثار هذا انتباهَ المحاربين والجنود، فتعاملوا معهما بخشونة أكبر. أرشدتهما إلى المكان الذي سينتقلان إليه مؤقّتًا، وتأكدت من وصولهما. راقبت الرجل، وقد جلس حزينًا. بدا أسمنَ بكثير من صورته المعلقة في غرفة أمي. نظرت إلى زوجته التي راحت تعمل بجد، وتفك الأحمال، وتُهَيِّئُ المكان للسُّكْنَى. إنها المرأة التي تركنا أبي

t.me/qurssan

لأجلها. لكن لماذا أتيا للعيش في هذه الواحة النائية؟ تساءلتُ.

عدت إليه في اليوم التالي، مستغلًا وقتَ الراحة، وانشغال المحاربين. كنت قد فكَّرتُ في الأمر طوال الليل. أخبرته بكل ثبات بأنني ابنه. نظرت في عينيه مستكشفًا وَقْعَ الخبر عليه. بدا كأنه سعيد بي، لكن ليست السعادة التي توقَّعْتُها. كأنني لم أكن أول من فاجأه بأمر كهذا، أو كأنه اعتاد أن يظهر له أبناء لا يعرفهم من وقت إلى آخر. شعر بأن أسئلتي تلومه على غيابه. أخذ يحكي عن الحروب التي خاضها، وعن تعرُّضِهِ للموت احتراقًا داخل إحدى الغابات، لولا أنه قفز في عين ماء، وتدحرج على منحدر، هوى به إلى قاع واد، فاقدًا الوعيَ. ولما استيقظ، وجد نفسه في يد قبيلة من الأعداء. وقد حبسوه سنوات في سجن ببيت كبيرهم. وكان يرى ابنته من النافذة الضيقة، فانبهر بجمالها وعَشِقَهَا. وصارت ما يربطه بالعالم. وعندما وصل محاربو «أورنارا»، واقتحموا البيت والسجن، أخرجوه. شاهدهم يقتلون الرجال، ويَسْبُونَ النساء. تَوَسَّلَ لكبير المحاربين أن يترك له حبيبته، ولم يقبل، فخطفها، وهرب بها. كان عليهما أن يقيما في مكان ناءٍ، فعاشا في تلك الواحة التي كانت مهجورة، حتى جاء آخرون، وبنوا بيوتًا في الجوار. إنها واحة للعشَّاق، فكل من تزوَّج امرأة من الأعداء صار يهرب إليها. أشار إلى الأطفال الذين يلهون في الجوار، وقال:

t.me/qurssan

- ربّما يستطيع هؤلاء إيقافَ الحروب عندما يكبرون.

استمرّ الرجل في حَكْيِ كل ما مرّ به طوال سنين غيابه، لكنه لم يتفوّهْ بكلمة تخصُّنا؛ نحن من عشنا على أمل عودته، ولا عن أمّي التي مال رأسها حزنًا، وكفَّتْ عن الكلام، فخيَّم الصمتُ والكآبة على حياتنا، ولا عن بيتنا الغامض الذي سمعت حكاياته متناثرةً ومتناقضة من وقاحات الصبية، ولَمَزَاتِ النسوة، ونظرات الرجال. كان واضحًا أنني أنتظر، وأنني لم أجد ما قاله كافيًا، ولكنه صَمَتَ، وصَمَتَ، حتّى لم يعد مفرٌّ من أن يقول شيئًا؛ فأكمل قائلًا إنه لم يكن أول من تزوّجوا أُمّي ورحلوا، حتى دون أن يعلموا أنهم قد أنجبوا. لقد مرّ أفضلُ المحاربين ببيتنا قبل أن يذهبوا لينالوا الشهادة، وتُكْتَبَ أسماؤهم على اللوْح الحجري في ميدان «سوهدو»، أو يتقاعدوا، ويتزوّجوا من نساء جميلات، ويعيشوا على هامش الزمن حياةَ قِطٍّ في البرية. هَمَمْتُ لأنصرف، فسألني عن والدته. كان يعرف أنها لا بُدَّ قد رحلت، ولكنه أراد أن يعرف كم عاشت بعد ذهابه. قلت إنني لا أعرف. نظر نحو الأرض قائلًا:

- كانت مريضة عندما غادرت، بالتأكيد ماتت قبل مولدك.

هززت رأسي، وقبل أن أنصرف، سألني عن عام ميلادي، ولمّا أخبرته، قال:

- لقد ولدت بعد سفري بأربعة أعوام.

t.me/qurssan

ثم أكمل مُسْكِتًا التساؤلَ في عيني:

- الجنين يمكنه أن يظلَّ في بطن أمه سنوات، هكذا يقول «الإيلمار».

ذهبتُ، وأنا لا أعلم، لماذا لم أخبره بشأن أمه. ولكن بعد أيام، وعندما كانت الكتيبة تغادر، مررتُ به، وأخبرتُه بما حدث، وبما فعلته أمّي، فقط لأُشْعِرَهُ بالذَّنْبِ.

هكذا كانت عائلتي. لكن لا تعتقدي أن أمّي لم تحبني. بالعكس، لقد بالغت في عَزْلِي عن الأخطار، وكل الأشياء والأشخاص كانت خطرة. أرادت حمايتي من الأمراض، والحوادث، وأذى الغوغاء، وبطش الأقوياء، ومن الحاسدين والطامعين والكارهين دون سبب. وكان معها الحق في كل مخاوفها. واستطاعت أن تفعل ما أرادت؛ لأنها كانت قوية، رغم حزنها، وميل رأسها كإلهة عذراء، بل لعله كان أحد تجليّات قوّتها، فأورثته لشقيقاتي اللائي لم تهنأ واحدة منهنَّ في حِضْنِ رجل، رغم أنها أدخلت عددًا لا يُحْصَى من المحاربين إلى فراشها، وأنجبت من بعضهم كَأَثَرٍ، قبل أن يذهبوا إلى الموت أو يفرُّوا للحياة. ولما شعرت باليأس، تَعَذْرَنَتْ.

وحتى أبي الذي فوجئ بي أمامه طبيبًا حاملًا لرتبة محارب، كان ليحبّني لو علم بوجودي. وكان ككل الآباء سيورِّطني في مصائرَ بائسة، وهو يدفعني لأفعل ما فعل، أو أتجنَّب ما تسبَّب في

t.me/qurssan

إخفاقاته، فاعلًا ذلك بحسن نية وحبٍّ شديدَيْن، وهو يرتشف آخر قطرة من الكأس، ويحملق في الأفق، ليُشْهِدَ الآلهة على أنه منحني خلاصة تجاربه وحياته.

لكنني ورثت حزن أمّي، وكآبات شقيقاتي، وظللت محكومًا بها، حتى وأنا أبالغ في الغناء والجنون والإبحار بعيدًا، حتى وأنا أنظر في عينَيْ «إميلدا»، وأسألها على حافّة الجبل، ونحن نمسك بالعشب النابت من بين الصخور، عمّا إذا كانت تقبل أن تتزوّجني. هذا الحزن الذي ظلّ نهرًا، يتدفّق تحت سطح أيامي، هو ما جعلني أتردّد كثيرًا، وأكبح جماح رغبتي في أن تكوني معنا؛ لأنني خِفْتُ أن أورِّطَكِ فيه. لكن ليس هذا كل شيء.

كان وباء قد تفشّى في البلاد. ديدان صغيرة غامضة راحت تنهش أكبادَ الناس. عَمَّ الألمُ والفزع كلَّ مكان. قال الطبيب «إيديلا» إنها تدخل الجسم مع الطعام والماء، ولا نعرف لها علاجًا. شاهدتُ المئات يُحْتَضَرُونَ معذبين بأوجاع لا تحتمل. ووقفت عاجزًا مهزومًا، أتساءل عن الحكمة من وجود تلك الديدان الصغيرة، وهي لا تؤدّي مِنْ عَمَلٍ سوى أكل أكباد الناس؟ سخر الأطبّاء منّي، فذهبت إلى المعبد. توسّلْتُ الآلهةَ أن يصنعوا شيئًا لشفاء المرضى. ورحت أعيد الصلاة والدعاء كل يوم، دون فائدة.

فكرت في التحدُّث إلى الإله الأكبر بذاته. لم يكن باستطاعتي

t.me/qurssan

الدخـولَ لأُسْـمِعَهُ شـكواي. وحـده كبـير الكهنـة كان لـه أن يعـبر إلى حرَمِـهِ، ويسـير في الممـرِّ الداخـليِّ المفـروش بالديبـاج الأحمـر، فيفتـح البوّابـة الذهبيـة لقـدس الأقـداس، حيـث يدخـل لينظّـف الإلـه، ويبخِّـر النـاووس، ويقيـم صـلاة الـشروق. طلبـت لقـاء الكاهـن الأكـبر، وأصررت عـلى طلبـي. تحدَّثـتُ معـه، وأطلعتـه عـلى الحـال التـي وصـل لهـا النـاس. رجوْتُـه أن يخـبر الإلـهَ بمـا يجـري، ويطلـب منـه شـفاء المـرضى، ولكـن الكاهـن حملـق بي، ولم ينطـق. قلـت لـه:

- قُلْ للإلـه حتـى أن يدلّنـا عـلى عـلاج نشـفي بـه المتألّمـين. لا أظنُّـه يريـد تعذيبهـم، وهـو قـادر عـلى شـفائهم.

ولكـن الكاهـن تـبرَّم مـمَّا أقـول. نظـرت في عينيـه، وقـد طفـح الكيـل مـن صمتـه، وسـألته:

- لمـاذا يـا سـيدنا يتفنَّـن تاسـوع الآلهـة في صنـع هـذه الديـدان، وجعلهـا بهـذا الخبـث لتـأكل أكبـاد النـاس؟ لقـد صـار الجميـع مـرضى، وإذا اسـتمر الحـال هكـذا، فربمـا لـن تجـد الآلهـة حيًّـا ليعبدهـا.

نظـر لي قداسـته بـازدراء، وأشـار لكاهـن صغـير أن يخرجنـي. لقـد طـردوني مـن المعبـد يـا «أورنينـا»، أنـا الـذي آمنـت بالآلهـة، ولم أَخْـطُ خطـوة دون مباركتهـا، بـل اخـترت أن أكـون طبيبًـا لأشـفي النـاس، فيشـكروها. لم أجـد جوابًـا عنـد الآلهـة، ولا عنـد الكهنـة، وصرت أسـير في الطرقـات، شـاعرًا بـالأسى.

t.me/qurssan

بعد أيام عدتُ إلى المعبد، واستغفرت عن ذنوبي. دخلت إلى المقصورات الثمانية، وبكيت طالبًا الصَّفْحَ عمَّا فكَّرتُ وقلت. وعندما كنت في المقصورة الأخيرة، ربتت يد على كتفي. التفت فوجدت الطبيب «بوخور». لم أكن رأيته منذ فترة. عرفته منذ تعلَّمنا الطبَّ معًا، واتَّسَمَتْ شخصيَّتُه بالغموض والغرابة، ثم اختفى فجأة، وانقطعت أخباره. رأيت في عينيه تعاطُفًا، وكأنه شعر بكل آلامي. وأحسستُ كأنَّ الآلهة، قد أرسلته في تلك اللحظة ليخفِّف عني.

أخذني «بوخور»، وسرنا نحو النهر. جلسنا، وبدأ يتحدَّث.

- لاحظتُ دَوْمًا أنَّكَ تختلف عن الآخرين، واعتقدتُ أن إيمانًا عميقًا بالآلهة يملأ قلبك. واليوم تأكَّدْتُ، وأنا أرى بُكَاءَكَ، وعذاباتِ روحِك؛ فلا إيمان دون آلام.

- لقد أوشكتُ على الجنون أخي «بوخور»، وأنا أشاهد المرضى يتعذَّبون، وأعجز عن مساعدتهم. لم يفلح ما تعلَّمْنَاه كأطبَّاءَ في التخفيف عنهم. وذهبت إلى المعبد مستعطفًا الآلهة فلم تستجب. وحدَّثْتُ الكاهنَ الأكبر، فأغضبته، وأغضبتُ التاسوع، ولا أدري ماذا أفعل.

- أدرك حيرتك؛ لأنني عانيتُها من قبل. وقد هَدَتْنِي الآلهة إلى ما طمأن قلبي. إننا يا أخي نعيش كالعميان في هذه الحياة، ننغمس في أحوالنا، ولا نرى الحكمة من الأمور، كما يراها التاسوع.

t.me/qurssan

- هـذا بالضبـط مـا أحـاول البحـث عنـه. إننـي أشـعر بالتناقـض في كل شيء، ولم أعـد أجـد حكمـة وراء مـا يحـدث، رغـم إيمـاني بالآلهـة، لكننـي لا أسـتطيع إدراك مقاصدهـا.

- لعـل التاسـوع مـن أرسـلوني لـك في اللحظـة المناسـبة. لقـد تركـت الطـبّ للأسـباب نفسـها، وبعـد أن مزّقتنـي الأسـئلة، وحيّرتْنِـي التناقضـات. ولكننـي اكتشـفت أننـي لـن أجـد الإجابـات ولا السـلوى، مـا دمـتُ أفكـر بالطريقـة نفسـها. إننـا ننظـر للأمـور مـن زاويتنـا البشريـة الضيقـة، ننظـر لهـا عـبر عيوننـا المشوّشـة، وعقولنـا القـاصرة. نريـد بـكل تبجُّح أن تديـر الآلهـة العـالم وفـق رؤيتنـا المحـدودة. إنـك تريـد أن تعـرف السـبب الـذي جعـل التاسـوع يخلـق تلـك الأمـراض، وهـذا حقُّـكَ.

- لقـد سـألت نفـسي، وسـألت زمـلائي الأطبّـاء، وسـألت كبـير الكهنـة، ولم أجـد الإجابـة.

- لأن الجميـع جهـلاء. وقـد كنـت واحـدًا منهـم، أبحـث عـن الإجابـة بمنطقنـا البـشري. لكننـي عـثرت عـلى أول الطريـق عندمـا قلـت لنفـسي بيقيـنٍ إن الآلهـة لا تعبـث، ولا تفعـل إلّا الخـير. ومـا دامـت قـد خلقـت الأمـراض والآلام؛ فـإن لهـذا حكمة مؤكّـدة، والطريـق الصحيح يبـدأ مـن التسـليم بذلـك.

- نعـم أخـي «بوخـور»، ولكـن كيـف يكـون المـرض والألم خَـيْرًا، وأنـت

t.me/qurssan

ترى أن من يتعذَّبون أناس أبرياء، وفقراء، وحتى أطفال لم يقترفوا ذنبًا؟

- المشكلة يا أخي الحبيب تكمن في نظرتك للأمراض والألام. أنت ومعظم الناس ترونها شَرًّا. ولكنني تأمَّلْتُ، فوجدتها نعمة كبيرة. إن هذه الآلام دون غيرها، هي ما تطهِّر النفوس، وتسمو بها. إنها منحة التاسوع لنا كي نستحق الخلاص بعد الموت. فالآلهة تعذِّبنا في الحياة العابرة القصيرة؛ لأنها تريد أن تُهَيِّئَنَا للسعادة الأبدية. والأطباء بكل جهل يحرمون الناس من ذلك، معتقدين أنهم يفعلون خيرًا. إنني أَلُفُّ جسدي تحت هذا الرداء بحبال من الليف، وقد جدلتُ بها قطعًا من الحديد، تسبِّب لي جراحًا وآلامًا لا تُحْتَمَلُ؛ لأنني أريد لجسدي أن يتعذَّب، لِتَشِفَّ روحي وتسمو، فتستحق الخلاص والخلود.

بدا «بوخور» على يقين ممَّا يقول. وقد صمتَ قليلًا، ونظر متأمِّلًا نحو الشاطئ الآخر للنهر، ثم أكمل حديثه، وقد رقَّ صوته، وكأنه صار على وشك البكاء.

- لقد رأيت بعيني أعتى الجبابرة، وقد صاروا ملائكة عندما أصيبوا بالمرض. وتأمَّلتُ المشافي، يتصاعد الأنين من بين جنباتها، فوجدت الأرواح المعذبة تلهج باستعطاف الآلهة، أكثر ممَّا في المعابد. ولو أُغْلِقَتْ هذه المشافي، وتركنا الناس يتألَّمون في بيوتهم؛ فستتحوَّل

t.me/qurssan

الدنيا كلها إلى معبد، يتصاعد فيه النواح تسبيحًا وتمجيدًا للتاسوع.

لم أستطِعْ إلّا أن أتخيل الحياة، وقد تحوّلتْ إلى معزوفة ألم. وشاهدت الآلهة تشرف على هذا الجحيم الدنيوي، لتمنح الناس بكل كرم وعطاء- النعيم بعد الموت. وفجأة رفع «بوخور» صوته فتنبّهْتُ لما يقول.

- إن الأطباء يا أخي، لا يفعلون سوى محاربة الآلهة؛ ذلك أن الناسوع يسهرون على خَلْقِ تلك الكائنات التي تسبِّب الأمراض، والأطباء يقومون بقتلها لهم. لقد تركت الطب؛ لأنني رأيت ببصيرتي أن المشافي ليست سوى معابد شيطانية، لا عمل لها سوى إفساد ما يصنعه التاسوع.

كان واضحًا أن «بوخور» ينتمي سرًّا لأتباع معبد الصحراء، وهو معبد منشقٌّ عن المعبد الشرقي. ورغم أنهم يؤمنون بالآلهة نفسها، لكنهم يرون كهنته مفرطين في تطبيق «الإيلمار»، ومتخاذلين في الأخذ بتعاليم الكهنة الأوائل. كانوا يدعون الناس لنبذ الطب والعلاج، والاعتماد على التراتيل. حذّر كهنة المعبد الشرقيُّ الناسَ منهم، واصفين إيّاهم بالمتشدّدين. ولكن ما معنى أن يكون الشخص متشدّدًا؟ إنهم يتمسكون بدينهم، ويطبّقون تعاليمه، وهل يعتبر الإخلاص للآلهة تشدُّدًا؟

إنه الإيمان، ولو كنتِ معنا هنا؛ لكان حَتْمًا أن تؤمني بعقيدة

t.me/qurssan

مـا، تقـول لـك كيـف أنشـأت الآلهـةُ العالَـمَ، ومـاذا تريـد منـا. والنـاس هنـا يعتنقـون عقيـدة آبائهـم. وإذا كان الأبـوان يصلّيـان في معبـد يقـول إن الآلهـة صَنَعَـتْ العالَـمَ مـن قطعـة حلـوى؛ فإنّـكِ سـتقتنعين بذلـك، وتتعصّبـين لـه. بعـض المؤمنـين يقتـل حتـى مـن يشـكّكُ في عقيدتـه. والكهنـة أنفسـهم قتلـوا علـماء، وجعلـوا أحدهـم يُتَبَّـلُ لحمـه بالملـح، ويـأكل منـه؛ لأنـه اكتشـف أشـياء تخالـف «الإيلـمار»، وحتـى رجـال المعبـد الغـربيِّ، كانـوا يلقـون مناوئيهـم في أقفـاص الأسـود الجائعـة، بِحُجَّـةِ نقـص إيمانهـم. والمحاربـون يغضُّـون الطَّـرْفَ؛ لأنهـم يحبـون أن يطيـع النـاسُ الكهنـةَ، فيدفعـون الأمـوال، ويذهبـون للقتـال. وهكـذا ظلَّـتْ تتسـع بيـوت المحاربـين، لتصبـح حدائقهـا غابـات، وتمـرّغ رجـال المعبـد في الملـذّات التـي يأمـرون النـاس بالتعفُّـفِ عـن اشـتهائها. لقـد حـاول «بوخـور» أن يجيـب عـن أسـئلتي، لكنـه وضعنـي أمـام أسـئلة أخطـر، دفعتنـي إلى حافَّـة الهاويـة، وجعلتنـي أكابـد أيضًـا آلامًـا بـلا دواء.

الوضـع هنـا خطـر جِـدًّا، والنـاس لم يصبحـوا قتلـةً فَحَسْـبُ؛ بـل يعتقـدون أنهـم سَـيُكَافَأون عـن كل روح تُزْهَـقُ، وأنهـم سـيمتلكون بعـد المـوت قصـورًا ذاتَ بِـرَكٍ، تنـام حولهـا غانيـات بعجائـز ضخمـة، ونهـود متبجِّحـة، وأن الواحـد منهـم سـيكون بمقـدوره أن يضاجـع مائـة امـرأة في وقـت واحـد؛ لأن عضـوه سـيتحول إلى أخطبـوط بمائـة ذراع.

t.me/qurssan

وهكـذا أصبـح الكثـير مـن الشـباب الذيـن يسـتغفرون الآلهـة لأنهـم حلمـوا بإحـدى جاراتهـم، يكفُّـرون عـن أحلامهـم بالقصـاص مـن أعـداء الإلـه الأكـبر، ومَـنْ يخالفـون «الإيلـمار»، فيقتلـون النـاس؛ ليفـوزوا بهـؤلاء النسـوة المُشَـوَّهَات.

كنـتُ صغـيرًا عندمـا وقعـت قصـة خـادم المعبـد، الـذي كاد أن يهـدم الديانـة؛ لأنـه أراد أن يحـلَّ السـلام. واسـتطاع أن يعـرِّيَ ألاعيـب الكُهَّان، والآلهـة نفسـها. رأى الخـادمُ الشـابُّ وقتهـا آلامَ النـاس، وهـم يبكـون تحـت أقـدام الكهنـة؛ لأن أبناءهـم يذهبـون للحـرب ولا يعـودون. رأى دمـوع الأمَّهـات والأخـوات والزوجـات والحبيبـات، وظـلَّ يَرْمُـقُ الآلهـةَ المرسـومة عـلى الجـدران، والقابعـة في المقصـورات، والتـي ترسـل النـاس للقتـال دفاعًـا عنهـا. وفكَّـر حتـى في الإلـه الأكـبر، والـذي كانـت تلزمـه سـنواتٌ كثـيرة ليقـف عنـد البـاب الخارجـي لحَرَمِـهِ، دون الدخـول ومشـاهدة البسـاط الأحمـر، الـذي لا يطـأه سـوى كبـير الكهنـة، في طريقـه إلى قُـدْسِ الأقـداس.

63

شـعر الفتـى بالحنـق، وهـو يـرى لا مبـالاة الآلهـة، واسـتغلال الكُهَّـان. وكان لـه شـقيق سـافر أيضًـا للحـرب، حاملًا رايـة المعبـد الشرقـي، ومات هنـاك، تـاركًا حزنًـا عميقًـا في قلـب أمـه، أصابهـا بالمـرض. اسـتنكر الفتـى أن يمـوت النـاس في سـبيل كبـير الآلهـة، وهـو قابـع في ناووسـه، لا يكلِّـف نفسـه حتـى بتعزيـة ذويهـم، وهـم يموتـون ببـطء. وعـزم عـلى شيء.

t.me/qurssan

جاء يوم حدثت فوضى بالمعبد بسبب زيارة مفاجئة لكبير المحاربين. تمكَّنَ الفتى أن يسرق «القليذو» الذهبي، وأن يصعد إلى سقف المعبد. انتظر بعض الوقت، ثم ألقى خُطَّافًا من الكُوَّةِ الدائرية التي تعلو باب ممرِّ القرابين. واستطاع أن يفتح المزلاج في الناحية الأخرى، وأن يهبط عبر الدَّرَجِ إلى الدهليز المؤدِّي إلى حرم كبير الآلهة. وجد نفسه يسير على البساط الأحمر، وكأنه رئيس الكهنة. أخرج «القليذو»، وفتح الباب الذهبيَّ حاملًا بيده الأخرى شيئًا. دخل إلى قدس الأقداس، فارتعد جسده، ثم إلى إيوان الناووس المظلم في ذلك الوقت، فتجمَّدَتْ أوْصالُه. أوقد قنديلًا انعكس على وجه كبير الآلهة، فرآه يطلُّ من الظلام، مُحَمْلِقًا فيه بنظرة ضاعفت رُعْبَهُ، وكاد يسقط على الأرض.

كان الإله الأكبر مصنوعًا من نوع فاخر من الخشب المصقول. بدا مهيبَ الوجه بعينيه المُحَمْلِقَتَيْنِ، والمُطَعَّمَتَيْن بالعاج والعقيق اليمانيِّ الأسود. وقد ارتدى حُلَّةً مُذَهَّبَةً، أعطته سَطْوَةً آسرة. مَدَّ الفتى يده، ولمسه مُتَعَجِّلًا الصاعقةَ التي ستفنيه. صارت يده كأنها لشخص آخر، تتحرَّك من ذاتها، وهي تتحسَّسه. استجمع يقينه، وأمسك الإله من عنقه، وحمله مُخْرِجًا إيَّاه من الناووس. وضعه على الأرض، فسمعه يقهقه بصوت مُفْزِعٍ، جعل ساقيه تغوصان في الأرض. تصلَّب في مكانه. هزَّ رأسه مستعيدًا وعيه. أغمض عينيه

t.me/qurssan

وفتحهما، ثم وضع مكان الإله الأكبر تمثالًا نصفيًا لإنسان شابٍّ مبتسم، وذى جناحين، ليس واضحًا ما إذا كان رجلًا أم امرأة. كان قد صنعه في قلايته طوال شهور مضت، من حجر جيريٍّ أبيض. بدا مُتَقَشِّفًا مُقَارَنَةً بالإله الأكبر، لكنه كان أكثر سطوعًا على ضوء القنديل، حيث ظهر بوضوح اسمه المحفور عند قاعدته: «إيلشلاما». وعبارة تقول:

«كفاكم حروبًا باسم الآلهة».

عاد الفتى إلى قلايته، سالِكًا الطريق نفسها، وحاملًا كبير الآلهة، ملفوفًا في خرقة. خبَّأه في حفرة بأرض القلاية، لها غطاء خشبي، عليه طبقة من الكَلْس، تبدو كأنها واحدة من البلاطات. وضع عليها جلد الثور؛ إمعانًا في التمويه. وهي الحفرة نفسها التي كان يخبِّئ فيها إلهه الجديد تَحَيُّنًا للفرصة. خرج ليعيد «القليذو» إلى ثوب الطقوس المُعَلَّقِ في ملحقة غرفة المراسم. وضعه في مكانه بحذر، وقبل أن يخرج، انفتح الباب فجأة. ودخل كبير الخدم. حبس الفتى أنفاسه. ارتعد وهو يراه يقترب منه، ناظرًا في عينيه تقريبًا، غاضبًا على الأرجح.

تخيَّلَ نفسَه في محاكمةٍ قُضَاتُها كبيرُ الكهنة ومساعدوه. رأى الجماهير تهتف بالموت لعدوِّ الآلهة، والكاهن الأكبر، ينطق الحكمَ بإعدامه بكل ما أوتي من حقد. شاهد رأسه تطير عن

t.me/qurssan

حافّة المقصلة، يركلها الجنود، وتخطفها الحشود، ويقومون بإحراقها، بينما يعلو الصياحُ بتمجيد الإله الأكبر وتاسوع الآلهة. كاد أن يصرخ. لكنه أفاق، وهو يرى كبير الخدم، وقد انحنى، وفتح صندوقًا، وأخذ شيئًا، ثم خرج دون أن يلمح الفتى الذي ستره الظلام، وأنقذته غفلة الرجل. وعاد لقلايته.

نهض الجميع قبيل الشروق على ضجّةٍ. كانوا مُسْتَنْفَرِينَ، يبحثون عن شيء ضائع، فتّشوا لأجله غُرَفَ نوّاب الكاهن الأكبر وكهنة الآلهة، وقلايات الكهنة الصغار ومساعدي الكهنة والمتدربين ودارسي الكهنوت والخدم. كان الرعب يسيطر على الوجوه، حتى أن من عرف حقيقة الشيء الضائع لم يجرؤ على النطق، أو حتى تخيُّل الأمر. دخلوا قلاية الفتى الخادم. كان مظهرها بسيطًا، يشي بتفاهتها، وتفاهة صاحبها. فتّشوها بشكل روتيني وخرجوا. ولما فشلوا في العثور على الإله الضائع، جمع كبير الكهنة نُوَّابَهُ، ورؤساء معابد الأقاليم، وكانوا في المدينة، بسبب الأعياد، ولوداع المحاربين الذاهبين للقتال، وظلُّوا يتشاورون ساعات. اختلفوا وغضبوا، ثم اتّفقوا على وضع تمثال جديد للإله الأكبر بدلًا من المسروق، ورفع ذلك التمثال.

رأى بعضهم أن الإله الجديد قد فرض نفسه بمعجزة، وأنه يستحقُّ أن يُوضَعَ داخل مقصورة جانبية. وكان هذا يحتاج جَهْدًا

t.me/qurssan

لاهوتيًا ضخمًا لإدخاله ضمن زمرة الآلهة التسعة، وإقناع باقي الكهنة والعامّة بقصته، بل يتطلّب إلغاء أحد الآلهة، أو هدم فكرة التاسوع من جذورها، حيث سيصبح هناك إله عاشر. واقترح أحد كهنة الأقاليم أن يضاف الإله المجنح، بوصفه قادم جديد إلى العالم، ليصحّح مساره، دون هدم فكرة التاسوع القديمة. وقد تحمّس لهذا الرأي بعضٌ من كهنة الأقاليم. ومع إصرارهم، اسطرّ كبير الكهنة للحديث واقفًا، وبانفعال. نهرهم بشدة، مُذَكِّرًا إياهم بتلك العبارة المحفورة تحت اسم الإله المُجَنَّحِ عند القاعدة، والتي تقول: كفاكم حروبًا باسم الآلهة. وهي تحمل اتّهامًا واضحًا للمحاربين والكهنة، وتهدِّد المعابد بالإفلاس؛ لأنها ستوقف الحروب، وتُنْهِي مخصَّصاتهم من عوائدها وغنائمها؛ لأجل عيون ذلك الإله المجنح المتقشِّف، الذي سيقطع أرزاقهم.

ظلَّ الكاهن الأكبر يسرد لهم تلك الحقائق، حتى شعر مؤيِّدو الإبقاء على الإله الجديد بالحرج الشديد. أما الكاهن الإقليمي صاحب الاقتراح، وكان أربعينيًا ممتلئًا، فقد احْمَرَّ وجهُه في البداية، وأخذ يزداد احمرارًا حتى ازْرَقَّ ثم اسْوَدَّ. وصار يتصبَّب عرقًا. ولم يُسْعِفْه صوتُه حتى ليعتذر. وهكذا قرر الكهنة تكسير ذلك الإله المجنح، وأن يُفَتِّتُوا، ويسحقوا تلك العبارة الخرقاءَ التي تقول: كفاكم حروبًا باسم الآلهة. واقترح أحدهم أن يحرق هذا الجزء

t.me/qurssan

بعـد تفتيتـه، ليأخـذ كل مـن كهنـة الأقاليـم بعضًـا مـن رمـاده إلى بلدتـه، ويقـوم بإلقائـه في مسـتنقع، لتختلـط بالطـين الآسـن، فيسـتحيل جمعهـا.

هكـذا اتَّفقـوا وخرجـوا مـن اجتماعهـم إلى الردهـة الصغـيرة، حيـث كاد يُغْمَـى عليهـم مـمَّا رأوا. راح كبـير الكهنـة يـصرخ كالمجنـون، ويقفـز بطريقـة لا تناسـب عـلى الإطـلاق وَقَـارَ كاهـن. وأخـذ يـركل أجـزاء كبـير الآلهـة الـذي كان ضائعًـا، وقـد ظهـر مُهَشَّـمًا مُلَطَّخًـا بالـروث، وتفـوح منـه روائـحُ لا تُطـاق. وبسـبب الـصراخ والجنـون خـرج الجميـع عـلى النظـام، فدخـل الخـدم إلى ردهـة الكهنـة، ووصـل المسـاعدون إلى حـرم الإلـه الأكـبر، وانفتحـت الأبـواب، حتـى أنـه صـار بالإمـكان رؤيـة البوَّابـة الذهبيـة مـن باحـة المعبـد الخارجيـة. ووسـط الفـوضى العارمـة والذهـول، راح بـاب قـدس الأقـداس الذهبـي ينفتـح ببـطء، حيـث وجـم الجميـع، وهـم يشـاهدون الإلـه الأبيـض المجنـح يسـطع مـن ناووسـه في قـدس الأقـداس. ولم يتمالـك الجمـع أنفسـهم، فخـرُّوا ساجدين، مـن كبـار الكهنـة، ومسـاعديهم، وكهنـة الأقاليـم، وحتـى الخـدم. وصـار بعضهـم يُنَهْنِـهُ، وراح بعضهـم ينتحـب، بينـما كان الكاهـن الأكـبر مُسْـتَلْقِيًا عـلى الأرض، مُتَشَـنِّجًا يهـذي بـكلام طفـل.

تـسرَّب الخـبر وانتـشر، فأعلـن في كل البـلاد عـن ميـلاد إلـه السـلام «إيلشـلاما». وخـرج النـاس يحتفلـون. وسرت الشـائعات بـأن «أورنـارا»

t.me/qurssan

سـتَكُفُّ عـن الحـروب، وأن السـلام سَـيَعُمُّ. فـرح الآبـاء لأن أبناءهـم لـن يذهبـوا ليموتـوا. وملأ الأمـل قلـوب الفتيـات بأنَّهُـنَّ سَـيَجِدْنَ مـن يتزوَّجْـنَ. وتهلَّـل الأطفـال لأن آباءهـم لـن يتركوهـم، ويتحوَّلـوا لمجـرد أسـماء محفـورة عـلى صخـرة ميـدان «سـوهدو». ولكـن المحاربـين شـعروا أن عصرهـم قـد أفـل عـلى يـد ذلـك الإلـه المجنـح، والـذي صـاروا يجـدون تعاليمـه مكتوبـة، ومُلْقَـاةً في أروقـة المعبـد، وخارجـه، وفي الأسـواق. اجتمعـوا وانضـمَّ لهـم كبـير الكهنـة الجديـد. وكان أن قـرَّر إضافـة سـطور إلى «الإيلـمار» تقـول إن الإلـه الأكـبر قـد حـوَّل نفسـه بنفسـه إلى «إيلشـلاما»؛ لأنـه قـرر أن تكـون رسـالته هـي تحقيـق السـلام، وأن السـلام يحتـاج إلى قـوة تحميـه.

هكـذا كَـفَّ الكهنـةُ عـن القَـوْلِ بـأن الحـروب تُخَـاضُ مـن أجـل الآلهـة، وبـدلًا مـن ذلـك قالـوا إن الحـرب هـي مـن أجـل أن يسـود السـلام. وقالـوا إن «إيلشـلاما» يعدهـم بالسـلام الدائـم، إذا هـم أخلصـوا في قتالهـم ضـد أعـداء رسـالته. ومـا هـي إلَّا سـنوات حتـى عـادت الحـروب أكـثر مـما كانـت، ثـم جـاء كاهـن، وأعـاد الإلـه القديـم، واعتـبر الفـترة السـابقة فـترة هرطقـة، وصـاروا يجلـدون كل مـن يحتفـظ بترنيمـة لإلـه السـلام.

اختفـى الفتـى الـذي صنـع الديـن الجديـد، ولم يظهـر لـه أثـر في «أورنـارا». قيـل إنـه ذهـب إلى جزيـرة بعيـدة، آمـن أهلهـا برسـالته

t.me/qurssan

وإلهه، وبنوا له معبدًا. وقيل إنه ألّفَ كتابًا نسبه للإله، يمجّد فيه الشهوات، حيث صار رجلًا مُولَعًا بالنساء. وقيل اتخذ كاهنات من أجمل نساء الجزيرة، وكان يضاجعهن في قدس الأقداس، أمام ناووس الإله المجنح. وقالوا إن إحداهن قتلته بالسم بدافع الغيرة، وذلك قبيل وصول محاربي المعبد الشرقيّ إلى الجزيرة، واحتلالها، وزرع رايات الإله على جبالها، والنزول إلى سهولها لاغتصاب النساء. ولكننا لم نستطع التأكُّدَ من كل هذه الروايات؛ لأن كهنة المعبد الشرقي دأبوا على اختلاق الأكاذيب، حول البلاد التي يغزونها.

رغم كل شيء، لم أرَ المشكلة في أفعال الكهنة، بقدر ما رأيتها في عقول الناس. إنهم متعطّشون للأكاذيب، يسدُّون بها فجوات العالَمِ، الذي يبدو كأشلاء أو حطام. وهم يتلقَّفونها، ويضعون لِبَيْضِها القش في عقولهم، على أمل أن تُخرج طيورًا، تغرِّد بالسكينة بين ضلوعهم، لكنها لا تفقس إلا الحيَّات، تلتفُّ حول أعناقهم، وتنشب أنيابها في أفكارهم ووجدانهم؛ لذلك فلا عجب أن تحمل ملامحهم كل هذا القدر من الذلّ والألم والحقد أيضًا.

أقحمتك يا صغيرتي في أمور كثيرة، ربما لأمارس دور الأب الذي حُرِمْتُ منه. لكن ماذا أعلِّمُكِ، وأنا أجهل حتى من أكون، ولماذا جئت إلى هنا. لقد اكتشفت أن كل ما عرفته عن ذاتي وعن العالم، كان خرافات ألّفها كهنة المعبد الشرقي، وأنني ضيَّعتُ أكثر من

t.me/qurssan

نصف عمري في تجرُّع الأوهام. وهأنا أقضي ما تبقَّى في محاولة التخلُّص منها، ومطاردة أشباحها.

قرأت في «الإيلمار» أن آلهة المعبد الشرقي، قد صنعوا الطبيعة على شاكلتهم، واضعين فيها خلاصة فكرهم وخيالهم، فذهبت، أتأمَّل على حافَّة العالم، فإذا بجمال أخَّاذٍ يخطف بصري، لكن عيني التقت بعين ذئبة في الأحراش، تسحق عظام أرنب بين أسنانها، وقد اعتراها الخجل من نظرتي، فقالت:

- عندي ابنة رضيعة تريد أن تعيش.

ولما رأت عينَيَّ تتحسَّران على الأرنب المسكين، قالت:

- لا فَضْلَ له إذ يأكل العشب، ولا ذنب لي إذ آكل اللحم.

وانصرفتْ مُسْرِعَةً. لكن هل الوحوش وحدها من تفعل؟ إننا أيضًا نضع السكين عند أعناق كائنات ضعيفة، ونردِّد أسماء التاسوع، بينما ينزف دمها، وهي تنتفض مُتَحَشْرِجَةً حتى الموت. ونحن لسنا أشرارًا كما يردد الكهنة. لقد رأيت وأنا طفلٌ الباحةَ الخلفية للمعبد، وقد امتلأت برؤوس نعاج وماعز وأبقار، وحتى طيور، وصرت أتقيَّأ. لكن الكاهن أمسك بيدي، وقال إنها قرابينُ مبارَكَةٌ للتَّاسوع، فظللتُ أحلم بالآلهة التسعة، وهم يمضغون تلك الرؤوس في كابوس مميت. والبشر يعتقدون أنهم صاروا بِمَأمَنٍ من الوحوش، لكنهم في الحقيقة، ما زالوا يفترسون من كائنات أصغر

t.me/qurssan

حتّى من أن يروها، تتخصَّص في أكل أكبادهم، وامتصاص دمائهم، واستوطان بطونهم. وهي أيضًا تفعل ذلك لتعيش. أما الكهنة فيكتفون بالنظر إلى المرضى مردِّدين: إنها إرادة الآلهة.

كنت صغيرًا عندما رأيتُ الخالة «إيلونا»، وكانت مؤمنة تقدِّم القرابين، وقد حملَتْ هذه المرَّةَ طِفْلَتَها «إيبين» مُحْتَضَرَةً إلى المعبد؛ لأن الأطباء فشلوا في علاجها. كانت تتوسَّل للكهنة أن يطلبوا من الإله الأكبر الجالس خلف البوَّابة الذهبية، أن يتدخَّل ويشفيها. لكنَّ الكهنة نظروا للطفلة، وقالوا إنها إرادة الآلهة، وأنهم سيعوِّضونها بواحدة أفضل منها بعد الموت. وراحت الخالة «إيلونا» تصرخ، وتنتحب على أرض المعبد، وتقول:

- لا أريد تعويضًا. لا أريد واحدة أخرى. أريد هذه، إنها صغيرة وبريئة لتتعذَّب هكذا طوال أسابيع.

كنت طبيبًا، وعرفت عشرات الأمراض، وعاينت آلاف المرضى، ورأيت الطبيعة، وهي تقذف أجسادًا مُشَوَّهَةً، تثير الرعب، وأخرى ذابلة تثير الشفقة، وشاهدتها تدفع أجسادًا ظاهرُها النَّضَارَةُ، لكنها خبَّأتْ داخلها السَّقَمَ والفناء. وعرفت أنها غافلة لاهية، لا تكاد تتقن جسدًا، فرحنا نتدارك إهمالها، ونصلح أعطابها، ونبني المشافي في كل مدينة، وكل قرية، وعلى كل طريق. لكنها ظلَّتْ لا تكفي لإصلاح التالف من عملها. شاهدت حَيَوَاتٍ تَفْنَى لأسباب

t.me/qurssan

نافهة، ونقَّبْتُ بين الجثث، فوجدت الموت يضحك مخمورًا، وهو يغنِّي:

- أنا العبث، والمرض أبي. أنا أعيش والحياة تموت. ههه

إنه عالم التَّاسوع الذي أشفقتُ عليكِ من عَمَائِهِ، وحَمَيْتُكِ من رعونته وانفلاته. وقد عشت فيه، وقاومت، وتألَّمتُ، وما زلتُ. ورغم كل الحظوظ السيئة التي لحقت بي؛ إلا أنني مُمْتَنٌّ، على الأقل لأنني وجدت «إميلدا»، ومستاء لأنها رحلت، وتركتني، أكثر من نقمتي على كل ما حلَّ بي؛ لأنها كانت كلّ شيء لي في هذه الحياة. وهذا نسميه هنا الحب، وهو أيضًا لا يخلو من تناقضاته القاتلة.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

بيتو ترين

جِئتُ مدينةً فوجدتُ أهلها متشابهين، كانوا جميلي الطّلعةِ كالهةٍ. لم أُميّزْ فيهم رجالًا ولا نساء، ولمّا سألتُهم ضحكوا، لكنني فهمت، عندما وجدت المدينةَ بلا أطفالٍ ولا مقابرَ.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

توقَّف «أوديشو» عن إملاء رسالته. كان «نوربا» الرسَّام قد شعر بالإعياء. تنفَّس بعُمْقٍ، وشرب بعض الماء، وأكل كِسْرَاتٍ من الخبز، وبِضْعَ تَمْرَاتٍ. لم يتحدث أحدهما إلى الآخر، وراحا في النوم.

في الخارج كانت المدينة تستيقظ، والأقاويل، تنتشر هذه المرة عن النهر الذي أوشك أن يجفَّ، بعد أن بنى ملك «أوركينا» عليه سدًّا. راحوا يصبُّون اللعنات على تواطؤ المحاربين والكهنة. وفي بيت بائسٍ، في حيٍّ على الأطراف، كانت فتاة فقيرة تقرأ من «الإيلمار» إلى جوار رأس أمها، والتي تُحْتَضَرُ مُتَأَلِّمَةً منذ أيام. كانت الفتاة حزينة، لكنها تشعر بشيء من الرضا؛ لأنها اعتقدت أن معاناة الاحتضار، ستخفِّف آثام أُمٍّ قضتْ معظمَ حياتها محترفة للبَغَاءِ. تمنَّتْ الفتاة أن تجد روح أمها الخلاص، عندما تقف أمام محكمة التَّاسوع.

استيقظ «نوربا» في المساء، مستعدًّا لاستئناف الكتابة. كان «أوديشو» قد صعد الدَّرَجَ، وفتح مِغْلاقَ المقبرة، وأطلَّ برأسه على الجبَّانات من حوله. رأى الظلام عامًّا، والسكون مُطْبِقًا، وفقط سمع دبيب أقدام. قال لنفسه إنه لحفَّاري القبور، الذين جاءوا لحفر قبر جديد، أو نبش قبر قديم. أغلق الباب الخشبيَّ وعاد. كان صديقه شغوفًا لاستكمال الرسالة. لكن «أوديشو» بدا في مزاج سيِّءٍ، فطلب من «نوربا» أن يعود إلى بيته ليستريح، وأن يرجع في الغد ليستكملا عملهما.

t.me/qurssan

جلس «أوديشو» وحيدًا. قَرَّبَ عينيه من الرسالة التي أملاها على صديقه بالأمس. لم يتمكَّنْ من قراءة الكثير؛ لأن حروفها السيريانية بدت في تداخلها كأنها كتابات الأوَّلين، لكنه شعر بالرضا. رأى مكتوبه وثيقة دامغة تثبت أنه عاش، وعانى وقاوم، وفعل ما عليه. عزم أن يضمِّنَه كل ما احتفظت به ذاكرته؛ لأن كل شيء مر به، هو دليل لبراءته أمام ابنته. وقد أراد أن يلتمس عفوها، وألَّا يترك أيَّ احتمال لعدم الغفران. إنه لم يعد يؤمن بالتاسوع ومحاكمتهم الهزلية، ولكنه رأى ابنته تاسوعه. وتمنَّى أن ترى من أحداث حياته، أنه كان على حقٍّ، وأنَّه لم يكن لديه خيار آخر، لذلك عزم على تذكُّرِ كل شيء، يبرِّئه و«إميلدا».

اكتشف «أوديشو» وهو يسترجع حياتَه، ويتذكَّر إخفاقاتِه وزلَّاتِه، أن لديه الكثير ليحكيه. لم يكن ينوي أن يصبَّ كلَّ اللعنات على الحياة والظروف، وعلى المحاربين والكهنة. إن له أيضًا سقطاته، وأراد أن يواجهها، معتقدًا أنها له لا عليه، وأنها تستوجب عَطْفَ ابنته، لا نقمتها؛ لأنه رآها قدرًا إنسانيًا يثير الشفقة. وكان حسن ظنِّه بابنته كبيرًا. تأهَّب للاعتراف، وتعرية حياته بلا حدود، وكما لم يفعل من قبل. ورأى في ذلك إخلاصه وخَلاصَه.

نظر حوله إلى جدران مقبرته، وما عليها من رسوم. رآها غائمة، لكنها تنبض بحياته. شاهد نفسه يحيا مجدَّدًا بين مشاهدها.

t.me/qurssan

كانت الجدران تتحرك. بَدَتْ بأشخاصها العُراة أكثر صدقًا من حياته الفعلية. بل هي حياته الحقيقية، دون كذب أو زيف أو خداع. شَعَرَ بالامتنان لصديقه «نوربا» الرسَّام. تمنَّى لو كان بالإمكان أن يستعين الإنسان بصديق فنَّان، يرسم حياته مُسْبَقًا كما يريد. تنهَّد بارتياح، كأنما يقول لنفسه: على الأقل سأحظى بالموت كما يليق.

عاد «نوربا» إلى كوخه، ونام في فراشه. كان متأثِّرًا برسالة صديقه إلى ابنته، وبما كتبه عنه وعن «أبيلتا». وقد تمالك دموعه خلال الكتابة؛ لأنه لم يُرِدْ أن يقطع تدفُّقَه. شَعَرَ بأهميَّة الرسالة، لأنها ستخلِّد أيضًا حكاية ابنته كما وعد «أوديشو». وكان خلال تدوينه قد خطر بباله فجأة بأن كتابة هذه الرسالة ربَّما ستكون ذلك العملَ الذي خُلِقَ ليقوم به إنقاذًا لأحدهم، وهو هنا صديقه؛ لأنه سينقذه من أن يموت مُعَذَّبًا. وها هو يفعل ذلك دون أجر. ورأى أنها ليست مجرد رسالة تخصُّ صاحبَه وابنته، ولكنها حكاية أناسٍ كثيرين، ويمكن أن تكون إنقاذًا لأرواحهم أيضًا.

فكَّر بأن الرسالة تستحقُّ أن يقرأها الناس، ليروا النبع المسموم الذي تتدفَّق منه مآسيهم، وأن جهده يجب ألَّا يقتصر على كتابتها، ولكن أن يعمل على نشرها. ذهب خياله إلى نسخها مرَّاتٍ، ووضع رسوم مع كل نسخة ليتداولها الناس. تخيَّلَ الصُّوَرَ الملوَّنة، على

t.me/qurssan

جـدران المقـبرة، وقـد نقلـت إلى الرقـوق بجانـب الرسـالة، ولم يجـد ذلـك كافيًـا. قـال لنفسـه: لمـاذا لا تحفـر عـلى جـدار حجـريٍّ، كـما كان القدمـاء يفعلـون؟ ليقرأهـا النـاس في الأزمنـة القادمـة. لكنـه كان يعلـم أن الكهنـة والمحاربـين، لـن يسـمحوا بذلـك، لأنهـم لا يريـدون للنـاس أن يعرفـوا.

تضاعـف شـعور «نوربـا» بأهميـة مـا يفعلـه، فهـو يـدوِّن مـا يحـاول الكهنـة والمحاربـون إخفـاءَه. رأى نفسـه يكتـب الروايـة الحقيقيـة المُطـارَدَة أبـدًا، والتاريـخ الممنـوع، الـذي لم يَكُـنْ لِيَسْـطُرَ بدونـه. وعـدم كتابتـه كان سـيصبح انتصـارًا أبديًـا للظُّلْـم والـشرور. امتـلأ بالسـعادة لأنَّـه شـعر بـأن عملـه هـو إنقـاذ للحقيقـة أيضًـا، حتـى ولـو مـن خـلال رسـالة تُمْـلَى داخـل مقـبرة؛ لأنـه آمـن بأنهـا سـتقاوم المـوت والاندثـار، وأنهـا بـذرة انتصـار، سـيتحقَّق يومًـا مـا.

نـام «نوربـا» سـعيدًا مبتهجًـا، لكنـه رأى حلمـه السـابق مجـدَّدًا مـع بعـض الاختـلاف. كان هـذه المـرة في خـلاء مـن عظـام. حتـى حـصى الأرض، صـارت عظامًـا صغـيرة، والنباتـات التـي تخـرج منهـا، كانـت سـواعد تتفـرَّع منهـا أيـادٍ، وفقـرات أصابـع. وعـلى البُعْـدِ ظهـرتْ غابـةٌ مـن أشـجار عظميـة أيضًـا، طرحـت جَماجِـمَ. رأى نفسـه يجلـس عـلى جمجمـة فيـل، ويقـوم برسـم جثَّتـه التـي ترقـد أمامـه. وقبـل أن يضـع اللمسـات النهائيـة لوجهـه، جـاء هيـكل عظمـيٌّ لطائـر عمـلاق مـن

t.me/qurssan

ناحيـة الغابـة مُحَلِّقًـا. ابتسـم لـه بمكـر، ثـم خطـف الصـورة مـن بـده، وهـرب. نهـض «نوربـا» شـاعرًا بالضيـاع والانقبـاض، ولم يسـتطع أن يجـد تفسـيرًا مؤكِّـدًا لحلمـه هـذه المـرة. إنـه المـوت، لكـن لمـاذا خطفـت صورتـه؟

شـعر بالجـوع، فتنـاول بعـض الطعـام، وعـاد محـاوِلًا النَّـوْمَ مـن جديـد. كان يعـرف أن أمامـه جهـدًا كبـيرًا؛ لأن مـا تبقَّـى مـن الرسـالة هـو الأهـم والأخطـر. وبينـما كان يفكِّـر سـمع مـن يَطْـرُقُ بـابَ كوخـه. خـشي أن يدخـل أحدهـم عليـه بجثـة جديـدة. وفتـح البـاب متوجِّسًـا. كانـت فتـاةً نحيلـة، جـادَّةَ الملامـح وحزينـة، تقـف أمامـه. بـدت فقـيرة، لكـن ملامـح الـشرف والتحـدِّي تُشِـعُّ مـن وجههـا. أخبرتـه سريعًـا عـن أمهـا التـي تعـاني آلام الاحتضـار، والتـي يُنْتَظَـرُ موتهـا بـين لحظـة وأخـرى. طلبـت أن يـأتي معهـا، ليرسـمها قبـل أن تمـوت؛ لأنهـا خشـيت مـن مطـاردات أتبـاع معبـد الصحـراء. اخترقـت ملامـح الفتـاة التـي تمـزج الضَّعْـفَ بالتحـدِّي قَلْـبَ «نوربـا». شَـعَرَ بالتعاطـف والانقيـاد لهـا كـما لم يشـعر مـن قبـل. أراد أن يقـول إنـه لا يسـتطيع رسـم وجـه امـرأة تتألَّـم؛ لأن هـذا سـيجعل روحهـا تتألَّـم إلى الأبـد، ولكـن نظـرة التعلُّـق والرجـاء في عينيهـا جعلتـه يفكـر في طريقـة.

خـرج «نوربـا» حامـلًا أدواتـه، وسـار خلـف الفتـاة. اجتـازا طريقًـا مـن خـارج المقابـر إلى ضاحيـة فقـيرة قـرب النهـر. مَشَـيَا في الطرقـات

t.me/qurssan

الضيقة الرطبة. تسارعت دقّات قلبه كلّما تقدّمَ؛ لأنه تذكّر هذه الشوارع. لقد أتى إلى هنا منذ سنين بعيدة. كان وقتها حزينًا ضائعًا، يوشك على الانتحار. تابعت الفتاة سيرها، وكلما عرج خلفها ازداد انقباضًا. اتّجهتْ مباشرةً إلى الباب الخشبي الواطئ، والذي حال لونُه الأزرق. هبطا درجتين. بدا له البيت كأنّما غاص في الأرض، خلال السنوات الماضية. فتحت الفتاة باب الغرفة. ودخل «نوربا» العجوز خلفها. وجد «بريثا» وقد هدّها الزمن، وأكلها المرض، تَئِنُّ مُحْتَضَرَةً. بدت كأنها ولجت إلى العالم الآخر، وأن ما يربطها بالحياة، لا شيء تقريبًا.

إنها «بريثا» التي يعني اسمها «الدنيا»، وهي بحقٍّ تشبهها. كانت في شبابها جامحةً تؤدّي عملها بإتقان زائد، وإمعان يطيح بالخيال. إنها البَغِيُّ التي شعر كل من زاروها بأنها تفوق الأخريات رغبةً وتَهَتُّكًا، أما خارج نطاق عملها، وعلى الأغلب خارج حدود الفراش، فكانت تبدو جادّةً ورصينة، بل حكيمة صارمة، نبعت حكمتها من التعرُّض المفرط لقسوة الحياة، والتعلُّم من مآسٍ فاقت كل الحدود. وأكثر درس تعلمته مبكرًا، ومنذ طفولتها البائسة، وتأكّد لها عبر مراحل حياتها، هو ألّا تنتظر رحمة البشر، ولا حتى الآلهة. وكانت عندما تقع في ضائقة، تبدأ في التوسُّل للأرباب أن تساعدها، لكنها تتذكّر أن التاسوع، يغضُّون الطَّرْفَ عن

t.me/qurssan

أشخاص أجْدَرَ منها بالرحمة، فتكفُّ عن التوسُّلِ، وتبدأ في العمل لتخرج من ضائقتها. وقد رأت ببصيرتها أن الإنسان مسؤولٌ عن بعض مصيره، رغم قسوة ونذالات الحياة، وهو مطالَبٌ بأن يعمل حسابًا لكل شيء، وأن يؤدِّي كل ما عليه، خصوصًا عندما لا يكون من زُمْرَةِ المحظوظين.

لم تَرَ «بريثا» البَغَاءَ كعمل عظيم، لكنها وجدته الوسيلة الوحيدة التي أُتيحت لها، لتجد ما تأكل. كل السبل كانت مُغْلَقَةً، فحتَّى عندما جرَّبتْ العمل في مزارع الكروم، أو معامل النبيذ، أو كبائعةٍ للخُضَرِ كانوا يحاولون استغلالها. لم تكن «بريثا» جميلة وِفْقًا للذَّوْقِ السَّائد في «أورنارا»، لكن جسدها الأسمر الفائر، كان يشعُّ شَبَقًا حارًّا، ويثير غرائزَ لا تقاوم، أما وجهها الذي يخلو من الرقَّة، فكان يحرِّر ساديَّةً بلا حدود لدى الرجال، تجعلهم يرغبون في انتهاكها وتقطيعها، ويتمنُّون لو تحوَّلتْ أعضاؤهم إلى قطيع من كلاب متوحشة، تَنْهَشُ جسَدَها، وتمزِّق أعضاءها دون رحمة.

لقد رأت نفسها تقوم بالعمل الوحيد الذي أُتيح لها، ولم تجده يختلف كثيرًا عن غيره من الأعمال. كان الجميع حولها يبيعون ما يمتلكون، ليحصلوا على ما يفتقدون، وهي أيضًا صارت تبيع الشيء الوحيد الذي امتلكته. ورأتْ أنها لا تؤذي أحدًا. وكانت متعاطفة مع الجميع.

t.me/qurssan

لم يُقَدَّرْ لـ«بريثا» أن تجني ثروة طائلة، رغم أنها دخلت بيوت المحاربين، وضاجعت حتى الكهنة الأكثر تشدُّدًا، ولم يوجد صاحب مال أو سلطة في «أورنارا»، إلا وقد جرَّبها. ولكنها رغم جاذبيتها الإعجازية، كانت امرأةَ المرَّة الواحدة؛ لأنه كان من الصعب تكرار العلاقة معها. ربما لأنها بتفانيها؛ كانت تمنح كل شيء في هذه المرة، وربما لأنها مرهِقَةٌ إلى درجة تُشْعِرُ الرجالَ بالنجاة عند الانتهاء. وهم لم يرغبوا أن يكونوا على حافَّةِ تلك الأخطار من جديد. وبعضهم احتاج أسابيعَ ليتعافى. كانت تجعلهم يفعلون مرات متكرِّرَةً ومتتالية وعديدة، خارقة قوانين الطبيعة، ومتحدِّيَةً قدراتِ الرجال، ونفسها، ومحقِّقةً النصر في كل مرة، لكن على حساب زبائنها المساكين الذين يشعرون عقب المضاجعة بأنهم لم يفعلوا، ولكن فُعِلَ بهم. وقد ساعدها على ذلك بِنْيَةٌ قويَّة، لم تكتسبها ابنتُها البائسة، والتي لم يكن «نوربا» الرسَّام قد عرف حتى تلك اللحظة اسمها. سألها، وأجابته:

- إسمي أورنينا.

إنها نوع من الفتيات، لا يمكن تصوُّر أنها مارسَتْ البغاء. وربما الجدية الزائدة والمعاناة على وجهها، هي مِنْ أثَرِ الصراع الذي عاشته على مدار حياتها، بين شرفٍ أصيل في نفسها، وبين وجودها في بيت بَغِيٍّ هي أمُّها. هكذا فكَّر «نوربا» الرسَّام، وهو يضع خطوطَه

t.me/qurssan

الأولى على اللوح الخشبي الرقيق. كان قد قرّر أن يسترجع الصورة الأولى «لبريثا» في شبابها، عندما جاء لاجئًا إليها بنصيحة من صديقه «أوديشو»، والذي كان قد زارها في فترةٍ جَثَمَ الحزنُ على صدره أيضًا. وقد أنهكته، وأنهكت حُزْنَهُ، وشغلته باستعادة نفسه التي انسحقت خلال العلاقة معها؛ لذلك نصح بها «نوربا» وقتها. تذكّر بعض تفاصيل ذلك اليوم البعيد، قبل سنوات، ربما عددها كعمر هذه الفتاة الجادة، التي راحت تقرأ من «الإيلمار» إلى جوار رأس أمها المحتضرة.

خطَرَتْ بباله فكرة، لكنه سرعان ما هزأ منها وطردها. عاودته مجدَّدًا عندما راح يتأمّل ملامح «أورنينا». فكّر بأن هذه الفتاة يمكن أن تكون ابنته. ورأى جسدها النحيل علامةً على ذلك. بحث في ملامح وجهها عن شيء مشترك بينهما. لم يجد ما يؤكّد شكوكه. نظر إلى شَحْمَةِ أذنها، فوجدها متّصِلَةً بطرف صدغها مثله تمامًا. تململ من الهاجس اللعين. حاول التركيز فيما يفعل، ولم يستطع. نهض وأخبر الفتاة بأنه سيكمل عمله في بيته، وسيأتي لوضع اللمسات الأخيرة في وقت لاحق. شكرته الفتاة، وطلبت منه أن ينتظر قليلًا.

دخلت «أورنينا» إلى غرفتها، وحاولت أن تجد أي شيء تعطيه له مقابل عمله. لم تجد إلّا كِسْرَةَ خبز جافة، وكادت تبكي. بعد قليل، نادته. سمع صوتها خافتًا، يأتي من الحجرة الأخرى. فتح

t.me/qurssan

الباب المُوَارَبَ، فوجدها تقف أمامه عارية منكسرة. وقف مذهولًا متخشِّبًا، وقد تحطَّمَتْ الصورة التي رسمها في خياله عن مقاومتها، ونقاء روحها. شعر ببلاهته كما لم يشعر من قبل. لكنه تذكَّر أنه كان على الدوام يحسن الظَّنَّ بالناس. وفي الحقيقة لم يرغب أبدًا في تغيير هذه العادة. بادرته الفتاةُ قائِلَةً:

- ربَّما لن تصدقني إذا قلت لك إنني لم أفعل هذا من قبل. وربَّما لا أعجبك، ولكنني أقسم بالتَّاسوع أن هذه هي المرة الأولى التي أتعرَّى فيها أمام رجل، وأنني لم أجد ما أعطيه لك أجرًا، سوى كسرة خبز جافَّةٍ، استحيَيْتُ أن أقدِّمها لك، حتى لا تظنَّ أنني أسخر منك. ولأن أمِّي في أشدِّ الحاجة لأن تَطُوبَ روحُها، بعد حياة بائسة؛ فقد أردت أن أقيم شعائرها كاملةً؛ لأخفِّفَ عنها ما جَنَتْهُ على نفسها، وها أنا أمنحك جسدي قُرْبانًا لخلاص أمِّي.

أشاح «نوربا» بوجهه عن الجسد النحيل، والذي بدا في عُرْيِهِ أحسنَ حالًا. طلب منها أن ترتدي ملابسها؛ لأنه سيمنحُها صورةَ أمِّها دون مقابل. شرعت الفتاة بتغطية جسدها، وانهارت تبكي، وسقطت على الأرض. انتابتها حالةٌ من النحيب، وراحت تتلوَّى وتَعْوِي مُتَألِّمَةً. كان جسدها خلال ذلك ينكشف، ويُغَطَّى، ولم يَدْرِ «نوربا» ماذا يفعل. جلس إلى جوارها، وأخذ رأسها، ووضعها في حجره، وراح يحتضنها، مخفِّفًا عنها حتَّى هدأت، ثم غلبها النعاس.

t.me/qurssan

رفع رداءها قليلًا، ليتأكَّد من تلك الشامة على فخذها، ورآها تكاد تطابق واحدة لديه.

عاد «نوربا» الرسَّام إلى مقبرة صديقه الذي كان في انتظاره. انشغل بأمر «أورنينا»، التي ودَّعها منذ قليل. حاول أن يستنبط إشارةً من تشابُهِ اسمها وابنة صديقه. وسيطر عليه خاطرٌ مُؤَكِّدٌ بأن هذه الفتاة هي ابنته. بدا «أوديشو» مسترخيًا، وراح يُمْلِي على صديقِه مُكْمِلًا رسالتَه.

أورنينا الحبيبة

جلستُ عند شاطئ النَّهر يومًا، ونظرتُ صَوْبَ الضِّفَّةِ البعيدة، فرأيتُ بالكاد الناحيةَ الأخرى بأشجارها. وانزلق طائرٌ على صفحة الماء، فمسَّ قلبي المُتْعَبَ بدواء شاف. وجاءت مُمَرِّضَةٌ صغيرة وجميلة، اسمها «أميلا»، وجلست إلى جوارى. أرادت أن تتحدَّث عن أي شيء، فاستعرضت متاعب اليوم، ونحن نطارد ذلك الوباءَ من قرية إلى أخرى، ونتنقل بالدوابِّ على حوافِّ الأحواض الرطبة. هَبَّتْ نسمة هواء، أنعشتني بلذَّةٍ غامضة، رغم ما نعايشه. نظرت نحو عينيها، فوجدتهما أفقًا سماويًّا أزرقَ، جذب سِرْبًا من طيور اشتهائي. وفضحت عيناها - على استحياء- رغباتٍ بريئةً تلائم عمرها، ولكنني إذ أمعنت النظر، وجدتها تتحوَّل في أعماقها إلى

t.me/qurssan

مخلب لبؤة جائعة. حيَّرتني شهوانيتُها الطفولية؛ لأنني كنت حتى ذلك الوقت أرى الرغبات نقيضًا للبراءة. أخذني التناقض، وقبل أن أتمادى، أحسست بوخز، ومذاق قابض، بطعم المحرَّمات، جعل سِرْبَ رغباتي يتساقط في الماء أمامي، كخيبات متلاحِقَةٍ، وعاد قلبي سجينَ أحزانه. ويبدو أنها أحسَّتْ بنفوري، وفي الحقيقة كانت مشاعري متناقضة.

كنا نشاهد الموت كَرُوتِينٍ في تلك الأيام، ونُعايِنُ عشرات الجثث، ونأمر بحرقها في مقابرَ جماعية، قبل أن نهيل التراب على رُفَاتِها المتفحِّمَة. وراح الطبيب «إيديلا» الذي تعمل «أميلا» في مجموعته الخاصة، يصدر أحكامًا بالإعدام على بعض المحتضرين؛ لأنه عرف أنهم يحتاجون معجزة ليعيشوا، وأن الآلهة كَفَّتْ عن صنع المعجزات. ولذلك رأى أنه من الأجدى توفير الوقت والدواء لحالات يمكن أن تستجيب، وأراد أيضًا أن يريح المُحْتَضَرِينَ من آلامهم بالموت.

اختار الطبيب «إيديلا» هذه الممرِّضةَ الصغيرة بالذَّات لتساعده في مهمَّتِهِ، مع ممرِّضٍ آخر ذكيٍّ وعَطُوفٍ، ونافذِ البصيرة كَنَبِيٍّ. كان ضخمًا وقويًّا، لكنه يؤدِّي مهمَّتَهُ بِرَهَافَةِ عَازِفٍ، وقَدَاسَةِ كَاهِنٍ. وقد ترك له الطبيبُ «إيديلا» مُهِمَّةَ ترشيح الحالات التي سينهون حياتها، قبل أن يلقي هو نظرة أخيرة عليها، وغالبًا ما وافق على

t.me/qurssan

اختياراتـه. كان المُمَـرِّضُ يبتسـم بعينـين حالمتـين حانيتـين، وهـو ينظـر في عينـي المحتـضر، قبـل أن يضغـط شريـان عنقـه، بينـما تمسـك الفتـاة الجميلـة «أميـلا» رأسـه، وتسـاعد بإغـلاق أنفـه وفمـه، أمـا الطبيـب «إيديـلا» فيتابعهـما بحـرص؛ ليطمـئن أن المهمـة تتـمُّ بِدِقَّـةٍ وسرعـة، كي لا يتكبَّـد المحتـضر آلامًـا إضافيـة. ولم يكـن أيٌّ مِنَّـا كأطبَّـاءَ أو ممرِّضـين، يسـتطيع تنفيـذ مـا يقومـون بـه.

ابتكـر «إيديـلا» طُرُقًـا للعـلاج، أفـادت في كثـير مـن الأمـراض، وطـوَّر أدواتٍ طِبِّيَّـةً سـاعدت في بعـض الجراحـات. وبالإضافـة لتميُّـزِه كطبيـب، بـدا أقـربَ لفيلسـوف أو مُفَكِّـرٍ، فَضْـلًا عـن كونـه أكبرنـا سِـنًّا، وأكثرنـا خـبرة، ولذلـك كنـا ننظـر لـه بإجـلال كبـير. أمـا «أميـلا» الرقيقـة إبنـة السادسـة عـشر، والتـي كانـت أحشـاؤها تمـوج بالرغبـات البريئـة، فكانـت تسـاعده بإخـلاص؛ لأنـه كان قـد أقنعهـا قائـلًا:

- إن بقـاء هـذه الحـالات عـلى قيـد الحيـاة، هـو إطالـة لعمـر الألم، ومـا دام المـوت مُحَقَّقًـا؛ فـإن هـؤلاء المـرضى يصبحـون مجـرَّدَ زَوَائِـدَ حَيَّـةٍ عـلى سـطح الكـون، لا تـؤدِّي مـن عملٍ سـوى الشـعور بالعـذاب، فلـماذا لا نكشـطها لتسـتريح، وربمـا يسـتريح الكـون نفسـه؟ إننـا جميعًـا في الحقيقـة نَنْبُـتُ كَمُسْتَشْـعِرَاتٍ عاريـة فـوق جسـد الكـون، نلتـذُّ بالمُتَـعِ النـادرة، وتوجعنـا الآلام المقيمـة، وعندمـا يصبـح الألم فـوق الاحتـمال، ودون أمـل في الشـفاء؛ فالمـوت يكـون رحمـةً كبـيرة.

t.me/qurssan

اقتنعت «أميلا»، لكنها ظلّتْ تشعر بتأنيب ضميرها؛ لأنها رأت نفسها تُنْهِي حياة أطفال، ونساء، وأُنَاسٍ عاشوا، وتسدل الستار على وجودهم إلى الأبد. كانت تتجنّب النظر إلى وجوههم، وهي تؤدّي مهمّتها. وقد لاحظ الطبيب «إيديلا» ذلك، فأصرَّ على أن تنظر في عيونهم بحُبٍّ، شاعرةً بالشفقة على حالهم، وهم يتألمون، ثم تراقب كيف تتحوّل ملامحُ العذاب على وجوههم، بمجرّدِ الموت إلى استرخاء وراحة صافيَيْن بمذاقِ النجاة. نفّذَتْ «أميلا» ما قاله لها، متحامِلَةً على نفسها في البداية، فراحَتْ تراقب الوجوهَ، وتترك نفسها تَنْزَلِقُ معها عبر اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت، من الكَدَرِ إلى الصفاء، فشعرت بعظمةِ عَمَلِها، بل صارت تُمْعِنُ النَّظَرَ في الوجوه المبتسمة بعد الموت، كفنّانٍ يتأمّل لَوْحَتَهُ بعد وضع لمساته الأخيرة عليها، وكان هذا يؤكّد ثقتها بأنها فعلت الصواب.

لم يكن كل ما يحدث مشروعًا؛ إذ رُبّما لو أبلغ أحدٌ عنهم لَتَمَّ سجنهم إلى الأبد، وربما أُعْدِمُوا، بتهمة القتل، لكن الطبيب «إيديلا» والممرِّضَ الحامل قويَّ البنية و«أميلا» البريئة الشهوانية، بَدَوْا مستعدّين لأن يخاطروا بكل شيء من أجل إنقاذ الناس، وقد وَقَرَ في ضمائرهم أنه حين تصبح الحياة مُرَادِفًا للألم؛ يكون الموت مرادفًا للنجاة.

كنت أستشعر عند الشاطئ رغباتِ «أميلا»، والتي حاولت

t.me/qurssan

ضبطها، على إيقاع موجات النهر الهادئة، فانفلتت رغمًا عنها. فالت عيناها الملونتان كل شيء، ببراءة طفولية مندفعة رَعْنَاءَ. كانت مُتَّقِدَةً، وأدركت سِرَّ توهُّجها، رغم الأجواء المتوتِّرة والحزينة. لقد عرفت هذه الأحاسيس، واعتدتُ عليها خلال عملي في مناطق الأوبئة، وتأكَّدَتْ لي بعد ذلك، وأنا أعمل تحت التهديد المباشر في الحروب. ووجدت هذه الرغبة بالذات، تتأجَّج فجأة، ودون إنذار، في أوقات الخطر. وعرفت أن الطبيعة الماكِرَةَ، في مثل هذه الظروف، تدفع الحياة بدَأَبٍ للتَّكَالُبِ على البقاء.

سألتُ نفسي: لماذا لا أتجاوب مع الفتاة الجميلة؟ وكنت قد بدأتُ أعي أنه على الأغلب استدارة فكِّها السُّفْلِيِّ، وربَّما جمال عينيها الواسعتَيْن الملوَّنَتَيْن، وبروز وجنتيها، وهي ملامح تذكِّرُني بشقيقتي الصُّغْرى، التي كنتُ أتلصَّصُ على غرفتها، وأغمض عيني، وهي تخلع ملابسها، وأسمعها، تجترُّ ذِكْرَى لَذَّتِها الوحيدة، التي صارت عنوانًا لخديعتها. لكنني أيضًا وطوال مكوثي في بيتنا بصحبة العذراوات الأربعة، لم أجِدْ إلَّا تناقضًا رهيبًا بين مشاعر الحب، وبين الرغبات التي كانت تعتريني. وكانت النساء مُقَسَّمَاتٍ عندى إلى فئتَيْنِ مُنْفَصِلَتَيْنِ: واحدة أحبُّها، والأخرى أشتهيها.

رأيت «أميلا» البريئة القاتلة من النوع الذي يمكنني أن أرغبه، لولا أن ملامحها أشعرتني بالخطيئة. وصرتُ أقول لنفسي إنها

t.me/qurssan

عاشقة، وأنت تحبُّ الرَّغْبَةَ في عيون النساء، وهي ليست شقيقتك بِحَالٍ، انْظُرْ: إنها أنحف، وأنت تحب النحيفات. وإذا كانت تشبه شقيقتك؛ فهذا برهان جمالها؛ فقد كانت فاتنةً في عيون الجميع، وتدرك ذلك، وتنظر في المرآة مُتَيَّمَةً بسحر عينيها. وأنت نَفْسُكَ أدْرَكْتَ، منذ كنتَ طفلًا، أنها الأجملُ بين الجميع، وكنت تخبُّن عينَيْكَ لأنَّها خلعتْ ملابسها. لكن ما أبشع ذلك الجمال عندما يرتبط في ذاكرتك بهكذا علاقات، فيحكم عليك بالحرمان!

كانت «أميلا» تقتل الآلام والمتألِّمين، ولكنها أخفقت في كَتْم أنفاس رغباتها. وكانت تحرِّر المَرْضى من سجون وجودهم المعذِّب، وتَعْجَزُ عن تحرير شهوتها. كنت أنظر إلى وجهها المتألِّمِ رغبةً، وأتخيَّله وقد استجبتُ لها، ومنحتُها اللَّذَّةَ والخلاص، وأتساءل، هل نقتل الرغبة بإشباعها، أم نداويها؟ وهل الرغبة ألم؟

بعد سنوات من التحاقي بالمحاربين، وفي إحدى الحفلات، التقيت بها من جديد، وقد صارتْ امرأةً ناضجة الجمال، ومُحَاطَةً بالأقاويل. تغيَّرَتْ كثيرًا؛ إذ ذهبت براءتُها القديمة، وكساها ترفُّعٌ ولا مبالاة قاتلة محترفة، فمنحها هذا فتنةً لا تُقَاوَم، كما اختفت من وجهها ملامحُ شقيقتي الصُّغرى. هكذا صرتُ أمام امرأة فاتِنَةٍ، سيِّئة السمعة، مشبعة قَتْلًا، ولا تشبه شقيقتي، وكان هذا كفيلًا ببَعْثِ أشواقي القديمة، دون عُقَدِ طفولتي المخزية. رأيت اهتمامًا

t.me/qurssan

إلى عينَيْها، ثم وجدتها تدعوني لزيارتها في بيتها المُطِلِّ على النهر. كان البيت فَخْمًا يليق بمحارب، هو زوجها الذي ذهب أيضًا، ولم يعد. ولكنَّها لم تفعل مثل أُمِّي، ولم تُمِلْ رأسها كإلهة عَذْرَاءَ، بل وفْقَ ما سمعتُ- صارتْ سيِّدةَ الرغبات، التي وصفوها بالغرابة والجنون. كنت شغوفًا أتطلَّع لما سيحدث، خصوصًا أن بيننا ديونًا مُؤجَّلَةً، وأماني مُعَلَّقة. وأنا أعرف أن هذا النوع من الأمنيات يكمن، متظاهرًا بالضمور، ولكنه يبقى كبذرة تنتظر أول غيث، فتنبت شجرتها الشيطانية، وتلتهم أغصانُها الناريَّةُ ما حُرِمَتْ منه، حارقةً في لوعةِ عذاباتِ كُمونِها، ومُسْتَعِرَةً من أحقاد حرمانها وصدِّها.

دخلتُ من باب الحديقة، فرأيت كل شيء يَعِدُ بشيء. رأيت الأشجار المخروطية المجلوبة من الغابات الصفراء تغمز بعيونها، وتتمايل. ورأيت شجيرات «بنت القنصل» - القادمة من الغابات الحمراء- على جانبَيْ الممرِّ تعض على شفتَيْها. ورأيت إلهتَيْن من المرمر عند أول الدَّرَجِ تتعرَّيَان، وتتحسَّسان أعضاءهما بِتَلَذُّذٍ. ورأيتُ باب البيت المقوَّسَ ينبض مُلْتَاعًا وأنا أَلِجُهُ. ورأيتها تقف كأميرة للرغبات في قوة قاتلة، تجود عيناها بوعود باتت في طور التحقُّق. مَدَّتْ يدها لتصافحني، وكأنَّ ألْفَ يَدٍ قد انزلقت تتحسَّسني. ونظرت في عيني، فانهمرت شلالات رغباتي المحرَّرة، منتحرةً في بحيرة

t.me/qurssan

أنوثتها، متعطِّشَـةً للفنـاء فيهـا. وضغطـتُ قليـلًا عـلى يـدي، فكأنمـا اعتـصرت ثمَّالـةَ لَـذَّتِي. ولم يكـن قـد بَقِـيَ شيء ليُفْعَـلَ، فإذ بها تجذبني، وتلتفـت، لأجـد امـرأة أخـرى تجلـس بانتظارنـا. كانـت تفوقهـا جـمالًا، بحيـث ينمحـي عـلى الفَـوْرِ مـا كان مـن جـمال «أميـلا» وتاريخهـا ورغباتهـا وقتلاهـا، أمـام طَلَّـةِ تلـك الإلهـة الجالسـة، والمحمـرَّة خجـلًا، والتـي صافحتهـا مترنِّحًـا، وجالَسْـتُها غائبًـا. لم أدْرِ كَـمْ مـن الوقـت مَـرَّ، ولا مـاذا قالـت، أو مـاذا حـدث؛ لأننـي كنـت هائمًـا في حـضرة جمالها. ولم أنتبـه إلّا عندمـا همسـت «أميـلا» في أذني: (قَبِّلْهَـا)، ولم أفهـم.

كانـت المـرأة الإلهـة في غايـة الخجـل، تتفـادى النظـر، و«أميـلا» تعيـد مـا قالتـه: (قَبِّلْهَـا)، وصـدى الكلمـة يـتردَّد في أعـماق حـيرتي، ويلتـفُّ حـول رغبـاتي، ويرتـدُّ عَجْـزًا لا مثيـلَ لـه. وصرتُ كأنني أصِبْـتُ بالشـلل. تمنَّيْـتُ أن يكـون مـا يحـدث حُلْـمًا، وأن أفيـق منـه. ووجـدت «أميـلا» تنهـض، وتذهـب للداخـل تاركـة معـي تلـك الإلهـة التـي خَلَقَـتْ نفسـها مُسْـتَأْثِرَةً بـكل جـمالٍ فـادِحٍ، وأنوثـة فيَّاضَـةٍ، وخجـلٍ مُنْسَـحِقٍ، ووجـه صـار يقـذف في وجهـي إعجازهـا، وعجـزي، وتناقضـات العالَـم.

كان يمكـن لـكل ذلـك أن ينتهـي عـلى الأرجـح بـأن أقـترب مـن المـرأة وأُقَبِّلَهـا، أو أنهـض، وأخـرج إلى الشرفـة، وألقـي بنفـسي في النهـر. وقـد خرجـتُ، وصُعِقْـتُ لأنني وجـدت البيـت مبنيًّـا في المـكان نفسـه الـذي كنَّـا نجلـس فيـه منـذ سـنوات، عندمـا كنـا نطـارد الأوبئـة، ونستشـعر

t.me/qurssan

الرغبات، رغم الأخطار والكوارث. فهل هي مصادفة؟ هل اختارت المعرّضة القاتلةُ البريئة الشهوانية المكانَ، وطلبت من محاربها أن يبني لها البيت هنا بالذّات؟ هل ظلّت حياتها تدور حولي منذ ذلك اليوم الذي منعتني فيه حماقتي عنها؟ لو كان الأمر كذلك، فلماذا يَوْمَ تدعوني إلى بيتها، تقدّم لي صديقتَها، وتطلب مني تقبيلَها؟ زادت حيرتي، وتفاقم عَجْزِي، وصرت واثقًا من أن «أميلا» شَكّتْ منذ ذلك اليومِ بأنني عِنّينٌ، لا أَقْرَبُ النساء، وأرادت أن تقطع شكوكها باليقين، فأتت لي بأجمل امرأة على وجه الأرض؛ لتبرهن لنفسها بشكل قاطع أنني امتنعت عنها ذلك اليوم لعيب بخصُني، وليس لقصور في أنوثتها. إنه التفسير الوحيد لكل ما يحدث. وقد جلبتُ على نفسي كلّ هذا، وسوف أصبح أُضْحُوكَةً على الأغلب في كل «أورنارا»، وفي أوساط المحاربين.

شعرت بأنني حزين، وبأنني ضحية لهذا العالم، ضحية بيت العذراوات، وطفولتي البائسة، وشقيقتي الصُّغرى الجميلة التي خلعت ملابسها، وأنا أختبئ في حجرتها، ضحية والدي المحارب الذي ترك بيتنا ليصير كهفًا لعذراوات أربعة بلا رجل، وضحية محاربين عبروا، ووضعوا بذور عجزي، وذهبوا ليموتوا بعد أن أدّوا رسالتهم في تدمير.

ضاعفت الهواجس والذكريات من انسحاقي، ولولا انفتاح

t.me/qurssan

جراحي القديمة؛ لربّما استطعتُ أن أعود لهما، وأن أمسك بتلك الإلهة، وأقبّلَ شَفَتَيْهَا، وأعضَّ عليهما، وأنظر في عينيها بجراءة ذَكَرٍ تثير الرغبة والرعب، وأطرحها على الأريكة أمام «أميلا» ولكنني صرت أكثر عجزًا؛ لأنني صرت مُتَعَرِّقًا بالهواجس والذكريات والآلام. وشعرت كأنني عارٍ أمامهما، وكأن نافذة انفتحت على كل ما خجلت منه في حياتي، وهما تَرَيَانِ كلَّ شيء الآن. تريان أمّي وأخواتي، وبؤسَ بيتنا. تريان تلصُّصِي، وتناقُضَ رغباتي. تريان المسخ الذي تمدَّد داخلي حتى صارني.

كل ما شغلني هو لحظة عبوري من الشرفة إلى الباب مرورًا بها لأخرج، وكانت ثقيلةً كَدَهْرٍ. حملقت في النهر، وفكّرْتُ أن أقفز فيه. نظرتُ صَوْبَ الشاطئ الآخر، ووجدته بعيدًا جدًّا. ورأيتُ أنني أدفع اليوم ثمنًا لأشياء كثيرة، لم أكن الجاني فيها. ورأيتُ أنني لا أريد الموت، فقط أحتاج أن أعبر إلى الشاطئ الآخر من النهر، ومن حياتي، ومن إخفاقي وعجزي. وبطرف عيني رأيت «أميلا» وقد عادت. ورأيتها ترمقني بنظرة ماكرة. ولمحت صديقتها تهمس لها بشيء. ولاحظتها تنهض. تمنّيْتُ أن تأتي إلى حيث أقف في الشرفة، لنضع أية نهاية لما يحدث. لكنها خرجت مغادِرَةً البيت. وكان خروجها وصمتي الأبدية، حيث لا مجال لإصلاح أي شيء. كانت تبدو منكسرة وحزينة وهي تغادر. وأتت قاتلتي إلى

t.me/qurssan

الشرفة، فوجدت نفسي أمسك بها، وأُقَبِّلُها عُنْوَةً بقوَّةٍ وانتقام، واحتضنُها هاتِكًا رصانتها، وثقتها، وأنوثتها، ومَكْرَها. كانت تحاول التملُّصَ منِّي، وتتأذَّى وهي تقاوم لتفلت. وقد أفلتت، وصارت هي الأخرى حزينة وجريحة. «كانت أمامك صديقتي، وكانت تحتاجك، فلماذا لم تُقَبِّلْهَا؟» قالت «أميلا» وكنت مُشَوَّشًا غارِقًا في العار.

غُدْتُ إلى القتال الدائر على الحدود الشرقية. كان رجال معبد الصحراء، يفتعلون المشكلات. وصرت أرى وجهَيْ «أميلا» وصديقتها في الأعضاء التي أبترها للجنود المصابين. وكانت تعود لتلتئم، فأبترها، وتعود، فأبترها. أعادوني إلى «أورنارا» لأتعافى. وصرت أتجنَّب المرور من ناحية بيتها. وبقيت أنتظر أن تُلَاكَ سيرتُها أمامي، ليس للتُشَفِّي؛ ولكن لأنني أردت أن أفهم، مَنْ تكون تلك المرأة.

حدَّثني طبيب محارب، بأنها امرأة تقدِّس الرغبات، وتَهَبُ نفسها لرعايتها. ونفى بصوت متبتِّلٍ أن تكون غانِيَةً. سألتُ آخرَ، فقال إنها مولعة بشهوات لا تجد لها إشباعًا إلَّا بمساعدة الناس، ليستمتعوا، لكنها ليست قَوَّادَةً. سمعتُ من يحدِّثُ صديقه بأنها تفعل أشياء جنونية، فتصنع المصادفات، وتدبِّرُ المواعيد، وتزيل سوء الفهم، وتمنح الفرص الأخرى، وتثير الخيال، وتهيِّئ الأجواء، وتمنح جدرانها وحتى فراشها، وعطرها، وربَّما سراويلها إذا لزم الأمر؛ من

t.me/qurssan

أجل متعة مميَّزة. وسمعتُ امرأة جميلة تحدِّث صديقَتَها، وتقول إنها كاهنةٌ تَهَبُ النُّفَحَاتِ، وتُطَوِّبُ العُشَّاقَ بالوَصْلِ والنشوة، كأنما تجهِّز ابنَ إلهٍ جديد، ستطلقه لخَلاص العالم، مؤمنةً بأن الوجود ينال تلك اللذات.

تذكَّرتُ الطبيب «إيديلا» الذي رأى آلام الناس تصيب جسد الكون. لقد ساعدَتْه في الماضي، وقتلتْ المتألِّمين؛ لتنقذهم والكون من العذاب، وها هي الآن تروي الرَّغَباتِ، وتحيِي اللذات، ليستمتع الناس والوجود بأسره. مَنْ عساها تكون تلك المرأة؟ ازدادت حيرتي.

أردتُ أن أراها من جديد؛ لأعتذر عن الماضي البعيد والقريب. انتابتني رغبة الاقتراب منها، ولمسُ الألم الكامن فيها، ربَّما لأنني أحسست في العمق شيئًا مشتركًا بيننا، وأدركت أن كلانا ضحية وجلَّاد في آن. لقد سبَّبتُ لها في الماضي آلامًا، رغم رغبتي فيها؛ لأنني عجزت عن التجاوب معها، ولمَّا جاءتها الفرصة، حاولتْ أن تعالج جرحها بإيلامي، فكانت أنوثةُ صديقتها أنيابَ إغْوَاءٍ مستحيل نَشَبَتْ في قلبي. وهي لم تَجْنِ شيئًا؛ لأن الانتقام لا يداوي الجراح، ولا بلسمَ للحرمان إلَّا الارتواء.

لقد عجزتُ يومًا عن الاقتراب منها؛ لأن صورًا من ذاكرتي اللعينة أسقطتني في بئر العار والخطيئة، ولكنني امتنعت عن إلهة الجمال

t.me/qurssan

في بيتها لأسباب لا أستطيع الإمْساكَ بها. ربَّما كانت أجملَ من أن نُحْتَمَلَ. دائمًا كنتُ أرى الجمالَ أَجْنِحَةً، نحلِّق بها بعيدًا، فوق قممِ العالم الشاهقة، حيث نصبح بامتلاكه آلهة، نُطِلُّ على الوجود من بين السحب، زاهدين عن صغائِره، وشاعرين بالاكتفاء والرضا. لكن هذه الأجنحة قد تكون أثقل من أن نحملها، لذلك فقد رأيت نفسي أرتدي أجنحة جمالها، وأجلس مُثْقَلًا كطائر خرافي مُعْتَقَلٍ في حظيرة منزلية، فهالني ما رأيت.

ورغم كل شيء تمالكت نفسي، وعُدْتُ إلى بيت «أميلا». عرفتُ أن صديقتها الجميلة، ظنَّت أنها لم تعجبني، فشعرت بحزن جعلها تعتكف في بيتها؛ لأنَّ هذه لم تَكُنْ المرَّةَ الأولى التي يمتنع فيها رجل عن الاقتراب منها. وهي لم تفهم أبدًا، أن الرجال لديهم قدرة محددة على احتمال الجمال، وأنهم لم ينظروا لها بِزُهْدٍ، ولكن بعَجْزٍ وتهيُّبٍ، لأنَّ جمالها مُعْجِزٌ ومَهِيبٌ، ولأن أنوثتها تبدو كإعصار مُدمِّرٍ، ولأن الرجال مستعدُّون أن يُلْقُوا بأنفسهم مغامرين داخل كهوف غامضة، لا في صدوع قاتلة بلا قرار، ولأنهم يحبُّون أن ينظروا عبر نوافذ النساء على أجمل ما في الحياة التي يعرفونها، لا على أكوان بعيدة، سيعتقدون أنها الموت من فَرْطِ غرابتها، ولأنَّ معظم الرجال يفضِّلون ذلك الجمالَ الذي تحملهم أجنحته فيحلِّقوا، لا أن يحملوها ويجلسوا إلى الأبد منسحقين تحت جسامَتها.

t.me/qurssan

لكنّني رأيت رجالًا يقتربون من الجمال الشاهق ببلاهة، وهم لا يدركون فداحته، فيبتذلونه، ولذلك فإن قدر الجميلات هو التعاسة، كعقاب من الطبيعة، إذ هُنَّ إمّا محرومات أمام العاجزين أو مُبْتَذَلات من السُّذَّجِ. والطبيعة تعاقِبُهُنَّ جالِدَةً ذاتَها، لأنَّهُنَّ زلّاتٌ لها، يُسَفِّهْنَ دَأْبَها، ويُعَرْقِلْنَ انتظامها، ويَفْضَحْنَ تَعَجُّلَها ورعونتها وعماءها وتكالُبَها، ويُهَدِّدْنَ استمراريّتها. فهي إذ وضعت الجمال ضمن أسرار بقائها؛ فقد وضعته ليختلط ويتجانس، لا لتتركّز كُتَلٌ منه، فتعوق دوران العجلة، فالطبيعة ساقية تدور بقوّةِ ثَوْرٍ أعْمى، وليس من مصلحتها أن يوقِفَهُ شيء، فحينها سيكون الوجود مهدَّدًا بالفناء.

الجمال والفناء، ما أتْعَسَنِي، وكُلٌّ يُضْمِرُ الآخر! كلاهما لحظة اكتمال، كغروبٍ احتفاليٍّ خلف شواهد قبور تلوح بالغواية. إنني لم أرَ امرأة جميلة، إلّا رأيتُ الموت مُمَوَّهًا بفتنتها. ولم يَعُدْ الجمال يخدعني؛ لأنني صرتُ أعرف أنه ليس من هنا، وفقط يُطِلُّ علينا بوجهه من عالم آخر. وقد دقّقْتُ النظر فيه فتلاشى. وأمعنتُ فوجدته مُرَكَّزًا كثيفًا جدًّا، وبعيدًا. إنه خارج الزمن، ومن خارج الحياة تمامًا كالموت، وما أروعه! لقد أَسَرَنِي وهِمْتُ به، فلم أجده بتناسقه اللامتناهي، إلّا غيابًا كاملًا. إنه تَفَرُّدٌ يكرّر نفسه بساطًا إلى الأبدية، ولا مناصَ من الذَّوَبَان فيه، والتلاشي والغياب حيث الراحة

t.me/qurssan

المطلقة، والكمال والاكتمال. إنه منتهى ما لا نهاية له، فليس هذا الجمال الآسر سوى إغواءٍ فاتِنٍ للفَنَاءِ. ونحن متعطِّشون لِنَفْنَى، متشوِّقون لِنَذُوبَ، لِنَسْتَشْعِرَ ذلك الموتَ اللذيذ.

لهذا ربما كنت أشعر دائمًا بكل هذا الاضطراب في مواجهته؛ لأن الالتقاء به مغامرة، ومخاطرة بكل شيء. أن نكون على الحدِّ الفاصل، وعلى حافَّة هُوَّةٍ سحيقة، مأخوذين بذلك العالم البعيد، فنلقي من أيدينا كلَّ ثمين، وتتزلزل الأرض تحت أقدامنا، وتتبدَّد، لنسبح في سديم مجهول وغامض. ألهذا يَزْجُرُهُ الآباء والكهنة في نفوسنا ونحن صغار، ويعاقبوننا إذا فكرنا في الاقتراب منه؟

جعلتني تلك المرأة أفكِّرُ في تناقضٍ، ظننتُه يخصُّني، ذلك الذي استشعرته منذ صباي بين الحب والرغبة. كنت صبيًّا، فأحببتُ فتاة بقوَّةٍ، ولم أستطع أن أرغب فيها. وصرت رجلًا، وكرهت من أعماقي امْرَأَةً، لكنني كنت أتوق لأُغْمِدَ نَصْلَ رغبتي في جثَّتها، وأبصق داخلها لهيب حقدي، وأرحل نادمًا مُحْتَقِرًا ذاتي ولذَّتِي. وقد رأيت أن الطبيعة تنحاز إلى الرغبات، ولا تأبَهُ للحُبِّ، ربما لأنه غامض، وحالم، ومترفِّع، وهي فجَّة دؤوبة ومتكالبة؛ لذلك فإنها تنبذ العاشقين، يهيمون على وجوههم مشرَّدين.

إنها أمور متشابكة، لكن الكهنة زادوها تعقيدًا منذ دنَّسوا الرغبات، ومعها الحب. وقد نجحوا في ذلك، حتى أن «آيلا» - ابنة

t.me/qurssan

الطبيب «إيديلا» قاتل المعذِّبين- صدَّقتْ ما يقوله رجال المعبد، وآمنتْ بكل جوارحها بأن العلاقة دَنَسٌ، ولذلك فعندما تزوَّجتْ لم تستطع أن تكون زوجة؛ لأن أبَوَيْها أيضًا كانا مُتَحَفِّظَيْنِ، وهي لم تعلم عن العلاقة مع رجل سوى أنها خطيئة وانحطاط. وعبثًا حاول زوجُها أن يفهمها أن أبوَيْها المحترمَيْن يفعلان الشيء نفسه، وأنها ما كان يمكن أن تأتي للعالم بدون ذلك. لكن «آيلا» الرقيقة ازدادت كراهيةً لذلك الرجل المُنْحَلِّ، الذي لم يكتفِ بخلع ملابسه أمامها، ولمس أعضائها وهي نائمة، ولكنه أيضًا يلوِّث سمعةَ رجل محترم، ويخوض في سيرة سيدة فاضلة، لم تَلْمَسْ في حياتها سوى أوتار «الكينورا» التي تعزف عليها، فتشيع في الأرجاء سحرًا ورُقِيًّا.

لكن من الظلم أن ننسب للكهنة الجُرْمَ كُلَّهُ؛ فالطبيعة في الأصل مَنْ حَكَمَتْ على رغباتنا ومشاعرنا بالتناقض والتدنيس؛ لأنها جعلت تلك الأعضاء التي تستشعر النشوة، والقادرة على جعل الناس يحلُقون، موجودةً في أماكن لا تصلح بالمرَّة. إنه عَبَثٌ، بل مكيدة؛ أن تدمج هذه الأعضاء بابتذالٍ مع الأعضاء الإخراجية. صحيح أن الطبيعة اعتادت الاقتصادَ، وجعلت بعض الأعضاء تؤدِّي أكثر من وظيفة، كالأنف يتنفَّس ويشمُّ، والفم يأكل، ويتذوَّق، ويتحدَّث، ويُقَبِّلُ، لكن تَعَدُّدَ الوظائف هنا مقبول، بخلاف التناقض الفجِّ في حالة الحب والإخراج، فالأمر أشْبَهُ بوضع وليمة شهيَّة، في

t.me/qurssan

قلب مستنقع آسِنٍ، أو في خلاء قضاء الحاجة، ثم يكون علينا أن نأكل ونستمتع. إنه عبث، وواحد من التشوُّهاتِ التي يتعايش معها البشر مُرْغَمِين، رغم كونه خللًا واضحًا وعدم لياقة. إنه لا يناسب كائنات عاقلة، ولديها مشاعر.

أيضًا كون معظم التجويف الداخلي للجسد مَحْشُوًّا بتلك الفضلات التي تنتظر الخروج، والبشر وهم يسيرون متأنِّقين بملابسهم، ويضعون العطور، هم في الحقيقة صناديق فضلات مُزَخْرَفَةٍ من الخارج. وهم منصاعون لذلك، ويتعايشون معه، ويحملون تلك الفضلات على مدار أعمارهم، وينامون، ويستيقظون بها، ويذهبون لتلقِّي العلم، ويحصلون على الألقاب والمناصب بها، ويدخلون إلى المعابد، حيث ينحنون ليُفْرِغُوا نفاياتِ نفوسهم، لكنهم يحتفظون بها؛ لأن لها أماكن أخرى لإفراغها. وهم يذهبون بها لِلَفْتِ أنظار من يحبُّون، ويتجمَّلون أمامه، ويلوون ألسنتهم بحديث يجعلهم من طبقة أعلى، أو ينظرون بعيون حالمة يملؤها الشغف والعاطفة، ويلقون قصائد الغزل المحلقة، كل هذا وهم يحملون في تجاويف أجسادهم هذه المخلَّفات اللعينة، والتي يخجلون منها، ويتخفَّون وهم يفرغونها كل يوم.

إن الحياة هنا عبثيَّة وركيكة؛ إذ تُحَمِّلُ البشرَ الواعين هذه الأحمالَ، بينما تجعل النباتات تتغذَّى وتمارس عملياتها الحيوية

t.me/qurssan

دون كل هـذه القـاذورات. ولكـن مـع ذلـك، فـإن حمـل الإنسـان لفضلاتـه، والسـير بهـا طـوال الوقـت هـو أقـل الأعبـاء هنـا يـا صغـيرتي. فالعالَـمُ إذا دقَّقْـتِ النظـر، في الحقيقـة اختارنـا نحـن بالـذات ليخـرج مـن خلالنـا فضلاتـه جميعًـا. إن الإنسـان يـا حبيبتـي قـد صـار مَخْرَجًـا، تندفـع منـه فضـلات العبـث والابتـذال الكـونيّ. ونحـن لم نشـأ أن تكـوني هنـا معنـا؛ لأننـا لم نُـرِدْ أن ندعـوك إلى حيـاة غـير مُهَيَّـأةٍ لاسـتقبالك.

جـاءت الأوامـر، فانتقلنـا إلى بـلاد الغابـة العاليـة. كان معبـد الصحـراء يسـتقطب أتباعًـا، ويسـلْحُهم، وأردنـا إخافَتَهـم. ظَلَّـتْ كتيبتُنـا مُرَابِطَـةً هنـاك دون معـارك، فـصرت أتجـوَّل في البـلاد الجميلة، ووجدت نسـاءها أجمـل مـا فيهـا. ولكنـني ظللـتُ عاجـزًا عـن الحـب؛ لأننـي كنـت أنظـر في المـرآة فـلا أراني، حيـث كنـت رجـلًا بـلا تاريـخ. وعرفـتُ أن التاريـخ هـو المكابَـدَةُ والأخطـار، وهـو المعـارك والأحـداث الجسـيمة، بينـما ظلـت حيـاتي صامتـة ومرتَّبَـةً كقـبر. وحتـى بعـد التحاقـي بالمحاربـين ظللـتُ أَشْـبَهَ بعجلـة يجرُّونهـا وسـط المخاطـر، متكفِّلـين بحمايتهـا. ولم أعـرف لنفـسي ذاتًـا، تحـب أو تكـره، فينتـج شـعورها شـيئًا خارجهـا.

وجلسـت يومًـا عـلى حافَّـة الغابـة، ناظـرًا صـوب البحـر، غارقًـا في الحـزن، فسـمعت صوتًـا يحرِّضُنـي، أن اصنـعْ لنفسـك تاريخًـا. أخْـرِجْ جسـدك مـن شرنقـة عجـزه وتهيُّبِـه. دَعْ الحيـاة تَشِـمُ آثارهـا عليـه مُكَابَـدَاتٍ ولَـذَّاتٍ وإخفاقـات وخيبـات وتَقَيُّحَـاتٍ. دَعْ هواجسـك، وانْهَـلْ مـن الجـمال

t.me/qurssan

الفادح، مُسْتَشْعِرًا أنَّك تمنحه الحياة. غادِرْ سجون خطايا طفولتك.

كان الصوت كأنه أشباح تعبرني، فيترنَّح إخوتُها بين جدران صدري، ويسقطون، فيدفعني الدَّوِيُّ لأخْرُجَ منِّي. أقاوم، فيدفعني، وأقاوم، فيخرجني عاريًا لَزِجًا من كهوف مخاوفي، مولودًا طازجًا، بريأ مني. أَنَقُّهُ من مَوَاتِي، مُفْعَمًا برغبات شيطانية. وما العيب أن أصير شيطانًا، إذا كنت سأجد لنفسي صورة، يعكسها أفق.

سرت في الطرقات ناشرًا شراع غوايتي، فسقطَتْ في قاربي عرائسُ بحر، مفعمات بالشهوات، طائشات، جَمَحْتُ مَعَهُنَّ، فصرتُ نصفَ إله. وأمعنت لَعْقًا لعظام شَبَقِهِنَّ، فَنَصَّبْنَنِي إلهًا، فأمرتُ ببعث كل أشواقي من قبورها، وصرتُ أجلدها، ثم دفعتها دفعًا لتحترق في جحيم شهقات بلا نهاية. وأنعمتُ على كل رغبة مُبْتَسَرَةٍ بحياة جديدة، لتكتمل. ورأيتها تتمرَّغ في أوحال تهتُّكي، أفنى ما كان من مخاوفها وعجزها. وصرتُ أبحث عن شبيهات إلَهَاتِي العذراوات، فأفتِّش بين أفخاذهن عن لآلئ آبائي، فأنتزعها، وأصنع منها عقدًا، أرَسِّم به عشيقاتي.

صرت أرى أشباح أيَّامي تمرُّ، فأنفث نحوها نيران لذاتي فأحرقها. ورأيت أناسًا يلوكون صوفية الأرواح، فلمَّا رأوا نفحات جسدي تزندقوا. وصرت أكابد لذَّاتٍ، كنت أوَّلَ من حرَّرها، وأطوف بين إلهات الجمال ناسكًا، لم أُخْلِصْ لصنم قَطُّ. وأرَقْتُ جسدي على

t.me/qurssan

مذابح الأفخاذ، مُصَلِّيًا، مُسْتَغْفِرًا، وتائِبًا لكلٍّ منها عمَّا سواها، لا أجد وسيلة للوفاء بعهدي لها إلّا عبر خيانتها، ولا طريقةً للتمسُّك بها إلا بنبذها واستبدالها.

رأيت نفسي أُقَبِّلُ أحجارَ هيكلٍ مُتَهَدِّمٍ ملأت الأفق، هائمًا بكل حجر يرتعد في خلاء الرغبة، لكنني ألمح حجرًا آخر يتعرّى، فأترك ما في يدي، وأهيم بالآخر، ليس لأنني أخون الأول؛ ولكن لأنني أخلص للهيكل.

وفي يوم مررت بضريح مهجورٍ لإله عِشْقٍ مَنْبُوذٍ، فشاهدت امرأة تبكي أمام نافذة قُبَّتِه الوردية كَنَهْدٍ، ومن خلفها كانت أطراف الغابة مُرَصَّعَةً ببيوت بيضاء مُلَوَّنة النَّوافذ، تتسلّق أغصان الجهنّمية الحمراء أسوارها، مُحِيلَةً الشوارعَ المُنْحَدِرَةَ إلى حرائقَ من لَوْعَةٍ. نظرتُ لها فلم أجدها كالأخريات. كانت امرأة بلا بريق عينين فاضحٍ للرغبات، بلا نصاعةِ بَشَرَةٍ، تُغْرِي بالملذّات، بلا جسد بريٍّ وعر كنساء بلادها، يَعِدُ بالخراب. كانت عاديَّةً ومُنْهَكَةً، تحاول فقط أن تبدو كفتاة بوضع منديل مُلَوَّنٍ حول عُنُقِهَا.

اسمها «زمارتا» وكانت بالفعل أغنية؛ إذ تحدَّثَتْ فوجدتها تفتح بوّابات طفولتي المُهْدَرَة، وتُمْسِكُ يدي، وتنطلق بي، مُصَالِحَةً إيّاي على الشوارع والبيوت والمارّة. ووجدتها تأخذ يدي إلى بيتنا، وتدخل بي مُفْعَمَةً بطاقة إلهية، جعلتني أرى كل شيء، وكلُّ شخص

t.me/qurssan

من جديد. رأيتُ الحديقة تزهر، والبيت تتلوَّن جدرانه، وتنحني مُرحِّبَةً بي، ورأيتُ أمِّي جالسة، فلما رأتني نَهَضَتْ، وعانقتني، معتذرة عن حزنها، فبكيت نادمًا على جفائي، ووجدت شقيقاتي يستقبلنني في حجراتهن، التي صارت أوسع، مزيَّنةً بزهور مرسومة تبتسم، وصِرْن يَضْحَكْنَ، ماحياتٍ ما كان من أحزان، ووجدت نفسي أقبِّلهنَّ مُمْتَنًّا لما فعلنه لأجلي. ورُحْتُ أمُرُّ بكل حزن قديم، وألمسه فيصير لا شيء. لقد اقتلعتْ الفتاةُ الحزينة أحزاني القديمة، لكنها انغرست في قلبي نصلًا مالِحًا، جعلني كلَّما اختليتُ بنفسي وتذكَّرْتُها؛ أبكي، وأنا أسأل نفسي: لماذا يجعلنا الحب الأكثر جَلْبًا السعادة، نبكي؟

صدرتْ الأوامرُ فَعُدْتُ إلى «أورنارا». وصرت أتذكَّر حديثها، وأسترجع وجهها المُرْهَقَ، وبشرتها المنطفئة، وشعرها الذابل المُلْتَفَّ، وفي أذني أغنية من بلادها. كنت أشعر بالوحشة والشوق، مختلطين بأشباح الماضي الذي جعلته يتحرر من كهوف عَتَمَتِي. وأدركت في البعد أنني كنت أبكي نُبْلَها المسكين أمام بشاعة العالم. وأكَّد لي البكاءُ أني أحببتها، بل عرفت ذلك، منذ زهدت نسائي الشهوانيات، واكتفيت بلقائِها، ومنذ صرتُ لا أَمَلُّ الاستماعَ لحكاياتها. لكنني اكتشفت أنني عُدْتُ لمشاعر صباي بحبٍّ بلا رغبة.

انشغلت بحصار وباءٍ تفشَّى بين الجنود. وجاءت رسالة منها،

t.me/qurssan

تقول: «تعال أنا مريضة». كانوا قد منعوا التنقُّل بين البلدان بسبب الأوبئة، وسدُّوا الطُّرُقَ، فلم يعد أمامي سوى السفر في مسالِكَ وَعِرَةٍ، ماشيًا في كثير من الأحيان. صرت أقطع الصحارى، وأتسلَّق الأدغال، وأخوض في المستنقعات. ورُحْتُ أسير على قدمي كلَّ يوم محاوِلًا الوصول إلى مكان يصلح للمبيت، وكثيرًا ما بِتُّ في الخلاء. كان طعامي يَنْفَدُ، فأواصل السَّيْرَ حتَّى تلوح في الأفق واحة أو قرية أبتاع منها طعامًا. وصرت أرتجف من وعكة أصابتني، وأسمع تنهُّدَاتِ العجائز، مُشْفِقَاتٍ عليَّ من المرض والبرد والوحدة والحزن. ولكنني واصلت السير، وظللت أسير وأسير حتى خُيِّلَ لي أن الطريق لن ينتهي.

وجاء يوم لاحت من بعيد بلاد الغابة العالية. كان عليَّ أن أقطع الأدغال لأصل إليها. فرأيتُ القرود تسخر مني، والطيور تبصق بذور الزيتون على رأسي، والجرذان تمر سريعًا بين الأحراش لتخيفني، لكن الزهور كانت تبتسم لي بأسى، والفراشات راحت ترشدني لطُرُقٍ أسرع، والنحلات ظَلَّتْ تَطِنُّ بإصرار، لتقول لي شيئًا لم أفهمه. كنت أصعد في مدقَّاتٍ بين العشب، وأهبط على حافَّة وديان موحلة، وأعبر بِرَكًا ترمقني منها عيون كَمَوْتٍ قديم، وأواصل السير خائضًا في الأخطار. صرت على حافة الموت، وأصبحت على وشك الاستسلام، لكنني توسَّلتُ الوصول؛ لأموت أمامها؛ لتعلم

t.me/qurssan

أنني جئت إليها، ولم أخذلها.

وذات صباح شارفتُ قريتها. وقبل أن أسأل عن بيتها، قابلني موكبُها. وقفت كعمود مِلْحٍ، وهم يتقدَّمون نحوي. لقد أحببْت فتاة في ذبول الموت ونقائه، وها هي تصعد. لكم تمنَّيتُ أن تكون لها روح تحلِّق فوق جسدها المُسَجَّى؛ لترى أني أتيت لأجلها. لقد فعلت كل ما في وسعي، لكنني تأخَّرْتُ. رحلت «زمارتا»؛ أغنيتي الحزينة التي كنت كلما أتهجَّى كلماتها أبْكِي، وأستجمع لحنها، فأنتحب. لم أرَ من شحوبها سوى ذلك النُّبْلِ، وهي التي كانت تُطِلُّ عليَّ من العالم الآخر، لآخذ بيدها أو لتأخذ بيدي.

رحلت «زمارتا»، وفي موكبها كانوا يغنُّون متشابكي الأيدي كعادة قبائلهم. وراح أشقَّاؤها يطلقون السهام في الهواء؛ لتصعد روحها بسرعة إلى الجنة. وكانت أمها تزغرد؛ لأن الإله اختارها عروسًا له، ورفيقاتها يَرْقُصْنَ، ويَقْفِزْنَ ويُلَطِّخْنَ وُجُوهَهُنَّ بالحِنَّاء باكياتٍ، والأطفال يطلقون الصافرات، وينثرون أوراق الورد على الموكب من فوق أكتاف الأمهات، والرجال يجلدون أنفسهم، ويطلقون صيحات مكتومة. وجاءت الفراشات اللائي اصطحبنني، يَحُمْنَ فوق جسدها، والنحلات يَنُحْنَ، والموكب يتقدَّم ببطء نحو ساحة «ليبيلا»، حيث توضَعُ عَرَائِسُ الإله على قوارب من زهور، تطفو على بحر من العشب، وحيث يقف أطفال مجنَّحون يقودون قاربها، وحيث

t.me/qurssan

الطبـول والمزامـير لا تَكُـفُّ عـن العـزف. ورأيـت وجههـا، وقـد صـار أكـثر بهـاء، وشـعرها وقـد جدلـوه بالياسـمين. وانفتحـت عيناهـا قليـلًا، ونظـرت نحـوي، وابتسـمت شـفتاها، فتمتمـتُ دون أن يلحـظ أحـد: وداعًـا «زمارتـا» يـا أغنيـة المـوت الجميـل.

صـارت الحـرب جَنْتِـي، والخطـر مُنْقِـذِي، يدفعنـي للفـرار، آخـذًا يـدي، وداهسًـا تحـت عجلاتـه كلَّ شيء، فأصـير مـع كل نجـاة مولـودًا جديـدًا، بـلا مـاضٍ ولا أحـزان. لم يكـن سـوى بشـاعة الأفـق، ونحـن نتقهقـر أمـام محـاربي معبـد الصحـراء، فـكل الوقـت كان لهـم، وكل انتباهنـا صـار أسـيرَ ظُهُورِهِـم المفاجئ، واقتحامهـم للبَلْدَاتِ، وانشـقاق الأرض عنهـم. الخيانـات مـن داخلنـا جعلتنـا كالمجانـين. صرنـا لا ننـام، نخـاف أن نـأكل، نرتـاب مـن الحديـث، نشـكُّ فـلا نـبرِّئُ حتـى الجثـث، نعايـن الجـروح بريبـة، ونبـتر الأعضـاء بِتَشَـفٍّ، وصببنـا لعناتنـا عـلى كبـار محاربينـا. إنهـم مـن دعَّمـوا في المـاضي هـذا المعبـد، ليهـدِّدوا كهنـةَ المعبـد الشرقـي، وهـا هـم قـد صـاروا وحوشًـا، نسـمعهم في الليـل، وهـم يمضغـون عظامنـا. سُـحْقًا للجميـع! وفي خِضَـمِّ كل هـذا صـارت ذكـرى «زمارتـا» تبتعـد خلـف الأرض الضائعـة، وتُطْمَـرُ تحـت الجثـث المتروكـة في العـراء، وتُجْتَـثُّ مـع الأعضـاء المبتـورة عـلى عَجَـلٍ. وصـار الحِـسُّ يتبلَّـد، مُعايِشًـا المـوتَ كروتـين، والنجـاة كمصادفـات، لا نتوقَّـع تكرارهـا، وفـترت الأحـزان بخسـة.

t.me/qurssan

جاءت الأوامر، فاتَّجهت كتيبتنا إلى بلاد الغابة العالية من جديد. هذه المرّة، صرنا نحارب، وحقّقنا بعض النصر. كُنّا على مقربة من قريتها، فتوجّهتُ مباشرة إلى ساحة العرائس. ووجدت قوارب الزهور بالعشرات؛ لأن بنات القرية صِرْنَ يَمُتْنَ مُبَكِّرًا. ولم يُرِدْ أحد أن يفصح عن سبب ذلك الموت، عدا تلك الفتاة، التي كانت تبيع السعف والزهور لزائري الساحة. كانت جميلةً بصورة لا تُصَدَّق، وتساعد أبًا كفيفًا وسيمًا، ومُبْتَسِمًا على الدوام. وقد سمعتني وأنا أسأل، وسمعت أبناء قريتها، وهم يراوغون. وكان أن هَمَسَتْ في أذني، وأنا أتناول منها إكليلًا من السعف والزهور، لأضعه على قبر «زمارتا» قائلة:

- انتظرني في الساحة، وسوف أخبرك.

لحقت بي الفتاة، فأحالت بجمالها الساحةَ من مقبرة إلى جنّة. وكان أجمل ما فيها أنها على استحياء تدرك جمالها. جاءت إليّ حيث أجلس أمام قبر «زمارتا» وهمست لي:

- اتبعني إلى الغابة، حتى لا يخوض الناس في سيرة أبي.

كان اسمها «كيما». ودَّعْتُ «زمارتا»، وصعدت خلفها إلى حيث شجرة عملاقة مجوَّفة ككهف. وهناك لا أعرف كم مكثنا. أخبرتني عن يُتْمِها، وعن مساعدتها لأبيها، وعن القصائد التي تحبُّها، والأغنيات التي تتمنّى أن ترقص عليها. كانت تتكلم دون توقُّفٍ في موضوعات

t.me/qurssan

شتّى، وعيناها تقولان أشياءَ أُخَرَ. وحين سألتها عن السبب الذي يجعل فتيات القرية يَمُتْنَ صغيرات، نظرتْ في عيني، وقالت:

- إنه الحبُّ، فقلوب بنات قريتنا مُرْهَفَةٌ، لا تحتمل عذاباته، خصوصًا عندما يهجر الحبيبُ حبيبتَه ذاهبًا للحرب؛ فإنها تمرض وتموت.

شعرتُ بالأسى لـ «زمارتا» التي لم أَلْحَقْ بها لأنقذها. لاحظت أن «كيما» تتجنّب أن يصل الحديث لِذِكْرِهَا، حتى أنها تجنّبت أن تسألني عن علاقتي بصاحبة القبر الذي وجدتني إلى جواره، بل تذكّرت أنها عندما أتتْ إلى الساحة، جاءتْ مباشرةً نحوي، وكأنها تعرف عند أي قبر ستجدني. ارتَبْتُ، ونظرت في عينيها، وشعرت بالرعب، ونهضت لأمضي. أمسكتْ يدي، فسألتُها:

- هل تعرفين «زمارتا»؟

سكتت، وشردت عيناها، وبدا أنها وقعت في فخٍّ أرادَتْ تجَنُّبَه. حاولت أن تتحدَّث في أمور أخرى، لكنني أعدت عليها السؤال بإصرار. شعرت أنه لا مفر من الإجابة، وبصوت يستجمع نفسه، وكأنها على وشك البكاء قالت:

- كانت ابنة خالي.. حكت لي عنك، ورأيتُك في موكبها، وعرفتك.. في الحقيقة أحببتُك منذ وصفتك لي، ورأيتك فظلّت صورتك في خيالي، لم تفارقني أبدًا، وانتظرتُك، وقد أتيتَ.

كانت تُمْسِكُ يدي بقوَّة، متشبّثةً بي، ولم أجد ما أقوله. صمتنا

t.me/qurssan

حتى أرْخَتْ يدها، فسحبتُ يدي وانصرفت، لكنها لحقت بي، وأوقفتني من جديد. وبعينين دامعتين قالت:

- عِدْنِي أن تعود.

نظرت في عينيها، حيث لم أرَ في حياتي مزيجًا من الرغبة والحزن كالذي رأيته، ووعدتُها بالعودة. لن تصدِّقي إذا قلتُ لكِ إنني لم أعُدْ أبدًا. لقد خِفْتُ من جموحها الذي بدا كَشَرٍّ ينضح من وجهها الذي لا يُقَاوَم. كانت أشبهَ بجِنِّيَّةٍ، تشدُّني إلى الأعماق انسحب روحي، واكتشفت أنني لم أَبْرَأْ من مخاوفي وهواجسي، كما اعتقدت. لقد انتكسْتُ وعُدْتُ أسيرَ طفولتي البائسة. لكنني سرت أفكِّر فيها، حتى وأنا أخرج إلى ساحات المعارك، وأنسحب مع الكتيبة مُنْهَزِمِينَ، وأضمِّد جراح الجنود والمحاربين، وأبتر الأطراف إنقاذًا لباقي الجسد.

لم أفكِّر في العودة مُجَدَّدًا، بل خفت حتى أن أسأل عنها، أو أعود إلى قبر «زمارتا». وأقصى ما استطعته، أنني تَمَنَّيْتُ لها من أعماق قلبي أن تجد الحب الذي تستحقه، والرجل القادر على أن يغوص في أغوارها السحيقة، ويتحمَّل عُنْفَ مشاعرها. وكنت واثقًا من أنه محظوظٌ، سَيَنْعَمُ بأنوثة لا مثيل لها، في مغامرة شَيِّقَةٍ، محفوفة بالموت والمواكب والورود والفراشات والنَّحْلات. لقد أغلقت الباب؛ لأنني جَبُنْتُ أيضًا هذه المرة.

t.me/qurssan

فكّرتُ، وأنا أنتزع نَصْلًا مكسورًا من فخذ أحد الجنود، أنني لو عدت إلى هذه الفتاة، كنت سأجعلها أرملة، رغم أنني كنت أتوق إلى تلك الرغبة العارمة، وكنت أقول إنها الحياة، بل الجنة تفتح شفتيها شَبَقًا قائلة: هيت لك! ولكن عندما اقتربت من لفحها جَبُنْتُ، ووعدت، ونَكَصْتُ. لقد كانت الرغبة والحب هنا معًا، وكأنهما الشيء نفسه، وكان هذا جديدًا عليَّ، وكان مُرْعِبًا، لذلك هربت.

لكنني كنت أعود، وأتذكّر تلك الفتاةَ بالذات، رغم مرور السنين. وحتى لقد عاودتني ذكراها بعد رحيل «إميلدا»، ورحت أتذكّر أشياءَ، لست مُتَيَقِّنًا مِمّا إذا كانت حدثت بالفعل، أم أن خيالي قد ابتدعها. لقد تذكّرْتُ تفاصيلَ من جسدها، حيث لا أظن أنني رأيت. كيف لهذه الذاكرة اللعينة أن تختلق ما لم يحدث، وتدسّ عليَّ ما يُؤَرِّقُني؟ لقد أمسكت الفتاةُ يدي، وأنا أَهُمُّ بالرَّحيل، لكن أَثْرَاهَا قَبَّلَتْنِي، وعَضَّتْ شفتي العليا مُهَدِّدَةً بمصيرٍ دمويٍّ، إذا لم أَعُدْ؟ لقد هدَّدتني عيناها بخسارة العالم إذا خذلتُها، بخسارة حبٍّ لا مثيلَ له، فلعلّها فعلت ذلك. لعلّها هدَّدتني بأنها ستموت، فلماذا وعدتها بالعودة، وأنا الذي كنت أَهُمُّ بالفرار، وكنت أعلم أنني أبدًا لن أعود؟

هل كان عليَّ أن أفي بوعدي، وأن أجلس مع والدها نبيع السَّعَفَ

t.me/qurssan

والزهور لزائري ساحة العرائس، بينما تقوم هي بطهو الفِطرِ الذي طلبتُه من الغابة، وأن أقضي الساعات، وأنا أراقب مزيدًا من المواكب من الجميلات، مُرْهَفَاتِ القلوب إلى قوارب الزهور؟ أحيانًا كنت استرجع صورتها التي دُسَّتْ في ذاكرتي، وأقول إنني كنت سأحظى بأنثى أسطورية، تنسيني أوجاعي وأحزاني، وتطلق في روحي مواكبَ رقصةٍ، تودِّع سنوات الانتظار المميت في بيت العذراوات. وكنت أتذكر شفتيها الممتلئتين، وأعلى صدرها الأبيض المُكَوَّرِ، وساقَيْها اللتَّيْن أشفتهما عَمْدًا ونحن بالغابة، وأشعر أنه فاتتني شهقةُ عشق، إن لم تسعقني، كانت ستمنحني مذاقَ حياة لا يُعَوَّض.

هكذا هي ذاكرتنا اللعينة عندما يصيبنا الخَرَفُ، تَدُسُّ علينا أشياءَ مُبَالَغًا فيها؛ لتشعرنا بالحسرة على الماضي الذي تحترف تسجيله. إنه مادَّتها، وهي شبقة تلتهم الحاضر، لتحيله على الفور إلى صور وومضات سعادة وألم، وإن لم يسعفها ما لديها، لا تستحي أن تضيف، وأن تحذف وتزيِّف. ولعل هذه الذاكرة اللعينة هي التي تحب دائمًا أن تجعل من قصصنا المُبْتَسَرَةِ أساطيرَ ضائعةً؛ لأنها تحب أن نشعر بالحسرة، لكي ندور في فلكها، ونطوف بِنُصُبِها على الدوام. وماذا تكون الحسرة سوى اجترار لصور ضائعة من الذاكرة، وإلَّا فلماذا دائمًا أعظم القصص هي تلك التي لم تكتمل؟ إن المنطق يقول إن قصصًا مُجْهَضَةً هي ضعيفةٌ، ولم تَقْوَ على التحقُّق،

t.me/qurssan

لكنها على العكس تتضخَّم داخلنا. إن عواطفنا مليئة بالتناقضات. ونحن نحاول أن نهذِّبَ تيّارها بين ضفتين، لنستطيع الإبحار عبرها. أمّا القصص التي تستعصي على التهذيب، فإننا نهرب منها؛ لذلك هربت من «كيما» فتاة السعف والزهور، ولم أجد طريقة للفرار أسهل من أن أعِدَها بالعودة، وأنا أوقن أنني لن أعود.

إن العواطف هنا مُراوِغَةٌ، ومُتَناقِضَةٌ كما تَرَيْنَ. وهي بين كاهنٍ يُدَنِّسُها ويَقْمَعُها، وفنّان يُحَلِّقُ بها غناءً ورقصًا وموسيقى. ولا عجب، فالفنون أجنحة المحرَّرين، أمّا تعاليم المعبد فأغلالُ العبيد. وعلى قَدْرِ روعة الحب والفخاخ المُحَاطَةِ به، على قدر ما تعاني المرأةُ بالذات؛ إذ تجد نفسها في قلب التُّناقُضِ، مُطَالِبَةً بأن تبدو كنصف إلهة، في حين تلطِّخُها الطبيعة، ويدنِّسها الكهنة. ونحن أيضًا نحمِّلُها كلَّ مخاوف طفولتنا، وإخفاقات شبابنا، نزدريها إذا استجابت، ونعاقبها إذا تمنَّعَتْ. ونحن حتى نحبُّهنَّ لأسبابٍ تافهة غالبًا، ونهرب منهنَّ لأسباب مقزِّزَةٍ؛ لأنّنا مُعَقَّدُون.

هل كنتِ تحبّين أن تكوني جزءًا من كل هذا؟ وهل كنت تتحمَّلين أن تضغطي على يد شابّ أحْبَبْتِهِ بجنون، وتطلبي عَهْدًا منه بأن يعود، فيعدك، ثم يذهب ويحبُّ أخرى، وكلّما تأتِ ذِكْرَاكِ يَخْذُلْك من جديد، وإلى الأبد؟ أتُرَاكِ انتظرتِ؟ أمْ سِرْتِ على سُنَّةِ رفيقاتك، ورَحَلْتِ في موكبٍ راقص وسط الأغنيات؟ حيث ليس لديك إخوةٌ

t.me/qurssan

ليطلقوا السِّهامَ نحو السماء، ولا أُمٌّ تُزَغْرِدُ، وحيث سيضع والدُك الكفيف كلَّ ما لديه من سعف وزهور على قبرك، ويخوض في البحر دون رفيق. أم تُراكِ ما زِلْتِ حَيَّةً، وربَّما تتذكَّرين ذلك اليوم، عندما تَبِعْتُكِ إلى الغابة، فعرضتِ عليَّ قَلْبَكِ، وخَذَلْتُكِ؟ هل لبتسمين إذ تتذكَّرين ذلك اليوم، أَمْ تَشْعُرين بالحسرة؟ هل تحوَّلْتُ أنا أيضًا إلى أسطورة عبر خيانة ذاكرتِكِ، ودسَّها عليكِ صُوَرًا وأشياءَ لم تحدث؟ لستُ أسطورة على كل حال. أنا رجل ضائع خَسِرَ كلَّ شيء، وعاش وحيدًا ينتظر الموت. لعلك عِشْتِ حياةً أفضل منِّي بكثير.

هكذا يا «أورنينا»، نحن هنا نعيش الحياةَ فنبتذلها، أو نفقدها فتصير أساطيرَ ضائعة. وبين الابتذال والحسرة ندور في دوَّامةِ وجودنا البائس. سُحْقًا لهكذا حياة! إنَّها مُبْتَذَلَةٌ، ونحن أيضًا مُبْتَذَلُونَ، فقط لدينا ذاكرة مُخَادِعَةٌ، قادرة على تجميل ما ضاع. ربما «إميلدا» وحدها كانت تقف هناك استثناءً، واقِعًا أجمل من الخيال. وهي امرأة استطاعت أن تقاوم، وتصمد بنقائها ونصاعتها حتى رحلت، كأن الحياة قد عجزت عن ابتذالها فسلَّمَتْها للموت.

قد يدهشكِ أنني أحكي لكِ كلَّ ذلك في رسالتي الأولى، ولكنني لست واثقًا من أنني سأُرْسِلُ لكِ مُجَدَّدًا؛ لأنني نظرت في المرآة، فلم أَرَ إلا ظلَّ رحيلي، حاملًا صُرَّةَ أيَّامي؛ لذلك أحكي لك على

t.me/qurssan

عجل، محاولًا ألّا يفوتني شيء؛ لأنها فرصتي الأخيرة.

لقد اكتشفتُ أن كُلًّا مِنّا قصة، وأن الواحد مِنّا يعيش بقدر ما تعيش حكايته. وقد صرتُ عاقِلًا الآن لأدرك أن أحدًا لن يرويني، وأن أحدًا لن يسمعني؛ لذلك فإنني أكتبني وأرسلني لك، متشبثًا بآخر إمكانية للوجود. وعندما يتعلّق الأمر بحكايتنا، فلا مناص من أن نكون صادقين، وإلّا كُنّا نمنح الوجود لشخص غيرنا؛ لذلك أحكي لك حتى الأشياء التي ربما يخجل أبٌ من ذِكْرِها أمام ابنته، أو تلك التي تبدو متناقضة وغير مُبَرَّرَةٍ، فهذا هو أنا، وهذه هي طبيعة الإنسان، وأنا واثق أن لديك من الإنسانية أيضًا، ما سيجعلكِ تتقبّلين أباكِ، وتحبّينه رغم كل شيء. لقد حكيتُ لك قصصًا مُجْهَضَةً، وحكايات حُبٍّ ضائعة، وأجدني الآن راغِبًا أن أمسك بالوقت لأحدّثَكِ عن «إميلدا» حبُّ حياتي، المرأة التي أحبّتْني، وأحببْتُكِ بجنون.

كنت و«إميلدا» نُحِبُّ أن نحتفل، لنطفو فوق أحزاننا. وفي كل مرة أصنع أشياء تبدو بسيطة، لكنها تفرح بها فرحًا طفوليًّا، يشعرني بالبهجة. ذات مرة أعددتُ لها اللحمَ المطهُوَّ بالنبيذ الأحمر. وضعتُ رقائقَ اللحم في الزيت، ثم أكْمَلْتُ طَهْوَهَا في النبيذ المخلوط بالخَلّ. كانت تغمرنا السعادة، ونحن نأكل ونشرب، ونغنّي احتفالًا بعيد إلهةٍ للحب، يحاكم المعبدُ مَنْ يحتفل به. لكننا قرّرنا أن نستمتع،

t.me/qurssan

مقاومين حزننا باقتراف بعض الآثام. جلسنا على ضوء القناديل، ونثرت «إميلدا» وريقات من الورد الأحمر بينها.

كان الإله القمر يُطِلُّ علينا، مُحِيلًا احتفالَنا لحلم رقيق، وفجأة وبينما كانت تغمرنا سعادتنا المسروقة، والمناقضة لكل ما حولنا، سمعنا طَرْقًا عنيفًا على الباب. وجاء من يخبرنا بأن كهنة معبد الصحراء استولوا على البلاد، وأن رجالهم دخلوا جميع معابد الإله الشرقي، وحاصروها بأتباعٍ لا أوَّلَ لهم ولا آخر، وصاروا يتعقَّبون المحاربين، ومؤيِّديهم في بيوتهم ومزارعهم، ويقومون بقتلهم وتعليق جلودهم برؤوسهم على الأشجار، ويدفعون لكل من يأتي لهم برأس محارب. شعرتُ بالخطر؛ لأنني أحمل رتبة طبيبٍ محارب سابق. نهضنا على عجل، وأخذنا كل ما ادَّخرناه، وفررنا.

تخفَّيْنا بالليل، وتنكَّرْنَا في النهار، ودفعنا الأموال هنا وهناك، حتى استطعنا مغادرة «أورنارا». ركبنا قاربًا إلى مَصَبِّ النهر، حيث أرض لقبائل مسالمة، ساعدونا في بناء بيت من الكَلْسِ، فوق لسان يمتدُّ داخل البحر. كان كوخنا يشبه نِصْفَ بَيْضَةٍ، ولم نَكُنْ بحاجة لنزرع حوله حديقة؛ لأن الأفق الممتدَّ خلفنا كان غابة خلَّابةً، ولأن الأشجار كانت تُغَطِّي اللسان أيضًا، وتدخل إلى البحر، حتى أنه في أوقات المَدِّ، كانت تظهر بزهورها وثمارها، مُنْبَثِقَةً من الماء، أما مَصَبُّ النهر فيتدفَّق هادئًا، أسفل الكوخ، وقد صار حوض استحمامنا.

t.me/qurssan

في تلك الأثناء فَرَّ آخرون، وعبروا إلينا. وجدنا بينهم صديقنا الطيب «نوربا» الرَّسَّام. كان عمله رَسْمَ وجوه الموتى على رقائق من الخشب، لتوضع على واجهات التوابيت. وظلَّ منذ عرفناه حزينًا؛ لأنه مُرْهَفُ الحِسّ، وربما لأن عمله في رسم الموتى جعله يرى الحياةَ مُجَرَّدَ صورة، مآلُها أن توضَعَ على غطاء تابوت. ومع ذلك ظلّ يواصل البحث عن ذلك الشخص الذي جاء إلى الحياة لينقذه، ولم يجده.

شعرنا رغم كل شيء بامتنان؛ لأننا وجدنا صديقًا نعرفه. رحنا نساعده في بناء كوخه. وصار يرسم على جدار بيتنا أشجارًا وزهورًا وجِرَارًا. اختار لنفسه مكانًا مُنْعَزِلًا بين الأشجار، وراح يرسم نساءً لا يعرفهن، جميلات وغريبات، لم يستطع إلا جعلهن حزينات، كأنما يُطِلِلْنَ علينا من عالم بعيد. أما «إميلدا» فكانت تجد أحجارًا ملونة مختلطة بالحصى في المياه الضحلة للنهر. وأخذت تصنع منها حُلِيًّا جميلة. كُنَّا نذهب أحيانًا لحضور أعراس القبائل حولنا، فتهدي بعضًا منها للعرائس.

عاشت تلك القبائل قرونًا مسالمة وسعيدة. ولم يعكِّرْ صفوَها سوى القلق من أن يصل إليهم محاربو المعبد الشرقي أو معبد الصحراء، والذين امتنعوا عن غزوهم طوال السنوات الماضية؛ لأنهم لم يجدوا نساءهم جميلات.

t.me/qurssan

مضى بعض الوقت، ورأينا ذات صباح فتاة غجرية، على جذع شجرة عائم، تحاول عبور النهر. كانت خائفةً ومُنْهَكَةً. نزلتُ مع «توربا»، وسحبنا الجذع حتى الشاطئ، ثم حملناها إلى كوخنا. احتضنتها «إميلدا» حتى تعافَتْ وهدأتْ. حَكَتْ لنا ما فعله أتباع معبد الصحراء في «أورنارا». بَدَتْ حزينةً ووحيدة بدرجة مفزعة. اصطحبَتْها «إميلدا» في الأيام التالية، وهي تجمع الثمار والقواقع من الغابة. كانت تساعد في إعداد الطعام، وتأكل معنا، ولا تعود إلى كوخها الصغير إلّا للنوم. بدأنا الاعتياد على المكان والرفاق وحياتنا الجديدة. وصرنا نجلس كل مساء، ونشعل النار أمام الأكواخ، ونستمع إلى الغجرية الحزينة، وهي تشدو بصوت رائع وشجيٍّ. أخذنا غناؤها إلى حيث صرنا نرى العالم كمأساة. ومن فرط ما سَمَتْ بنا، وأحزنتنا؛ صرنا نبكي.

لم نكن نسمع صوتها إلّا وهي تغنّي؛ لأنها كانت صامتة على الدوام. عرفنا ما عانته طوال حياتها؛ فقد وُلِدَتْ كطفلة مُرْهَفَةٍ ورقيقة، واكتشفت جمال صوتها في أمسيات السَّمَرِ، حيث كان قومُها لا يكفُّون عن الرقص والغناء. وفجأة داهم قريتها محاربون يرفعون رايةً إلهٍ ما. ورأتْ عائلتَها يُذْبَحُونَ أمامها تِبَاعًا. شاهدت قريباتها يُغْتَصَبْنَ بوحشية. وقد أفلتت من السَّبْيِ لأنها غابت عن الوعي من هَوْل ما رأت، فاعتقدوا أنها ماتت. لازمتها تلك الصور

t.me/qurssan

أراد لتلك اللحظات أن تمتد إلى آخر العمر.

كان يراها واقفةً تنظر نحو البحر، كأنها إلهة في المنفى، تطل صوب عالمها البعيد. اقترب دون أن تشعر. وظل يقترب حاملاً خاتمه وحليّه، حتى وقف إلى جوارها. نظر في عينيها الدامعتين، وتأمّلَ شَعْرَها البُنّيَّ المُجَعَّدَ، بخصلاته الذهبية. تأمّل بحبٍّ ثَنْيَتَيْ الحزن الأزليّ على جانِبَي وجهها. وقدّم لها خاتمه وحُلِيَّهُ وأحلامه، وحياته القادمة. قال إنه سيكون أسعد إنسان في الوجود إذا قَبِلَتْ أن تعيش معه إلى الأبد حبيبةً وزوجة، وأن حياته كلها ستكون من أجل إسعادها. قال إنه أحبّها من لحظة أن رآها تطفو فوق جذع الشجرة في المياه الضحلة لمصب النهر، عندما كانت مُبْتَلَّةً وخائفة، وأنه من وقتها شعر بأنه مسؤولٌ عنها. أخبرها بأنه كان يراقبها طوال الفترة الماضية، ويشعر بأنها تتحرك داخل قلبه. وعدها بأنه سيعوّضها عن كل ما عانَتْهُ في حياتها. واقترب أكثر ماداً يده بالخاتم والحُلِيّ.

كانت الفتاة تفكر كل ليلة، وتُمَنّي نفسها بحياة جديدة، تُنْهِي أحزانها. نظرت له، وإلى حُلِيِّهِ وخاتمه، ومن خلفه البيت الجميل، برسومه ومظلّتِه وبِرْكَةِ أسماكه وأرجوحته. عرفت أن كلمة منها الآن ستحدّد مصيرها ومصيره. لم تكن تأمل في شيء أفضل من ذلك. وأيقنت أن الحياة لن تجود عليها مرة أخرى بحبٍّ كهذا. أرادت أن

t.me/qurssan

دفع نفسها في التيار الجديد للحياة، وتنسى أحزانها، وقد حاولت. شعرت كأنها تقف على جرف مرتفع، وأنها على وشك القفز. قالت لنفسها إن الحب سيكون جناحيها، وأن حبيبها، لن يتركها تسقط. حاولت من جديد أن تنطق تلك الكلمة، أو تهزَّ حتى رأسها بالموافقة، لكنها عَجَزَتْ. ونظرت في عينيه للحظة خاطفة، فتيقَّنَتْ من أنها لن تستطيع مبادلته الحب؛ لأنها وجدت جراحها ما زالت تؤلمها بشدَّةٍ، وكان من الصعب تضميدها، ولأنها أيقنت أنه عندما يشعر الشخص بكل هذه الآلام؛ فإنه لا يكون قادرًا على الحب، ولا يستطيع أن يمتنَّ أو يتجاوب.

رحلت الفتاة شاعرةً بالذنب؛ لأنها أدمت قلب شخص بائس مثلها، كان بحاجة إليها. أما هو فقد انزوى، وراح يسرف في الشراب يومًا بعد يوم. وكان أن استيقظنا ذات ليلة، فوجدنا البيت الجميل يحترق. كان لفح نيرانه يضرب الأجواء من حوله، والضوء المنبعث منه يضيء الغابة، ويجعل الأسماك تتقافز عند مصب النهر، ويغري زواحف البحر بالصعود إلى الشاطئ. وعبثًا حاولنا أن نطفئ الحريق، لكنه أبى إلا أن يترك البيت رمادًا، فأصبح بقعة سوداء على حافَّة جنَّتِنا المنسية. لكن النسيان لم يَطُلْ، ففي أثناء مزاجنا السيء الذي أعقب كل ما حدث، وعندما كنَّا قد بحثنا عن صديقنا، ويَئِسْنَا أن نجده، وصلتنا الأخبار بأن محاربي معبد

t.me/qurssan

الصحراء في طريقهم إلينا. ورأينا رؤوسنا مُعَلَّقَةً على الأشجار، فكان لا بُدَّ أن نترك المكان بسرعة.

تبدو الحياة هنا مأساوية كما ترين، لكنها أحيانًا تكون مبهجة بجنون. وهي تُسَمِّي نفسها حياةً، بينما الموت غايتُها، تضع سيفَه على كلِّ الرِّقاب، إذ هو ليس عَدُوَّها ولا نقيضها، كما تَدَّعِي. إنه جزء منها، متواطئ معها، ومرحلة من مراحلها. ولا يمكن تَصَوُّرُ حَيٍّ ما، دون أن يكون مَيِّتًا ذات يوم. وإذا كان أحد يريد تجنُّبَ الموت، فكان عليه أن يتجنَّب الحياة. وأنا لا أقول هذا مُقَبِّحًا الموتَ في ذاته. لقد نظرت بعينين حاسدتين إلى أحجار، كانت في يوم كائنات تحيا؛ لأنني رأيتها وقد صارت سيدة نفسها، لا تخشى أحدًا، ولا يؤلمها شيء، مستغنية بلا رغبات. وهي لا تبالي إذا دهسها أحدهم عَمْدًا أو سَهْوًا، ولا إذا التقطها شخصٌ فَنَحَتَ منها إلهًا، أو مِرْحاضًا.

كنتُ و«إميلدا» نعرف أن الحياة لا تساوي شيئًا؛ لذلك لم يكن من الصعب أن نهدمها، ونعيد بناءها بطريقة جديدة في مكان آخر، دون أن نلتفت لخسائر، أو نخشى حتى من ضياع كل شيء، لأننا كنَّا نعرف أن كل شيء ضائع سلفًا. لذلك فقد هربنا على متن قارب كبير، وصرنا ننظر إلى البحر ونقول:

- ها نحن نحقِّق أمنيتنا في الإبحار طويلًا.

t.me/qurssan

كان قارب صيد في الأساس، ونحن مجموعة من الفارين. أعطينا صاحبه المال؛ ليظلَّ يبحر بنا حتى نجد جزيرة بلا معابد ولا محاربين، فعشنا في البحر طويلًا. وصرنا نصيد الأسماك لنأكل، ونتوقَّف عند بعض الشواطئ لجلب الماء. ونسينا أننا في الحقيقة هاربون. ورغم أن أُمَّكِ شعرتْ في البداية بدوار البحر، لكنها مع الوقت وباتِّباعٍ بعض النصائح، تَغَلَّبتْ عليه. رُحْنَا نبحر ونبتعد مع رفاقنا، فأصبحوا كعائلتنا. وصار القارب البيت والوطن. نتشارك الطعام في الصباح، ونصطاد الأسماك قُبَيْلَ الغروب، ونتعرَّض الأخطار، ونتفاداها معًا، وتعلمنا الكثير.

قضَيْنَا مُعْظَمَ الوقت نسمع الحكايات. وفي البحر تجدين رغبة كبيرة في البوح بما لا تستطيعين على اليابسة. وفي الليل كان أحدهم يبكي ويبكي، وهو يعترف بخطيئة ندم عليها. وكأنني تحوَّلت فجأةً إلى كاهن يتلقَّى الاعترافات. لكنني لم أطلب استغفارًا، ولا وعدًا بتوبة. على العكس، كنت غالبًا أجد لهم المبررات، وأفصل لهم ما فعلوه بأسبابه ومبرِّراته، فيجدون أنهم قد دفعوا لما اقترفوه دفعًا. كانوا يشعرون براحة حقيقية، وهم يعترفون أمامي. لكنني لم أسمح للزهو أن يأخذني، فأنا لم أعتقد بامتلاك مفاتيح جنة ما.

وصلت إلى يقين بأننا نجلد أنفسنا أكثر ممَّا يجب، وبسبب أفعال قرر الكهنة تسميتها خطيئة، في حين أن الخطايا الحقيقية، نمارسها

t.me/qurssan

جميعًا بضمير مستريح. ففي عالَمٍ مصمَّمٍ لكي نأكل كائنات مثلنا لنعيش، وأن نقتل بعضنا لنصرة المعبد، عن أي خطيئة ستحاكمنا الآلهة؟ إن هؤلاء البَكَّائِين في أمسيات قاربنا، كانوا يجدون السلوى فقط، عندما أطلعهم على الشَّرِّ الكامن في هندسة العالم، والذي لم يترك لنا سوى هامش ضيق لنكون أخيارًا. ومع ذلك فإن الإحساس بالذنب، هو أكثر ما يُؤَرِّق الناس هنا. ونحن نخجل من أن نقف بهذه الذنوب أمام تاسوع الآلهة، في حين أن التَّاسوع هم من يجب أن يخجلوا، على الأقل من الجرائم التي ترتكب باسمهم كل يوم، وهم قابعون في بَلادَةٍ. لكن تعاطفي مع البَكَّائين لا يعني أنني كنت أتفهَّم كل خطاياهم، فهناك شرور غير مُبَرَّرَةٍ. وإذا كنَّا مضطرِّين أن نقتل لنعيش، فلسنا مُجْبَرِين، أن نضع قتلانا في المقلاة أحياءً. وإذا كانت الحياة قد جعلتنا قتلة، فلا يجب أن ننسى أننا جميعًا ضحايا خلل فادح، وكوننا ضحايا يجب أن يجعلنا أكثر رِفْقًا.

كانت «إميلدا» مُحِبَّةً للسفر، وترى الحياة بذاتها رحلة في مجهول. تَذَكَّرْتُ ذلك اليومَ عندما خطرت ببالها فِكْرَةٌ مُدْهِشَةٌ. كُنَّا في طريق عودتنا من بلادها، وقد زُرْنَا ذلك المعبدَ المَنْحُوتَ في الصخور، وهبطنا إلى النهر، فأخذنا قاربًا، وقد امتلأت ساعةً أصيلٍ ساحِرٍ بالسَّعادةِ، وقالت:

- إن العالم هو الذي يتحرَّك حولنا، ويرتحل تحت أقدامنا، إنَّني

t.me/qurssan

طوال تَنَقُّلِنَا من قرية إلى أخرى، لا أرى إلا النَّهر، ينزلق تحت قاربنا بِمَائِهِ، ساحبًا معه الشواطئ والحقول والزُّرَّاعَ والبلدات والنخيل والبيوت. إنَّني أرى العالم يعبرنا بأماكنه وناسه وأحداثه، وهو يأتي في مواجهتنا، ثم يَمُرُّ إلى جوارنا، ويلمسنا، ويملأ حواسَّنا بجديده، لذلك فإننا لا يجب أن نتوقَّف أبدًا، كي نسمح له بالترحال عبرنا، وكي يظلَّ على الدَّوام يسبح فينا.

عشنا في البحر طويلًا، لا نرى سوى الأزرق يحيط بنا، مُنْعَزِلين عن العالم بألوانه وأحداثه، إلَّا من بعض أخبار، تأتينا في قوارب صغيرة مع الماء والزاد، عن «أورنارا» وما يجري فيها. كُنَّا على استعداد لأن نظلَّ مُرْتَحِلِينَ إلى الأبد، مُكْتَفِينَ بأنَّنا معًا؛ لأننا أدركنا أن الحياة هي صحبتنا، وكنا نرحِّب بأن نكون وحدنا في أي مكان؛ لأنْ كُلًّا منَّا صار ملاذَ الآخر، ووطنه. وقد نظرت لها ذات يوم، فوجدتها بيتًا أبيض، بحديقة ملوَّنةً، وأُفُقًا يَمْتَدُّ بلا نهاية، بإمكاني أن أتأبَّطَه، فأصحبه إلى أي مكان، دون أن أشعر أن شيئًا ينقصني. ورغم ذلك اشتقنا لليابسة، ربَّما لأنَّ البحر الفسيح وهو ينزلق تحتنا، لم يكن يَجُرُّ معه شواطئ ولا بيوتًا. لم يكن يسحب خلفه سوى البحر، ومزيدًا منه، وبدا مع الوقت بلا ملامح؛ لذلك أردنا أن ننعم بصحبتنا على الأرض، وأن نرى غابة، وتلمس أقدامنا عُشْبًا، ونستنشق زَهْرًا، ونرى أرنبًا بَرِّيًّا يُطِلُّ من جُحْرِه، وطائرًا يَحُطُّ

t.me/qurssan

عـلى غصـن، رغـم عشـقنا للبحـر، ورغـم أننـا اعتدنـا رفـاق قاربنـا، لكـن «إميلـدا» لم تعـد تحتمـل، وكنـت أريـد أن أجعلهـا سـعيدة.

تذكّـرت صديقًـا قديمًـا، سـافر إلى بـلاد الغابـات الصفـراء منـذ سـنين، وتـزوج واسـتقر هنـاك، وظَـلّ يعـود فيـزور «أورنـارا» كُلّ عـدَّةِ سـنوات. كانـت بلادهـم في المـاضي محكومـةً برجـال المعبـد الغـربي، لكنّهـم أطاحـوا بهـم في ثـورة عارمـة، ورضي الكهنـة بعـد ذلـك أن يلزمـوا معابدهـم، كمرشـدين روحيـين، دون نفـوذ. فكّـرت أن نذهـب إلى هنـاك، وقرّرنـا أن نجـرّب، وأخبرنـا الرفـاق بأننـا سـنغادر القـارب عنـد أول ميناء يتبـع بـلاد الغابـات الصفـراء، وقضينـا الأيـام الباقيـة في حفـلات وداع. ثـم نزلنـا في الميناء، ووقفنـا عـلى الشـاطئ نُلَـوِّحُ لرفاقنـا، وهـم يبتعـدون. ظَلَلْنـا هنـاك حتـى صـاروا نقطـةً تبتعـد، ثـم ابتلعهـم الضبـاب. قلـت:

- كأنّنـا لم نكـن معًـا، وإذا كنّـا نريـد أن نراهـم مُجَـدَّدًا، فعلينـا أن نغمـض عيوننـا.

- كل شيء مآلـه أن يتـلاشى، وكأن عيوننـا وضعـت في وجوهنـا، لنغمضهـا عـلى الأماكـن والأوقـات والنـاس الذيـن يعـبرون، ويذهبـون.

ذهبنـا إلى المدينـة التـي يقيـم فيهـا صديقنـا. وجدنـا النـاس لا يتوجّسـون مـن الغربـاء. اسـتضافنا الرجـل في بيتـه، واسـترجعنا معًـا أيـام دراسـتنا وعملنـا. لقـد صـار هنـا مُعَلِّمًا للطـب، ومستشـارًا لحاكـم

t.me/qurssan

المدينة. كان محبوبًا، فاستطاع أن يجد لنا مزرعة كروم في الريف، وبها بيت قديم. انتقلنا إليه، ورُحْنَا نُجَدِّده. كُنَّا مُنْبَهِرِين بِكُلِّ شيء في بلادٍ بلا كهنة يُنَغِّصُونَ حياة الناس، ولا محاربين يتسلَّطون عليهم. لَزِمَ الكهنةُ مَعَابِدَهُم، والمحاربون حدود الوطن يدافعون عنها، ولم نَرَ إلَّا الناس يعملون ويستمتعون. كانت «إميلدا» سعيدة؛ لأنها وجدت النساء يُشَارِكْنَ في كل شيء. انشغلنا في مزرعتنا، وأتْمَمْنَا ترميمَ البيتِ وقبو النبيذ المُلْحَق به، وكانت قد بدأت تُفَكِّر في إنجابك.

لم يكن محصولنا وفيرًا في عامنا الأول، لكن عصرنا قدرًا لا بأس به، وقمنا بتخزينه. شعرت بالسعادة، وأنا أقف داخل القبو مع «إميلدا» ننظر للزجاجات الموضوعة على الأرفف مائلة، لتظلَّ أعطيتُها مُبَلَّلَةً على الدوام، فلا تعطب. كان بالقبو بضع زجاجات مُعَتَّقَةٍ، تركها بائع المزرعة لنا. احترنا في الاختيار بين الأبيض والأحمر والزهري. أخذنا زجاجة حمراء، واحتفلنا بحصاد موسمنا، وبأننا معًا.

في العام التالي تَضاعَفَ المحصول، وجاءت مجموعة من فتيات البلاد الغافلات عن جمالهن، وصِرْنَ يَقْطِفْنَ العناقيدَ المُتَوَهِّجَةَ من فوق الأغصان بِشَغَفِ أنْصافِ إلهات، ويَقُمْنَ بِعَصْرِها وعودًا من لذة، مُشَمَّرَاتٍ عن سيقان مَلْسَاءَ، وتهتز صُدُورُهُنَّ على أهبة

t.me/qurssan

النضـوج عطـاءً باذِخًـا مـن آلهـة الحصـاد. وفي اليـوم الأخـير جلبنـا عازفـين ليطلقـوا موسـيقى ذات إيقاعـات، ليتحـوَّل عـصر النبيـذ إلى رقصـة مـرح وجنـون.

رقـص الجميـع وغَنُّـوا وشربـوا، وشـعرنا بمتعـة أن نحتفـي بالحيـاة. نعـم يـا حبيبتـي لم أكـن أتـرك فرصـة دون احتفـاء بالحيـاة. وهـي نفسـها الحيـاة التـي حدَّثْتُـكِ عـن قسـوتها، مُـبَرِّرًا لـك مـا فعلنـاه؛ لأننـي يـا «أورنينـا» أتيـت إلى هنـا دون إرادتي، ولـو كان الأمـر بيـدي لمـا جئـتُ، لكـن وقـد وجـدتُ نفـسي هنـا، فلـم يعـد لي سـوى التحايُـل عـلى الوقـت، واللهـاث خلـف كل مـا يُلْهِـي، والانغـماس في كل مـا يُبْهِجُ، والفـرار قـدر الإمـكان مِـمَّا يـؤلم. لكـن كيـف، والحيـاة معجونـة بـالألم؟!

لقـد عشـت في المـاضي كمُقَامِـرٍ، وكنـت مُسْـتَعِدًّا لخسـارة حيـاتي نفسـها. لكـن منـذ عرفـت «إميلـدا»، صرتُ أفكِّـر فيهـا، وأخـشى أن أتركها وحدهـا. وكنـت عـلى يقـين أن أحـدًا في العـالم لـن يفهمهـا مثـلي؛ لأننـي رأيتهـا جيِّـدًا منـذ التقـت عينانـا، ونحـن نسـير عـلى الحافـة الجبليـة، ونتمسَّـك بالعشـب النابـت مـن بـين الصخـور. لذلـك صرت أشـعر كل يـوم، وأنـا أتفـادى واحـدًا مـن أخطـار الطبيعـة، وأعـبر مـن بـين المُلِـمَّات والأوبئـة والنوائـب والطعنـات، أننـي في مُقَامَـرَةٍ إجباريـة بحيـاة هـي كل شيء بالنسـبة للمـرأة التـي أحببتُهـا بجنـون، ووعدتُهـا بـأنْ أُسْـعِدَها للنهايـة، وألَّا أتخـلَّى عنهـا أبـدًا، لكنهـا هـي التـي رحلـت وتركتنـي.

t.me/qurssan

لقد عشت طفولتي في بيت، كان ما ينقصه هو الحب؛ لذلك فإنني بعدما اضطررت للقتل، وبعدما تقاعدتُ، كنت مدفوعًا للبحث عنه. وعرفت أنني لا بُدَّ أن أسافر كي أجده؛ لأنني كلَّما كنت أنظر حولي، أتيقَّن من أنه بعيد. وعندما التقيت بـ«إميلدا»، أخبرتها بأنني خُلِقْتُ في الحياة لأجلها. لكنني عشت بعدها طويلًا، عشت بلا غاية، ولا فائدة، عشتُ حتى صرت نبيًّا. لكن الحق أقول لك: لقد متُّ معها، وكل ما فعلت بعدها كان فائض ما ادَّخَرْتُه لها، ولمَّا رحلت صرت ألقيه للعالم، لأمضي خالي الوفاض. وكان ما ادْخَرْتُه لها حُبًّا امتزج بلوعة فراقها، فصارا حكمة حائرة قانطة مُسْتَعِرَةً كجحيم، حكمة تتدثَّر بالجنون، تلتبس بالحماقة، تهرول من بشاعتها مرتمية في حضن نقيضها. وظللت أطوف وألقيها أينما حللت، وأتحمَّل في سبيلها كل أذى.

لكنني ما زِلْتُ أعيش على ذكرى «إميلدا» وطَيْفِها النبيل. لقد كانت هي النبية بحق، وليس أنا. أتذكَّر تلك الأيام عندما تركت بلادها، وأتت معي إلى أورنارا. كنَّا نعيش في بيت صغير، يُطِلُّ على النهر والمدينة من فوق الجبل. لم تكن البلدة سوى أطلال سوداء. وكانت لنا جارة لديها طفلتان، إحداهما لا ترى، والأخرى لا تسمع. تأثَّرت أُمُّكِ بهما كثيرًا، فصارت تذهب للَّعِبِ معهما في حديقة المنزل. كانت تحكي للكفيفة عن الألوان، فتصفها لها

t.me/qurssan

لونًا بعد لون. راقبتُها من الشرفة، وهي تتمثَّل الأحمرَ، وتتحدَّث عن قُوَّتِه وجاذبيته وطغيانه وطاقته الاستثنائية، وتقول: إنه اللون الذي كنت ستختارينه من بين كل الألوان. وكانت تعود وتقول لي

- لقد حدثتها عن اللون الأحمر، لكنني لستُ واثقةً مِمَّا إذا كنت أقول الحقيقة. هل تعني الألوان شيئًا بعينه لدى كلِّ الناس؟ وهل تخيَّلَتْ البنتُ اللونَ الأحمر حقًّا؟

كانت تنام مهمومة، ثم تعود في الصباح إلى الفتاة، وتحدِّثها عن اللون الأزرق، ثم تجالس الفتاة الصمَّاءَ، وتجعلها ترقص مع موسيقى لا تسمعها، مُحيلَةً الإيقاعَ والنغمات إلى حركات مرئيَّة، وصارت البنت ترقص سعيدة. وتعود «إميلدا» وتسألني في حيرة عن ماذا تكون الموسيقى. رأيتها حزينة لِعُزْلَةِ البنتَيْن وحرمانهما تمنَّتْ لو تستطيع تحويلَ الموسيقى إلى ألوان، والألوان إلى نغمات؛ لتساعدهما.

تلك كانت «إميلدا»، المرأة التي أحببتها. أمُّكِ التي حَرَمَتْ نفسَها مِنْكِ لِتُنْقِذَكِ، ولكي لا تقامر بك في عالم مُشَوَّهٍ، ومُعَاقٍ وفوضوي وقاسٍ. إنني لا أتعجَّب من أنني أحببتها كما لم أحب أحدًا، ولذلك فعندما رحلت، جعلتني الفاجعة نبيًّا، وصرتُ أطوف البلدان مُبَشِّرًا برسالتي. وقد وضعوني في السجن، حيث دعوت المذنبين فصاروا أتقياء، ووضعوني في مشفى للمجانين، فأخبرتهم

t.me/qurssan

بِنُبْـلِ أفكارهـم، وبأنَّهـم يشـبهون الآلهـة، فصـاروا يتأمَّلـون كحكـماء. أطلقـوني لأهيـم عـلى وجهـي في الشـوارع، وتركـوني أجـوب الأسـواق، ليتكفَّـلَ أطفـالُ السُّـوقَةِ بإدمـاء رأسي بحجارتهـم اللعينـة. وكنـت أتذكَّـر مـا قالـه لي طبيـب المَشْـفَى، إنـه مـرض النُّبُـوَّةِ. وهـل النُّبُـوَّةُ مـرضٌ أيتهـا الشـياطين؟ يـا عَبَـدَةَ الأوثـان.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

بيتو ثلوثو

هَرَبْتُ إلى مدينةٍ، فوَجَدْتُها بِلا آلِهَةٍ ولا أنبِيَاءَ. كانوا يُعَلِّقُون بدَلًا منها صُوَرَهُمْ مُتَعانِقِينَ في وَدَاعَةٍ وشَغَفٍ. صِرْتُ أخْتَلِسُ لحَظَاتٍ، فَأَمْحُو صُورَةَ أَحَدِهِمْ، وأَرْسُمُ مَكَانَها وَجْهِي، فَجَاءَ طِفْلٌ وَعَلَّمَنِي أَنْ أُضِيفَ وَجْهِي دُونَ مَحْوِ صُورَةِ أَحَدٍ.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

توقَّف «أوديشو» عن إمْلاءِ رسالته. أسند رأسَه للجدار، وأغمض عينَيْهِ. كان «نوربا» هو الآخر مُتْعَبًا، لكنَّه أراد أن يتحدَّث، وأن يخبره عن الفتاة «أورنينا» التي اصطحبته إلى بيتها، فاكتشف أنها ابنة «بريثا»، وعن شكوكه بشأن أُبُوَّتِهِ لها. توقَّع أن يثير اسمُها شجونَه. تحدَّث إليه فوجده قد نام. أمسك باللوح الخشبي الذي خطَّ عليه ملامحَ «بريثا»، وبدأ يُسَخِّنُ الشَّمْعَ.

كان يسحق حجرًا أزرق، عندما خَطَرَ بباله أن يأخذ «أورنينا» لتعيش معه بعد موت أمِّها. «لدى الأب الفقير ما هو أهم من الطعام ليمنحه لابنته». قال لنفسه، ثم تذكَّر أنه سيصير أفقرَ بعد تحريم رَسْمِ المَوْتى. شَعَرَ بالكَدَرِ. فَكَّر أن يرحل معها إلى «كميت»، فهناك سيحبُّ الناسُ رسومَه دون شكٍّ. لكنه تذكَّر حُلْمَهُ، فسيطر عليه هاجس الرحيل. أصابه الإحباط، ورأى الوقتَ يسابقه، وما زال لديه الكثير ليقوم به.

بدأ «نوربا» يلوِّن وجه «بريثا»، شفتَيْها الكبيرتين، وحاجبيها المقوَّسَيْن الكثيفَيْن، وذقنها العريض. كان يفكِّر في رسالة «أوديشو» وهو منهمك في الرسم. لقد جعلته يسترجع بعضًا من مراحل حياته، فاستعاد أيام هروبه ولقائه بالغجرية. تذكَّر كلَّ التفاصيل التي ظَنَّ أنه نَسِيَها، منذ كانت تطفو فوق جذع الشجرة. وحيث راح يراقبها طوال شهور، وهي تتحرَّك بغرابة، بملامح مذهولة،

t.me/qurssan

وعينين مذعورتين. تنحني لِتَلْتَقِطَ القواقِعَ الملتصقة بالشجيرات، تحدِّثُ نفسها، وأحيانًا تتشاجر معها. كانت تصعد بعيدًا حيث مَخَرّات المياه بين الصخور. وتلصّص عليها، وهي تقفز بملابسها في البركة، وتستسلم للمياه، تهطل فوق رأسها ساعات. تذكّرَ حِرْصَها، وهي تَجْمَعُ حَبّاتِ عنب الديب الصغيرة، ونشاطها المفاجئ، وهي تتسلّق أشجار التوت، مُخِيفَةً القرودَ الصغيرة. رآها ترفع تنُّورتها المُزَرْكَشَةَ تجنُّبًا لنار الطّهْي، فتظهر ساقاها المُشْعِرَتان. بينما يجلس مع الآخرين منتظرًا الطعام. كانت تقدّم له الحِساء، مُتَفادِيَةً النَّظَرَ في عينه، لكنه ضبطها تَرْمُقُه من بعيد، وهو يبني بيتهما. ما ظلّ يؤلمه لسنوات كجرحٍ مُسْتَعْصٍ، هو نظرتها ليده الممدودة بالخاتم والحُلِيّ، قبل أن تتركه وتهرب.

كانت آلام رحيلها بطعم حِمْضٍ أذاب عظامه وقتها. هذا ما جعله يشعل النار في بيت أحلامه، والتي توحَّشَتْ مُسْتَمِدّةً سُعَارَها من قلبه، وارتفعت فأضاءت طريقه المجهول في الغابة. كان الجحيم من خلفه، يعكس أمامه أشباحًا، ويرسم مع الظلال وحوشًا، ويومض بعيون جائعة إلى لحمه، شرهةً لدمائه. لكنه مضى مُمَاحِكًا الأخطارَ، وفاتحًا ذراعَيْه للموت. استرجع كل الأحداث، وهي تُمْلِي عليه، ولكن كأنه يكتب قصة شخْصٍ غيره. لم يتأثّر كما كان يليق بالذكرى. لقد التأم الجرح الذي ظنّه يومًا سيُمِيتُه،

t.me/qurssan

بل عاش بعده وعانى، وشغل بخيباتٍ أفْدَحَ. ولم يَمُتْ أيضًا.

أدْهَشَتْهُ قدرةُ الزمن على تبديد الآلام، بل جعل أصعب الحكايات لا شيء. تمنَّى لو كان الوقت ستارًا، يمكن إسداله على ما يصيبنا من نوائبَ وقتما نريد، فنراها وكأنها قد مضت، أو كأننا نُطِلُّ عليها من المستقبل. بدا المستقبل مرادِفًا للنجاة. لكن المستقبل لا يأتي بسهولة، لا يأتي إلّا مع تمام الحكاية، مُعْلِنًا تلاشي كُلّ شيء. فكّر فلم يجِدْ ذلك المستقبلَ المريح، الذي يمحو كل الآلام والأحزان إلّا الموت، لكنه لم يأبه. كل ما تمنّاه هو امتلاك ذلك اليقين المريح والمعزّي، يقين أن كل العذابات ستغدو يومًا لا شيء، عندما يأتي المستقبل، عندما يأتي الموت. يحتاج الأمر فقط إلى بصيرة تتجاوز ثقلَ اللحظةِ. تأمّل «نوربا» حياته، فوجدها نُدوبًا، ولم يجد منها ما احتفظ بقدرته على إيلامِه سوى ما حدث لابنته «أبيلتا». لكنّه على الأقل صار بإمكانه أن يحيا، وأن يرسُمَ موتاه، وأن يعاود البحث عن ذلك الشخص الذي ربّما سينجح في إنقاذه، رغم كل خيباته السابقة. تضاعف أمله بأنّه ربّما يفعل ذلك الآن.

رأى «نوربا» أنّه يكتب رسالة صديقه، ويدوّن معها فصولًا من حياته. وتمنّى لو استطاع الكتابة إلى «أبليتا»، لِيَعْتَذِرَ عن إخفاقه في حمايتها، بل شعر أنه بحاجة ليكتب رسالةً إلى أيّ شَخْصٍ في العالم، لأنّ لديه ما يريد أن يبوح به، ولكنه بدا أكبر بكثير من

t.me/qurssan

الكلمات. إنه أنين، وربّما صراخ، بل لوعة، وانكسار خاطر. وحتى الأحداث التي صارت بآلامها بعيدةً وباهتةً ومنسيَّةً، وجدها قد خلّفتْ رمادها ملتصقًا بروحه، وهو ما يمنحه ذلك النضجَ المُخْزِي، والبلادة المميتة، وسوء التوقُّع. إنه شيخوخته المقزِّزة. شعر بحاجته لأن يقاوم تفاقمها بالبوح.

أفزعه أن الزمن يقايضنا، بل يخدعنا، فهو يذيب آلامنا، حتى نظنّها قد تلاشت، لكنه يكون قد حوّلها إلى سُمٍّ يسري في الأرواح إلى الأبد. رأى سمومه تراكمت إلى حد لم يعد البوح يُجْدِي. صار الكلام عاجزًا، ومتواطئًا، وجزءًا من زيف العالم. رآه قناعًا للقسوة، وستارًا للبؤس، وفخًّا يغرينا للمُضِيِّ في الأوحال. حلم «نوربا» بلغة من صواعقَ، تخترق النفوس في لحظة، فتؤتي أثر رسالة أو كتاب أو خطاب أو معركة. تمنّى لو خلع ملابسه، وزعق عاريًا في البرية، كما فعل صديقه ذات يوم. لكن مَنْ له بِحَنْجَرَةٍ توصل صرخته إلى الخلائق، من أول الدهر. إنه يحتاج إلى ألف حَلْقٍ كي يزأر ويعوي ويصهل وينبح ويموء ويثغو ويستغيث ويتقيّأ. رغب أن يزلزل العرائن والأوكار والجحور والأوجرة، وأن يجعل الطيور تلتفت في أعشاشها مأخوذةً، والحشرات تتوقّف عن سعيها مبهوتة، وأن تسقط الوحوش الفرائس من بين أنيابها، وتنفتح عقول وقلوب البشر.

t.me/qurssan

أغمض «نوربا» عينَيْهِ وغفا، فجاءته الصور التي رسمها عبر مسيرة حياته. كانت تبزغ مِن سرمديَّتِها، نحو حيرته. تحملق في اللفه، وتعود من حيث أتت. أخذته عيونهم إلى أُفُقٍ أرحبَ من الحياة. كانوا متباينين، رجالًا ونساءً، كبارًا وصغارًا، أغنياء وفقراء، مجلَّلين بسكينة المَوْتِ المدهشة، متكتِّمين على أسرار مرعبة، وكانوا يشبهونه. في كل عين شيء منه يحملق فيه، ويتجاوزه، كأنه ليس هنا. بَدَوْا كَوَمَضَاتٍ تَشِي بأصحابها، بل كصرخات تفضح بُؤْسَ أن مَرَّ من العالم على هذا النحو، وبهذه الطريقة، ولهكذا نهاية.

مرَّت مئات الصور أمامه، فإذا بها وصمات وأحكام ومشانِقُ. سمعها كاستغاثات وصرخات تُهَتِّكُ لُؤْمَ العالَمِ. شعر بالرضا؛ لأنه كان حنجرتهم لهذا الصراخ. تأمَّل بلاغة شمعه الملوَّن، وهو يبوح بمعانٍ، من لحم الوجود، تنزف صدقًا، لا يجزم بشيء. أيقن أن الصدق سائل يتشكَّل أبدًا، وأنه متى تحدَّد وجمد صار إفكًا. رأى الوجود بأسْرِه سديمًا يبحث عن معناه، ويتبدَّل فينبثق من أعماقه نقيضًا لذاته. وجد وجوهه المرسومة على ألواحه الخشبية حقًّا مريبًا، وحياة تحتضن فناءها، فعرف أنه أحسن التعبير عن تلك الأرواح الهائمة.

بدت الصور على واجهات التوابيت أصْدَقَ ما في الحياة، وأروع ما حدث للأرواح التي مرَّت بالعالم. إنها شهادتها على كل ما حدث.

t.me/qurssan

وكان «نوربا» صاحب الفضل في أن توثّق تلك الشهادات. وقد فعل ذلك بإخلاص لا مثيل له، حتى أنه كان يختار نوع الخشب الذي يلائم كل روح، معتمدًا حَدْسَهُ الغامض، فيختار لهذا السَّرْوَ، ولذاك الجُمَّيْزَ، ولتلك الليمونَ، وحتى الكافور، كان ضالّتَه ذات مرة، لروح ثقيلة لم تأنس للأنواع المعتادة. وفي أحيان غطّى الألواح بالكتان، لكنه فضَّل الرسم على لحم الخشب؛ لأنه استشعر روحه الحيَّة، تبعث برائحتها عندما تلمسها فرشاته بالشمع الساخن.

رأى روح الشجرة التي يأخذ منها الخشب، وروح النحلة التي تجود بالشمع، وروح النخلة التي تمنحه فرشاته، وحتى أرواح الأحجار الملونة التي يسحقها، رآها كلها تتآزر، لتشيع روح الإنسان في طريقها للخلود. ولم يكن الخلود سوى ومضة خارج سَطْوَة الزَّمن، صرخة وصدى أبديٌّ يلخِّص الوجود ويلعنه، وصورة ثابتة أبلغ من كل دأب، ولحظة مجمَّدة أصدق وأبقى من زمن، يطحن نفسه، ويسحقنا.

انتابته رغبة مُلِحَّةٌ في الرسم؛ لأنه امتلأ بالكثير ليبوح به. أراد أن يرسم أيام طفولته، وأحلام شبابه، وأفكار نضوجه، أهله وحبيباته، مِحَنَه وآلامه ونزواته. كانت كلُّها تنبض مرتعِشَةً تلتمس الخلود. رآها تتزاحم عليه في مئات المشاهد، تحتاج إلى عشر مقابر كمقبرة صديقه؛ كي تجد لها جدارًا تأوي إليه. كانت بحاجة لأن ترسم

t.me/qurssan

ونلون، تُسَجَّى وتُشَيَّعَ، تُنْعَى وتُوَدَّعَ، من أجل أن تمنح الخلود.

كان يعلم أن للوجوه سحرًا. وبحكم عمله، ظَلَّ يدقِّق في كل الملامح التي يقابلها، في الشوارع والأسواق. وجد بعضها يمتلك قوى لا تُقَاوَم. خمَّن معادلات تحكمها، فتجعلها جالِبَةً للعشق أو باعِثَةً على الطاعة والانقياد، أو جاذبة لإغواءات شيطانية. لم يمتلك أسرار تلك المعادلات، لكنه عرف أن لمسة هنا تجعل التأثير أقوى، ونقطة هناك، تُعَزِّزُ جمالًا لا يُقاوَم. وآمن أن الأرواح هي من نشكِّل ملامحَ الناس، أو تختبئ خلفها.

رأى «نوربا» الحياة مجرَّد جِسْرٍ نحو الخلود، وليس الخلود سوى صوره على واجهات التوابيت. تذكَّر ما قاله البعض عن معجزات رسومه: الأم التي سَجَّتْ ابنتها، وعندما بدأوا بدفنها، فاجأتها صورتها، وابتسمَتْ لها، حتى أنَّها صرختْ بهم أن يكفُّوا عن إهالة التراب على جثمانها؛ لأن ابنتها ما زالت حية. وما قاله رجلٌ دَفَنَ أخاه الذي أكل ميراثه، وقد رأى صورته تبكي دَمْعًا حقيقيًّا، أصابه بالذهول، وجعله يضع يده على الصورة، فوجد قطرات ماء تحت عينيه، تذوَّقها على طرف لسانه، وتأكَّد من ملوحتها. وذلك الرجل الذي سالتْ الدماء من بين شفَتَيْ صورته، فعرف الناس أنه قاتل صديقه. تذكَّر كل ذلك، وشعر بأنه يقوم بشيء مهمٌّ في هذا العالم، وأن صوره صادقة إلى حد أنها تعترف عن أصحابها، فتنقذ

t.me/qurssan

أرواحهم، ولولا أنه مضطرٌ لأن يأخذ عليها أجرًا؛ لاعتبرها رساله حياته، ولاعتبر نفسه منقِذًا لمئات البشر، وليس لشخص واحد.

حلم نوربا بأنه امتلك مقبرة كتلك التي لصديقه، فراح يرسم جَدَّهُ هارِبًا من جُبَاةِ المعبد الشرقي. كانوا يفرضون ضريبة «حق الحياة» على من احتفظوا بدينهم القديم. إنها مقابل تَرْكِ الناس يعيشون؛ لأن التَّاسوع قد خلقوا الهواء والنار والماء والطعام لأتباعهم، أما الآخرون فيستأجرون الحياة من المعبد، وعليهم أن يدفعوا مقابلها. ولمَّا تمادى الكهنة في زيادة الضريبة، هرب الناس من بيوتهم وبلداتهم، فراح الكهنة يكوون جلودهم بعلامات وأرقام، لِتَتَبُّعِهِمْ. وفي النهاية عجز الجميع عن الدَّفْعِ. واضطر الجَدُّ لأن يتظاهر باعتناق ديانة المعبد الشرقي. وقد سمع «نوربا» والده ذات يوم يبكي في غرفته، ويقول لأمِّه إنه عمل كل ما وسعه ليبقى مُخْلِصًا لآلهته، ولكن الآلهة تركتهم يعانون، ولم تساعدهم. ولذلك فإنه سيجعل أبناءه ينشأون على الدين الجديد غير آسف، وتساءل: لماذا علينا نحن الضعفاء دائمًا أن نعاني، وندافع عن آلهة تَدَّعِي قدرات مطلقة؟

أراد «نوربا» أن يخصِّص جدارًا كاملًا لمعاناة أهله الذين اضطُرُّوا لترك دينهم. وفكَّر أن يجعل جدارًا لإخفاقاته وسذاجاته، وجدارًا لزوجته «نوهرا» وابنته «أبيلتا»، وجدارًا للأماكن والبلاد التي

t.me/qurssan

ارتحل فيها. فكّر أن يعيد رسم الوجوه التي سجّاها على ألواحه الخشبية، وأن يجعلهم على سقف مقبرته، يحملقون نحو تابوته، وشعر بأنهم سَيُؤْنِسُونَ وحدته. أفاق من جديد متذكّرًا حلمه الأخير، والذي أنذره بقرب رحيله. وعلم أنه ربّما لن تكون لديه الفرصة لنحت مقبرة، ورسم حياته على جدرانها. لقد ساعد صديقَه ليحظى بهذه الجبّانة الرائعة، ولكنه يعجز عن منح نفسه واحدة، تمامًا كما منح أرواحَ مئات الموتى الذين رسمهم الخلودَ، وها هو سيموت دون حتى أن يجد مَنْ يرسُمُه.

نظر «نوربا» إلى الرسوم من حوله، والتي تفنّن في جَعْلِها تُجَسِّدُ حياة «أوديشو»، لكنه رأى وجهه بدلًا من وجه صديقه، وشاهد حكايته هو، وقد تلاشت سيرة صاحبه. شعر بشهوةٍ آسِرَةٍ، وتدفّقت في داخله نشوة، لم يعرف مثيلًا لها، وبتلك القوة، واعدة إيّاه بتعويض كل الخيبات والإخفاقات والخسائر التي مُنِيَ بها في حياته. كانت أقوى حتى من رغبته في أن يجد ذلك الشخصَ الذي سينقذه. لقد عاش طويلًا، ولم يجده، وهو الذي أراد أن يعطِي الحياةَ، وهي التي أبَتْ، وقد رأى ذلك مُوجِعًا ومُهينًا. تملّكَتْهُ رغبةٌ عارِمةٌ في امتلاك مقبرة، ليخلُدَ حياته على جدرانها. وصار منتشيًا حتى أنه لم ينتبه، وهو يتمادى في خياله. راودته فكرةٌ شيطانية بأن يُحَوِّرَ الصور التي رسمها لـ«أوديشو»، لتحكي قصته هو، وأن

t.me/qurssan

يضيف وجهه بدلًا من وجه صاحبه، ويضع وجه «أبليتا» مكان وجه «أورنينا»، ووجه «نوهرا» فوق وجه «إميلدا». قال لنفسه إن صديقه لن يتنبه؛ لأنه بالكاد يرى مساحات لونية غائِمَة. اكتملت المقبرة بشكلها الجديد في خياله، لكنَّه أفاق فجأة، واستنكر الخاطر اللعين.

شعر «نوربا» بِغُصَّةٍ في حلقه. قاوم بصعوبة، لكن عاودته شهوته من جديد. كانت أقوى، وصار يتعذَّب، وهو يحاول إخمادَها. فكَّر أنه يمكن ألَّا يُغَيِّرَ الملامح والأحداث تمامًا، بل يجعلها خليطًا بين حياته وحياة صديقه، لتعبِّر عن كليهما. لقد تشاركا الحياة، وأوجاعها، فلماذا لا يتشاركان المقبرة وحياة الخلود؟ رأى هذا حقه، قائلًا لنفسه أنه ما زال صديقًا وفيًّا؛ فهو لم يَشْتَهِ بيتَ صديقه أو امرأته. كان مستعدًّا حتى لأن يمنحه آخر لُقْمَةٍ معه، لكنه ضَعُفَ أمام تلك الفرصة الأخيرة للخلود، للوجود الحقيقي كما يراه، وهو الذي رأى اقتراب رحيله، وحيث لا فرصة أخرى لديه.

كان على «نوربا» أن يشعر بالأسى، لتلك الرغبات، التي تتعارض مع كل ما فعله، أو آمن به في حياته، ولكنه وجد نفسه متحمِّسًا لشيء ما، ودبَّتْ فيه طاقة جديدة واستثنائية، طاقة شخص يعلم أنه على وشك الرحيل، وليس أمامه الكثير من الوقت. أنهى رسم وجه «بريثا». ووجد أنها تبتسم للعالَمِ بسخرية، وهو ما لا يليق

t.me/qurssan

بصورة يفترض أن تستعطف الآلهة. اجتهد أن يعطيها تلك النظرة الحالمة والمستسلمة، والتي تتطلّع إلى الأبدية، لكن الملامح صارت لامرأة أخرى. حاول مرّاتٍ، وشعر بالإنهاك، لكنه قاوم النعاس، وظلّ عاكِفًا حتى أتَمّ الصورة. كان ينقصها بعض لمسات، سيضعها في بيتها. لم يرد أن يعرِّيَها، ويتأمّل جسدها، كما يفعل. لقد رآها عاريةً من قبل يومًا كامِلًا، ما زال يذكره. ولو أنه استخلص روحها من ذكرى ذلك اليوم؛ لرسم وجهًا ينظر بإغواء وتحدٍّ لقدرات الآلهة. نظر إلى صديقه فوجده ما زال نائمًا. أخذ الصورة، وخرج من المقبرة. كانت الشمس على وشك الشروق. صعد إلى كوخه ونام.

عندما استيقظ «نوربا»، فكّر بأن عليه أن يبدأ برسم وجهه. شعر بحيرة حول أي الأخشاب سيختار. لم تكن المهمّة سهلةً. بدا كأنه لا يعرف نفسه. لم يكن قادرًا على التفرقة بين ما يحب، وما يليق به. إنه في هذا كمعظم الناس. كانت الشمس تغرب خلف بيته، وتمس المقابر أسفل الربوة بضوء أصفر، بعث حياة بطعم الموت في رسومها البدائية. انتظر حتى حلّ الظلام، وهبط إلى حيث مقبرة صديقه. كانت ملامح «أوديشو» أكثرَ جِدّيَّةً من ذي قبل. وبدا متوحِّدًا مع نفسه، كأنّ قوًى عُلْيَا قد تلبَّسَتْهُ. جلس «نوربا» مستعدًّا للكتابة، وراح «أوديشو» يملي عليه الجزءَ الثالث من رسالته.

t.me/qurssan

أورنينا الحبيبة

صِرْتُ شيخًا فرُحْتُ أقول للناس: هذه آلامكم، من يشفيها لكم؟ إني وجدت التمائم تعجز، وسأخبركم عن الدواء. وجئتُ أقول: هذه ذنوبكم، لا تستغفروا عنها، اغفروها لأنفسكم، وازرعوا جَنَّتَكُمْ، واهنأوا بثمارها، وادعوا الطير يدلُّ الطيِّبين عنها، فيأتون ليعملوا كي تصير الحديقة غابة، وتغدو الغابة كوكبًا. وقلتُ لهم عن الحب والنساء ما لو قيل في معبد؛ لتصدَّع ممَّا سَمِع.

هِمْتُ على وجهي سنين أُلَقِّي حِكْمَتِي، وأهذي محمومًا بالنفحات، وأقول: ليست هذه رسالة من إله؛ لأني طُفْتُ المعابد، فوجدت الآلهة دُمًى بَكْمَاءَ، يستنطِقُها الكُهَّانُ بأروع الأكاذيب وأحطِّها؛ لذلك لا تجعلوا حِكْمَتِي مُبَجَّلَةً كهُرَاءِ الكَهَنَةِ، بل دعوها تسيل شِعْرًا من شراييني، مُشْرَعًا على أَسِنَّةِ الغوغاء. وربَّتُوا عليها، جرحَ لون يَنْفَصِدُ من ريشة الرسَّام كونًا من خراب. وأنصتوا لها، نغمةً تلعنها الموسيقى، ممسوسة بسحر أسود، يُرْعِبُ الآلهةَ. إنَّ السِّرَّ الذي عجن الوجود بالقسوة والبكاء، وبالشَّرِّ النادم، يلعق أقدام الخير اللاهي، هو من أرسلني لكم. وهو لا يدري بموعدي، ولا رآني إلا كَعَارٍ مُعَطِّرٍ، يُلَطِّخُ أَسِنَّ مُسْتَنْقَعِهِ.

كنتُ أقف عند بحيرة راكِدَةٍ، ضَحل ماؤها، فظهرت منه أكوام، كأنَّها مُسْتَعْمَرَةٌ مِنْ نُهُودٍ. وعلى الشاطئ الرَّطِبِ استلقتْ هياكلُ

t.me/qurssan

قوارب، بَدَتْ كأقفاص صُدُورِ بهائِمَ نافِقَةٍ. وفي المياه الضحلة، كانت تنغرس واقفةً قواربُ صغيرةٌ شاحبةُ اللَّوْنِ متآكِلَةٌ. وضعوها كشواهِدَ بلا قبور، لمن ابتلعهم البحر، أو سحبهم الشلّال، أو أكلتهم التماسيح. كانت كأنّها تطفو على أسِنَّتِها. وفي الوحل انغرست أحذيةُ جُنُودٍ، نبَتَ من بعضها عُشْبٌ مُزْهِرٌ، فأكملت صورة مقبرة مائية. كنت أسير بين الناس، وهم يتشاغلون بمضغ نبات يُخَدِّرُهُمْ، ويبصقونه على الأرض مُنْتَشِينَ. رُحْتُ أصرخ فيهم:

- لماذا تحتقرون عقولَكم، ألا يكفيكم ما يصنعه رجال المعبد بكم؟

وكانوا يبتسمون، بعيونٍ تقول:

- ما حاجتُنا لعقولنا، وكل شيء محكوم بغايات الإله الأكبر، ومصائرنا محفورة على ناووسه كطلاسم، لا يعلم سرّها سواه.

صاروا يبصقون نحوي، وفجأة عَمَّ صمت، وهم ينظرون صوب الميدان لرجل جاء من أقصى المدينة يجري، وقد أَغْمَدَ مُدْيَةً في جَنْبِ شَخْصٍ، كان يقف مُرَكَّزًا بصره صوب واحد من تلك النهود الكبيرة في الماء. لم يلتَفِتْ الرجل، بل استسلم تمامًا للطَّعْنَةِ، كأنّما كان ينتظرها، بفارغ صبر. وسقط في موضعه، كفَنَارٍ قديم متهالك، تشوَّق زلزالًا، يريحه من عناء السنين. كان القاتل يهذي بكلمات، فعرفنا أن الرجل الفنار، ضاجع زوجتَه دون إذنه، أمّا الناس، فظلُّوا

t.me/qurssan

جالسين في أماكنهم، وصاروا يمضغون ببطء، وكأنّهم على وشك التوقُّف. اقتربتُ من الرجل، وحاولت أن أجد فيه عِرْقًا ينبض، لكنه كان قد فارق. وجاء شابٌّ جميل الطلعة، يرتدي زيَّ طُلّاب الكَهَنُوت، وجلس إلى جواري، وبدأ يَتْلُو من «الإيلمار» في أذن القتيل، ثم راح يحدِّث روحَه أن تصعد في سلام. سألته:

- مع أي روح تتحدَّث؟ لقد أُغْمِدَتْ المُدْيَةَ في جسده فمات، وما في الأمر من روح.

نظر لي الشاب، وقد أنهى ترنيمته، وأغمض عينَيْ القتيل. وقال:

- الجسد بيت الروح، تفارقه إذا تهدَّم.

- إذن أخبرني أيها الابن الطيب، متى تدخل الروح إلى الجسد؟ ومتى كان الجنين ميِّتًا ليحتاج إلى روح تحييه؟ إنه حيٌّ منذ بذرته، وأنا كنت طبيبًا، وأعرف ذلك.

جاء من يحملون القتيل، فظلَّ القاتل يحملق فيه، وراح يودِّعه بأسًى، كأنّه يودِّع قطعةً منه، أما طالب الكهنوت فقد باغتني بقوله:

- أنا أعرفك، وأعرف أنك تنكر الروح، فمن أين يأتي الإنسان بفضيلته، والجسد دَنِسٌ، لا يعرف إلّا الشَّهَوات؟ ولولا ما بنا من أرواح سامية؛ لصرنا حيوانات بلا أخلاق.

صار الجميع يلتفتون تباعًا، وينظرون ببطء نحوي بعيون غائمة،

t.me/qurssan

يشمتون بما أقحمني به الشاب الطيب. لكنني رحت أجوس بينهم متأمِّلًا سِحَنَهُمْ، وألمسهم، وأهزُّهم، وأدفعهم بينما أشرح لهم:

- إن أجسادكم هي بيت الرغبات والفضائل، والرُّقِيُّ والانحطاط، ولا شيء سوى الجسد والعقل، يحكمان طبيعتكم. وهل تعتقدون حقًّا أن الحيوانات بلا أخلاق؟ لقد عشتُ في الغابة، وراقبتُ سِرْبَ النمل يسير منضبطًا، يرفعون الأحمال على ظهورهم، فيصعدون ويسقطون، ويعودون ليحملوها مرّاتٍ، دون أن يصنعوا من أنفسهم أساطيرَ. ورأيت القِرَدَةَ يصالحون متخاصِمَيْنِ، ويقبِّلون رأسَ المظلوم، فيهدِّئون من رَوْعِهِ. وشاهدت ذَكَرَ الحمام يجلس باكيًا جثَّةَ وليفته، حتى مات حزنًا عليها. ورأيت الخفافيش، تمنح بعض ما امتصَّته من دماء لأقرانها الجَوْعَى. ورأيت كلبًا قَضَى ما بَقِيَ من حياته إلى جوار قبر صاحبه، ووحوشًا تَحْنُو على أطفالها، وتطعمهم قبل أن تأكل. ورأيت الأفيال تخلِّصُ ظَبْيًا وقع في شرك، والغربان يرشدون نمرًا لموضع جثة، وينتظرون حتى مزّقها، فتركهم يأكلون معه. ورأيت رجل الأفاعي يضع لها الطعام، ويربِّت عليها، قائلًا إنها مثلنا تفترس لتعيش، وهي قد وجدت نفسها مسمومةَ الأسنان لِتُخَدِّرَ فريستها، في حين اخترنا نحن أن نذبح الأعناق قاطعين شريانَ الحياة، ونمعن لنقطع قصبة الهواء، ونصل إلى العظام، فنفصل الرأس، وكأنّنا نخشى أن يباغتنا الحيوان منتصبًا

t.me/qurssan

لينتقم منّا. وكان رجل الأفاعي، قد ربّى واحدة حتى كبرت، وراح يُعِدُّ مكانًا لبيضها، ويسهر عليها لتفقس. وفي يوم دهس طِفْلُه الصغيرُ ذيلها، فانتفضت دون قصد، وعضّتْ يدَ الأب، فسقط مَيِّتًا. ولمّا رأت الأفعى أنها قتلت صاحبها، كان أنْ اعْتَصَرَها النّدَمُ، فالتفّت حول جسدها خانقة نفسها حتى الموت. وإنْ مِنّا مَنْ يتورّطُ في طَعْنِ إنسان، ولا يجد الشجاعة ليعتذر، ويتحمّل مسؤوليّة أخطائه؛ لأن الغرور يتملّكه.

حكيت لهم كل ذلك عن الحيوانات؛ لأنني عشتُ في الغابة، وعرفت أننا كنّا هناك، وأن الطبيعة العمياء منحتنا من دَفْقِ فوضاها الثريّ كُلَّ الأشياء التي تصادف أنها نافعة أو ضارّة.

وعدت أصرخ فيهم:

- عليكم أن تفرحوا فقط لأنكم صرتم تكتبون الشِّعْرَ للحبيبات، بدلًا من اغتصابِهِنَّ، وأن تعزفوا لَهُنَّ الموسيقى، بدلًا من شرائِهِنَّ، وغدًا ستبهرونَهُنَّ بأفكاركم، بدلًا من سَبْيِهِنَّ. لقد رأيتكم تقمعون رغباتكم، محتقرين أجسادكم، ولم يجعلكم هذا فُضَلَاءَ، بل مَرْضى. إنّكم تحرّمون على أنفسكم العَزْفَ على قيثارة وجودكم، خشيةَ الضوضاء، ولكن ماذا لو تعلّمتم ترويضَ أوتارها؛ لتبدعوا أروع الألحان؟ لذلك أقول لكم: مَجِّدُوا حواسَّكُمْ، ودَعُوهَا تَصُبُّ في قلوبكم كُلَّ جميل، ولا تتوقّعوا خلودًا، ولا جزاءً، فأنتم جزاء

t.me/qurssan

أنفسكم، أنتم جَنَّتُكم وناركم.

كان القاتل ينتظر، حتى جاء الحرّاس وأخذوه. بدا ذاهلًا، في عينَيْهِ أسى المضطر، وعليه سَمْتُ ضَحِيَّةٍ مثيرة للشفقة. ورأيت هالةً من النور تحيط رأسه، وهو يمضي مُكَلَّلًا بالندم. وعاد طالب الكهنوت يسألني:

- ماذا تقول في اللص، يَهْنَأُ بما سرق، قائلًا لنفسه: أنا في احتياج، والأغنياء استأثروا بكل شيء؟ وعن القاتل يتلذّذ بِغَمْدِ نَصْله في أحشاء عدوّه، قائلًا إنه يستحق؟

- إنك فتى طيّبٌ وصادق، لكن انظر. لعلّك درست في المعبد قصّةَ الرجل الصالح الذي ارتكب أفعالًا بَدَتْ شَرًّا، واتضح أنه قصد بها الخير، وكان على حقٍّ. لقد فعل الرجل كل شيء حتى أنه قتل طفلًا، ومع ذلك وجد معبدًا، يحكي قصته كرجل صالح. والحكمة الوحيدة التي يمكن أن أخرج بها من تلك القصة، أن كل خير يبطن في أحشائه شَرًّا، وكل شَرٍّ قد يكون له وَجْهٌ خَيِّرٌ. وهذا ضمن الالتباس والفوضى التي هي مادة كل شيء. أما سارقك وقاتلك فضالّان، يستغلّان ذلك العَبَثَ. لكنني يا بُنَيَّ سأفشي لك أمرًا:

لقد عجزت أن أجد لقمة أضعها في فم جائع، دون أن يكون بها قَذَرٌ من سُمٍّ، وهي إذ تسدُّ رَمَقَهُ؛ فإن جائعًا آخر يتلوّى

t.me/qurssan

حاجة إليها، ويموت شاعرًا بالظلم؛ لأنه حرم منها. لقد عرفت أنا أيضًا رجلًا صالِحًا، وهب حياته كلها لفعل الخير. رأيته يخاطر بنفسه، فيقطف من ثمار الغابة، ويطعم الجَوْعَى. وفي ليلةٍ مات مَنْ أطعمهم؛ لأن صيَّادًا سَمَّمَ الثِّمَارَ ليقتل الفِيَلَةَ ويأخذ عاجها. تَعَقَّبَ الناسُ الرجلَ الصالح، فهرب، وهو يبكي على ما فعله دون قصد، وآوى إلى كهفٍ شاعرًا بالذنب حتى مرض. ولمَّا تعافى ذهب إلى قرية على أطراف غابة صغيرة. وجد أهلَها يعانون بَرْدَ الشتاء، فراح يقطع الأشجار، ويحملها للفقراء لِيُدْفِئُوا أطفالهم. ولما جاء الربيع، لم تجد الطيور أغصانًا لأعشاشها، وأكلت الجرذانُ بَيْضَها المُلْقَى بين العشب، فماتت الطيور دون أن تنجب. وراح الرجل يُرَبِّي قِطًّا ضعيفًا، فلما اشتدَّ، هَمَّ ليفترس فأرًا. أشفق الرجل على الفأر وأنقذه، فمات قِطُّه جوعًا. ولمَّا رأى أنه تسبَّب في كل هذه الشرور، وهو لم يُرِدْ إلَّا خَيْرًا، قَدَّمَ جسده لنمرة جائعة، لا تجد ما تطعم به صغارها، قائلًا: ليكن موتي عطاءً لكائن يريد أن يحيا. لكن الصياد الذي سَمَّمَ الثمار من قبل، رآها فأطلق عليها سَهْمًا قتلها، وصار أطفالها بلا أم، فقتلتهم الضِّباع. شعر الرجل الصالح بالأسى؛ لأنه لم يَتَدَنَّسْ وحده، ولكن ورَّط غيره في مزيد من الشرور. وهذه هي الحياة يا بُنَيَّ، وذلك دأبها وخليط فوضاها. ولست المذنب، فنحن جميعًا ضحايا، وأقصى ما نستطيعه، هو أن

t.me/qurssan

لضع أنفسنا مكان الجميع، وأن ننظر بحبٍّ للقاتل، ونحن نحتقر فِعْلَهُ، وبارتيابٍ للمقتول، ونحن نبكي عليه.

كنت أتحدَّث، والناس يفتحون أفواههم، وقد هبط أحد التُّجَّار من قاربه ومرَّ بنا، وقال:

- لا تستمعوا لهذا الرجل، فقد جُنَّ بعدما حدث لابنته وزوجته.

وهنا اندفع قطيع من الصبية، وألقوا الحجارة نحوي، فأدرت ظهري، ورحلت سعيدًا، لأنني ألقيت بذوري، رغم أن الأرض لم تكن مُهَيَّأةً. وكنت أقول لنفسي: إيَّاك أن تقول لقد فعلتُ ما أقدر عليه، إنك تقدر على ما هو أكثر.

في اليوم التالي عاد طالب الكهنوت يبحث عني، ووجدني أجلس متأمِّلًا عند شاطئ النهر أمام جزيرة يسكنها بسطاء. فجلس إلى جواري وقال:

إنني أتعجَّب لِكَهْلٍ مثلك، مكلومٍ في ابنته وزوجته، ألَّا يعتكف في المعبد، طالبًا الغفران والسلوى، وبدلًا من ذلك، تطوف الأسواق داعيًا الناس لاتِّباع رغباتهم، واستبدال تعاليم الآلهة بعقولهم. وأنت رجل فقدت كل شيء في الدنيا، وتريد أيضًا أن تفقد ما بعد الموت.

رحت أتأمَّل الفتى الذي كُنْتُهُ يومًا، فرأيت صورتي تبتسم في مرآة صباي. إنه في سنٍّ تسمح له بالصدق. ما أجمله إذ يُخْلِصُ

t.me/qurssan

لتعاليم معبده، معتقدًا أنها الحقيقة. وهو لم يتورَّط بعد في مصالح أو صفقات! نظرت فإذا بي أملك معاوِلَ تهدم قناعاته، لكن ليس عندي ما يجعل أفكاري تنهض كحقيقة ثابتة. ولست أقبل أن أكون مثل كاهن، يردِّد الهُرَاءَ طالِبًا من الناس تصديقه، بل كحكيم، يبذل عمره، خطوة على طريق بلا نهاية؛ لذلك طلبت منه أن يحدِّثني بما لديه.

حكى لي قصة جميلة، كم سمعتها عن الآلهة، وهي تبني العالم من دخان، حتى إذا اكتمل تربُّعُ كبيرهم على عرشه، ووزَّع عليهم المهامَّ، فراحوا يديرون الكون جاعلين كل شيء يحقِّق غاية الإله الأكبر في نظام بديع. أتَمَّ الفتى قصته، فأخذت يده، وصعدت دَغْلًا صغيرًا في الجوار، ونظرت، صوب الغابة البعيدة، وقلت له:

- انْظُرْ إلى تلك الغابة البعيدة. سأخبرك سرًّا. لقد عثرت هناك منذ شهور على شابٍّ لم يدخل معبدًا في حياته، ولم يستمع لكاهن. وطلبت منه أن يأخذ جولة ليتعرف على الآلهة وكهنتها. وقد عاد بالأمس بعد أن استمع لمئات من قصص الخلق شوَّشَتْ أفكاره. هل لديك ما يُقْنِعُهُ بأن قصة المعبد الشرقي بالذات هي الصواب؟

نظر لي الفتى حائرًا، فأخذت بيده، ونزلنا إلى حيث كنَّا نجلس، وأكملت:

- إنك فتى مخلص لا شكَّ، لكنك لو وُلِدْتَ ضمن أتباع المعبد

t.me/qurssan

الغربي؛ لكنت ستعتقد في قصتهم، وتخلص لها أيضًا. لكن الكون يا بُنَيَّ أكبر بكثير ممَّا تعتقد المعابد. وأنت إذ تقف على حافة العالم منبهرًا بألوانه البديعة المتناغمة، تظنُّ أن ريشةً أبدعتها، قاصدةً وَضْعَ اللون جنب اللون، وهي ليست سوى مناجم طيف، انفجرت ذات يوم في فوضًى عارمة، وإذا دقَّقْتَ، سترى تلقائية انهدارها المبهر. سِرْ في الغابة، وشَاهِدْ السَّيْلَ يهبط فوق التل، ويحفر لنفسه واديًا، يتلوَّى فيه كحيَّةٍ جائعة. ولا تَقُلْ إنَّ يدًا حفرته ليصل إلى هؤلاء القوم بالذات، فألف ماء عذب يمطر فوق البحار المالحة دون غاية، وألف قبيلة فَنَتْ، وهي ترتحل بحثًا عن نقطة ماء. وإذا رأيت بركانًا يقذف حِمَمَهُ، ويهلك قرية، فلا تَقُلْ: كان أهلها ظالمين. فألف بريء يهلك دون ذنب، وألف بركان يفور في خلاء، لا يدري به أحد. وإذا رأيت مريضًا يُشْفَى بعد دعاء أهله؛ فلا تَقُلْ إنهم صالحون، فألف امرأة مؤمنة لم يُسْمَعْ دعاؤها الباكي من أجل رضيعها، وكم ابن شقي عاش دون سِقَم! إنه يا بُنَيَّ تيَّار الفَوْضَى العارمة الذي يحوي كل نقيض، ولا شيء فيه يجري لغاية. لذلك فأنت تظلم العالم وتُعَرِّي آلهة المعبد، إذا وصفت الوجود في مسيره الأزليِّ بالخير أو الشر. إنه فقط يتدفَّق كحطام هائل. أما ما يبدو كأشياء وُضِعَتْ في أماكنها بقصد وعناية، فليست سوى الوفرة ما جعلتها تبدو كذلك.

t.me/qurssan

نظر لي الفتى متسائلًا، فنهضت، وأفرغت سلّتي، وملأتها بالحصى، وصنعت حفرة في الأرض. كان يراقبني مُنْدَهِشًا. قُلتُ له:

- تعال واحْمِلْ هذه السَّلَّةَ، وأغمضْ عينَيْكَ، وانثُرْ الحَصَى، وأنت تدور كمجذوب مترنِّحٍ أفرط في الشراب.

فعل الفتى مأخوذًا باللعبة، وسكب الحصى الذي انتثر في كل مكان، ثم فتح عينيه. سألته:

- كَمْ واحدةً سقطتْ في الحفرة؟

عدَّها فكانت ثمانيةً. قلت:

- إذن اكتبْ ترنيمةً تُمَجِّدُ بها حِكْمَةَ السَّلَّةِ، ودِقَّةَ تصويبها، ولكن لا تَنْسَ أن أغلب الحصى سقط خارجها.

هزَّ الفتى رأسه، وهو ينظر لي بابتسامة طفل مندهش. ثم وجدت وجهه قد تغيَّر فجأة، وجذبني من يدي، فانهضني، وهبط بي إلى النهر، ووضعني في قارب، وانطلق مسرعًا صوب الجزيرة. كنَّا على وشك الوصول عندما رأيت الحرس يقتربون من الشاطئ الذي كنَّا نجلس عنده. جاءوا، ليأخذوني، كي أُعَاقَبَ على هرطقتي. وكانوا يفعلون ذلك من وقت لآخر.

صعدنا إلى الجزيرة، فاكتشفت أن الفتى من سكَّانها. طلب من أقاربه أن يؤمِّنوا لنا مَهْرَبًا. كنت أتعجَّب، لماذا يفعل ذلك لأجلي، وهو الآن قد أصبح ملاحَقًا أيضًا. سرنا في الشوارع الضيِّقة

t.me/qurssan

والمنحنية، حتى وصلنا إلى الجهة الأخرى، وهناك كان قارب آخر بانتظارنا. أبحرنا بسرعة، صوب معبد قديم ومهجور من معابد أسلافنا. وصلنا عند الغروب، وكان الفتى مضطربًا. أوقدنا نارًا، وكنَّا على وشك أن نتحدث من جديد، لكن الحرس وصلوا إلى المعبد، وأخذونا. كان الفتى ينظر لي بعينين دامعتين، ويقول: سامحني.

مكثت بضعة أشهر وحيدًا، في غرفة السجن الضيقة. لم أجد من أحدِّثه، فصرت أكلِّم نفسي. وكنت أرفع صوتي، على أمل أن يسمعني جيران المحبس. ولكنني وجدت الحارس، يضع لي الطعام يومًا، فيربت على يدي، ويقول إنه يؤمن بي، ويُدَوِّنُ أقوالي. وأخبرني بأنهم تركوا الفتى الطيب دارس الكهنوت. وفي صباح يومٍ أخذوني من محبسي، وقذفوا بي إلى الطريق، فَعُدْتُ إلى السوق. كانت النسوة ينظرن لي مُشْفِقَاتٍ، ويَقُلْنَ:

- فَقَد عَقْلَهُ بعد أن قُتِلَتْ ابنته، وماتت زوجته.

وكنت أقول لنفسي، إنَّهُنَّ مجنونات، دون شكٍّ، أو لعلهن يَخْلِطْنَ بيني، وبين شخص آخر. وتذكَّرتُ صديقنا «نوربا» الرسام الذي فقد ابنته «أبيلتا»، وقلت ربما يَقْصِدْنَهُ. ومضيت أنشر أفكارًا أَنْضَجَهَا مَحْبِسِي.

أتاني راعي غنمٍ شابٌّ، كان يشتري من السوق هدايا لعروسه، وسألني:

t.me/qurssan

- هـل أنـت نبـيٌّ أتى بديـن جديـد؟ إننـي أحـبُّ الأنبيـاء، وأبحـث عـن ديـن يحبِّـذُ الحُـبَّ، ولا يهـين النسـاء، ولا يجعلنـا نعنِّـفُ أبناءَنـا.

رددتُ عليـه:

- ليـس لـديَّ معبـدٌ كي أقـول لكـم هنـا يبـدأ الطريـق، ولكننـي طُفْـتُ المعابـد، فوجدتهـا بوّابـاتٍ أكاذيـب مُزَخْرَفَـةً بالوعـود. لسـتُ نبيًـا، ولكـن بوسـعي أن أقـول لـك: كُـنْ مَعْبَـدَكَ، واجعـلْ كاهِنَـكَ الأكـبَرَ عقلَـك. إننـي إنسـان مثلـك، لكننـي اعْتُـصِرْتُ ألمًـا، فانفتحـت في عَتَمَـةِ نفـسي كُـوَّةُ نـور. ولسـت أزعـم أننـي أملـك الحقيقـة كإلـه، فأقـصى مـا نسـتطيعه كبـشر أن نكـون صادقـين. تشـمَّمْ أيهـا الراعـي الطيِّـب تعاليـم الكهنـة، وسـتجد رائحـة الإنسـان تفـوح منهـا، لا الآلهـة، بـل أن الآلهـة نفسـها تفـوح مـن بـين أفخاذهـا رائحـةُ البـشر. إنهـا تغضـب مثلنـا فَتُجَـنُّ، وتُـسَرُّ فتسـكر بالنشـوة، وتتمنَّـى فيخيـب رجاؤهـا. إنهـا تنتقـم حاقـدةً لأسـباب تافهـة وأنانيـة، وتتعـالى مقارِنَـةً نفسـها بالرعـاع، وتأمـر بقتـل مـن تزعـم أنهـم أبناؤهـا، وتناقـض نفسـها قسـوةً برحمـة، وسـماحًا بتنكيـل، ولا نراهـا قـادرةً عـلى ضبـط الفـوضى التـي تـضرب كل شيء. وهـي مُعْـوِزَةٌ، تحتـاج دائمًـا لمـن يدفـع المـال لرجالهـا، ومـن يعطـي الفقـراء نيابـة عنهـا، ومـن يخـوض الحـروب لأجلهـا. وهـي تزعـم أنهـا تطلـب ذلـك لتختبرنـا، بينـما نحـن مَـنْ اختبرناهـا طويـلًا، ووجدناهـا تفشـل بـدأب. انظـر كـم سـقطت آلهـة عـبر التاريـخ، وإن

t.me/qurssan

انخدع الناس فيها لآلاف السنين، وكن متيقِّنًا أن هذه ستسقط أيضًا. إنك تبحث عن نبيٍّ يأمرك بالحب، وهل باستطاعتنا أن نحب بالأمر؟

كنت أشعر بالتعب؛ لأنني قضيت الليل أعوي، قلت لنفسي:

- إنك لكي تنقِّي حكمتك، تحتاج إلى عزلة طويلة، لكن العزلة تحرمك الآخرين الذين هم مرايا أفكارك، فماذا تفعل وتعدُّدُ المرايا يُشَوِّشُكَ، وواحدة لا تكفي لتحيط بذاتك؟

كنت أنام ساعة، وأنهض لأقف أمام باب المعبد الكبير، أراقب الذاهبين للصلاة، وأنتظر حتى يتجمَّعوا، ثم أبدأ الصياح، لأشوِّش صلواتهم، وأُسْمِعَهُمْ ما يُقْلِقُهُمْ:

- أيُّها الفاضلون، إن صلواتكم وَبَالٌ علينا؛ لأنكم تأتون المعبد، فتفرِّغون نفاياتكم، ثم تخرجون لتملأوا العالم بِرَذَائِلِكُمْ من جديد. أيها المرتعشون المتمتمون، إن هيأتكم تُضْحِكُني، وأنتم تحاولون السير على حدِّ السيف، حيث تعجز الآلهة نفسها أن تفعل. لقد صرتم مُسُوخًا، فهل يمكن لإله حقيقيٍّ أن يحب مسخًا؟

كنت أنهي موعظتي، وأعود للنوم، ثم أستيقظ في المساء؛ لأطَّلِعَ على شؤون المَوْتَى المنشغلين داخل القبور.

واستيقظتُ ذات ليلة باردة، تَسَاقَطَ فيها الصقيعُ، فخلعت كامل ملابسي، وصِرْتُ أصرخ في الطرقات لتخترق كلماتي الآذان:

t.me/qurssan

- يا أيّتها المُسوخُ المُخَنَّثَةُ المتعالية، مُدَّعِيَةَ كُلَّ شيء، لستِ سوى أصنامِ الأرواح المُهْتَرِئَةِ والعقول المُشَوَّشَةِ، لستِ سوى أكاذيبِ طِفْلٍ، يا حَسْرَةً على رجال يُقْتَلُونَ في سبيلها. لستِ سوى حُلْمٍ ساذَجٍ بَطُلَ زمانُه، وصار كابوسًا. سُحْقًا لِمَنْ صنعوك.

وكنت أواصل السَّيْرَ عاريًا، فألمح الموت يركب عربته، تتقافز على أحجار الطريق، يحمل نصلًا لامِعًا، يخطف الأبصار عن رأسه العارية من اللحم، وجوارحه المجوّفة، وخلفه جوقةٌ من موتى تحلّلوا يغنّون:

- نحن الحياة الحقيقية، فانضمّوا لنا لنصنع الفناء الجميل، ونعيش مع الآلهة إلى الأبد.

- يا مَنْ تعيشون للموت، لماذا تبخلون على ديدان الأرض بأجسامكم، وقد صارت جثثًا كريهة الرائحة، تمشي بيننا مثيرةً للغثيان. إنني أتقيّأ رياءكم إذ تتمتمون: بعد الموت حياة أفضل، بعد الموت نساء أفضل. بينما تفوح منكم روائحُ ما تَعَفَّنَ من شهواتكم الجائعة. إنكم تدّعون التعفُّفَ، بينما تُرَبُّون شَائِهَةَ الحيّات في أحشائكم، فإذا بها تخرج يومًا رغمًا عنكم، فتلتهم أقرب محارمكم. إنكم ترون قسوة سِحَنِكُمْ دليلَ فضيلتكم، وما هي إلا مسوخ نفوسكم، وقد توحّشتْ من الحرمان. انْظُرُوا في المرايا سترون عيونكم الآثمة مذعورةً، مُبْتَذَلَةً، حاقِدَةً على كل العيون التي ترى وضاعتها.

t.me/qurssan

وكان أن فاجأني كاهن ومعه جوقته، وأشار نحوي، فانهالت الحجارة على جسدي.

سِرْتُ وحدي في الخلاء، فأصابتني قشعريرة مرض. دفنت جسدي في الرمال الساخنة عند أول الصحراء، ونِمْتُ، لا أعلم كَمْ يومًا قضيتُ. صِرْتُ أُدفع في سراديب ذاكرتي، حتى عدْتُ طفلًا بلا سروال في حِجْرِ أُمّي، مُحَاطًا بأربعة رؤوس مائلة، ثم رأيتني صبيًّا، أسير على أطراف أصابعي، مُتَلَصِّصًا على غرف شقيقاتي العذراوات، وناظرًا من ثقوب أبوابهن الموصدة. كنت أَهْتِكُ أسرارَهُنَّ قربانًا لوداع طفولتي، فرأيت ما لا يجب أن أرى، وسمعت ما لا يجب أن أسمع، وأنا أختنق بالسؤال: لماذا هناك أسرار؟ لماذا ليس العالم شفّافًا؟ ألسنا جميعًا نفعل الأشياءَ نفسها؟ ثم صرتُ أحوم حول السر القابع في الغرفة المغلقة.

لم يكن للغرفة نافذة، فرحت أبحث عن «القليذو» لأفتحَ بابها. وجدت ثلاثة، جرّبتها فلم تُؤَدِّ الغرض. نقّبْتُ في غرفة أُمّي. فتحتُ صناديقها، وعُلَبَهَا، وقَلّبْتُ وسائِدَها. وفي الباحة الخارجية، لم أَتْرُكْ شيئًا إلا فتّشْتُهُ. عُدْتُ لحجرات أخواتي مُخَاطِرًا. أوشكتْ الوُسْطَى أن تضبطني. سقطتُ، وأنا أهرب من نافذة الكبرى. نبشت أُصُصَ الزرع في الحديقة الأمامية. أدخلت يدي في بيوت الدجاج، بالحديقة الخلفية، مُحْتَمِلًا عَضَّ الأوزّات. بحثت بين غاب

t.me/qurssan

السقيفة، وفي العتبات، ولم أترك مكانًا. كنت أعود مُتْعَبًا، وأفكّر: ماذا عساه يكون في تلك الغرفة اللعينة؟ تملّكني الجنون، ففكّرت في كسر الباب لأكتشف الحقيقة، لكنني جبنت. أعدت البحث مرات، ولم أصل لشيء. شهور أصابني بعدها يأسٌ تام، فقرّرت التوقف نهائيًا، شاعرًا بالعار. إنني لم أجرؤ على مجرّد السؤال عمّا في الغرفة؛ فهل أستحق دخولها؟

مرت شهور، واستيقظت ذات مساء، فوجدت نفسي أسير نحو الدهليز، وأنعطف معه يمينًا، حيث الحجرات الأربعة. رحت أتشمّم عند باب الغرفة المغلقة، فشممت ما يشبه روائحَ غرف الخزين في البيوت الفقيرة. وشممت رائحة جذور أشجار رطبة. وشممت طين مستنقع ينبت فيه الغاب، وما يشبه رائحة الباحة الخلفية للمعبد، وهي خالية من رؤوس الذبائح. وشممت رائحة الأرض الرطبة تحت مقابر العمال، وروائح بهارات خافتة وقديمة. سمعت صوت شيء يُجَرُّ على أرضية غرفة شقيقتي الصُّغرى. تركت تلك الروائح التي زادت حيرتي، واقتربت من مصدر الصوت. نظرت من ثقب الباب، فرأيتها تقف على صندوق، وتخرج شيئًا، كانت تخبّئُه خلف صورة محاربها الوسيم. لم يكن ما أبحث عنه، لكن شيئًا هتف داخلي أنني قد وجدته. إنه بالفعل أنسب مكان، يمكن أن يُخَبَّأ فيه ذلك «القليذو». تحيّنتُ الفرصة، وكما توقّعتُ،

t.me/qurssan

وجـدت واحـدًا ملفوفًـا بقطعـة قـماش، خلـف صـورة أبي. أخذتـه وخبّأتـه، وانتظـرت حتـى يـوم الوفـاء للشـهيد. خرجـت متظاهـرًا بالاحتفـال، وخَرَجْـنَ جميعًـا لأداء الطقـوس، فعـدتُ، وفتحـت الغرفـة، ودخلـت.

كانـت الحجـرة شـبه مظلمـة، فوقفـت قليـلًا حتـى بـدأتْ تَتَّضِـحُ معالمُهـا. بَـدَتْ مُتْرِبَـةً بصـورة لا مثيـل لهـا. رأيـت كأنَّ فراشًـا مبنيًـا في منتصفهـا، ولـه أعمـدة خشـبية، وقـد سـيَّجَتْهُ العناكـبُ بأعشاشـها. اقتربـت مأخـوذًا، فـإذا هـو ليـس فراشًـا. كان مُفَرَّغًـا عـلى الأرجـح. نظـرت في داخلـه، وقـد اعتـادت عينـاي الضـوء الخافـت، فوجـدت مـا يشـبه التابـوت المفتـوح. دقَّقْـتُ فشـاهدت مـا جعـل مفاصـلي ترتعـد، وكـدت أغيـب عـن الوعـي. تماسـكتُ، وأنـا أنظـر إلى وجـه العجـوز الناحلـة، مغمضـة العينـين، ضئيلـة الجسـد بصـورة لا تُصَدَّقُ. كأنَّ رأس عجـوز ثُبِّـتَ بجسـد طفلـة مُسَـجَّاةٍ وسـط زهـور جافـة وأغصـان. ورأيـت يدهـا نحيلـة سـوداء كأنَّهـا رجـل طائـر. كانـت صـورة لوجههـا موضوعـة إلى جانـب رأسـها، وتفـوح مـن التابـوت روائـح مِلْحٍ حـادَّةٍ وقطـران وأعشـاب، تختلـط بروائـح الغبـار والموت والرطوبـة الناشـعة مـن الجـدران.

بـين الفضـول والدهشـة والرعـب، وقفـت أمـام الجثـمان، غـير مُصَـدِّقٍ أن في بيتنـا قـبرًا، ظـلَّ مُخَبَّـأً طـوال تلـك السـنوات خلـف البـاب المغلـق.

t.me/qurssan

تساءلت عن تلك السيدة المُسَجَّاةِ، ذات الشعر الأبيض والوجه والجسد الضامِرَيْن. هل هي من العائلة؟ لعلّها جَدَّتي؟ أتكون أُمًّا لوالدتي أَمْ لأبي؟ أَمْ تُراها سيدة كانت تعمل بالبيت ورحلت؟ ولكن لماذا لم تُدْفَنْ في المقابر كباقي الناس؟ هل قُتِلَتْ، وخافوا أن تلصق التهمة بهم؟ لو كان الأمر كذلك، لألقوا جثّتها في النهر، أو دفنوها في مكان ما. وبينما أنا أفكر، وقعت عيني على صورة للسيدة العجوز نفسها معلّقة على الجدار المقابل. لم تكن وحدها، كان معها أبي المحارب، كما يظهر في صورته المعلّقة في غرفة أُمّي، وقد وضع يده على كتفها في حنان، وهو يبتسم ابتسامة مُفْعَمَةً بالقوة. كانت الصورة تبدو مرسومة بريشة الفنان نفسه الذي رسم صورة أبي منفردًا. هذه على الأرجح أمه، لكن لماذا دُفِنَتْ في البيت؟ هل فعل ذلك قبل أن يسافر للحرب، أم دفنتها أُمّي بعدما سافر؟

لم أجد إجابة عن أسئلتي وقتها. ولمحتُ فجأة على الجانب الآخر من الغرفة مجموعة توابيت صغيرة فوق بعضها، لم أتبيَّنْ ما بداخلها، فشعرت برعب مضاعَفٍ، وعُدْتُ بظهري عازِمًا على الخروج من هذا الكابوس، وإغلاق الباب، وإعادة «القليذو» إلى مكانه، ونسيان الأمر إلى الأبد، لكن وأنا أعود، أحسست بأن الوقت لا يمر، وشعرت بأن ساقَيَّ ثقيلتان، وبأنني أحتاج إلى ألف سنة كي أخرج من تلك الغرفة. رفعت قدمي بصعوبة، وعدت ببطء،

t.me/qurssan

وكأنني سمعت خطوات خلفي. وقلت لعله صوت أقدامي. وقبل أن أجرؤ على الالتفات، اصطدمت بجسد كان يقف ورائي، ففقدت الوعي، وسقطت.

هل كان ذلك هو اليوم الذي تعرفت فيه على الموت؟ وهل الموت ضريح وتابوت وجثة منسية في غرفة مظلمة؟ ماذا عن سكون بيتنا الأزليّ وصَمْتِهِ؟ وعن جلسة شقيقاتي مائلات الرؤوس حول أُمّي، ينظرن للذَّكَرِ الصغير، كشاهد على قبور كل الذكور الذين عبروا، والذين رحلوا، والذين خانوا، والذين لم يجيئوا؟ ماذا عن الأبواب المُغْلَقَةِ كل مساء، بالكاد تنفلت من خلف أحدها آهة مكتومة، أو شهقة مُبْتَسَرَةٌ؟ ماذا عن استحالة البوح، ووَأْدِ الأسئلة، وصور المحاربين الراحلين في مَخَادِعِ العذراوات؟

غِبْتُ عن الوعي يومَها، لكن عندما استيقظت، وجدتني في فراشي كالمعتاد، وكل شيء بدا طبيعيًّا، وكأنني فقط استيقظت من حلم، لولا شعوري بالألم في جسدي من أثر السقوط. وتفحَّصْتُ باب الغرفة، فرأيت كأنَّ شيئًا ما تغيَّر. وفي الصباح جلست على مائدة الإفطار، متحاشيًا النظر لأحد. حاولت أن أتذكَّر شيئًا يدلني، بمن اصطدمتُ في الغرفة، ولم أجد. تُرِكْتُ أتعذَّب بظنوني، فطغت حيرتي على الأسئلة الأهم، حول قصة دفن هذه السيدة في بيتنا.

هكذا ذهبت ذاكرتي المحمومة إلى تلك الأيام البعيدة والحزينة،

t.me/qurssan

وكنت ما زلت مدفونًا في الرمال. وشعرت كأنني انفتحت عيناي، وأغمضتا من جديد، فرأيت مرايا عملاقة متقابلة، تعكس الكون، فتنسخ صورته آلاف المرات، جاعلة الأجرام تتخبّط في كل الاتجاهات. وانفتحت بوابات على أكوان، لا مادة فيها ولا ضوء، معلّقٌ بها شخوص بلا أجساد، ولا أرواح، لكن كلًا منهم يَمُتُّ بِصِلَةٍ لواحد من عالم ما. ورحت أغلق الباب وسط عاصفة تقاومني، نَهِمَةٍ كَلَهَبٍ، شَرِهَةٍ كصقيع. يبتلع ظلامها كل ضوء كان.

ورأيت أزمانًا تعود، لكن من مسار غير الذي ذهبت منه، وأشباحًا تصرخ موبُخَةً: لا شيء يعود كما كان، فمسارات الفوضى لا تسمح لخطٍّ أن يتكرر، أو يعود على أعقابه لينمحي، وما كان كان. عودوا! فعودتكم ذهاب، وحيث ترتدُّون تبدأون. ورأيت أصل الوجود ينهار على نفسه، فتتحرَّر منه أشباح ماضيه، وتسقط مُرَوَّعَةً. ورأيت جُثَّةً ضخمة تسقط، يَنِزُّ منها نَبْتُ حياة معادية الجسد الذي نبتت منه.

ودخلت برزخًا كُلّما تقدَّمْتُ فيه انثنى من داخله إلى داخله، وانقلب على نفسه، فواصلتُ الولوجَ دون أمل، وكلما توهَّمت الاقترابَ استطال؛ لأنه برزخ كانت له بداية، وقد ضاعت، ولم تكن له من الأصل نهاية، وهو لا يسمح بالعودة. ورأيت أشكالًا تقول لي: نحن حروف. وكنت أَلِجُ داخلها؛ لأعالج معانيها بجسدي

t.me/qurssan

المرهـق، لكنهـا تـأبى، وكلـما أنجـزت، عـادت فتقلّصَـتْ عـليَّ كأفَـاعٍ عملاقـة. ورأيـت عَدمًـا أسْـوَدَ يَنْهَمِـرُ، فتتشرّبـه الأشـياء بِنَهَـمٍ، ورأيـت فيـه شريانًـا يتدفّـق منـه الكـون، كوجـود هَـشٍّ.

ورأيـت الأكاذيـب تلهـو وتمـرح واثقـة مـن نفسـها، وتقفـز منتشـية بتحقُّقِهـا، وكل كلمـة باطلـة، كانـت تتأبَّـط خيـالًا سـاذجًا، وتسـير هـازّةً أردافهـا بِتَهَتُّـكٍ، بينـما تمـرُّ الحقائـق إلى جوارهـا ذليلـةً متواريـة منسـحقة، ونادمـة عـلى مـا كان مـن صَلَفِهـا. وكانـت تتخبَّـط، فتصطدم بكـرات عاكسـة، تجعلهـا تنهـار تِبَاعًـا شـاعرة بالخـلاص.

ورأيـت أُنَاسًـا يولـدون شـيوخًا، تُجَلِّلُهـم الحِكْمَـةُ والعجـز، يمسـكون مجاديـفَ بالـكاد تلامـس السَّـديمَ. وكلّـما تقدّمـوا يصغـرون، ويجدّفـون أسرع، حتـى إذا صـاروا أطفـالًا، قفـزوا، وسَـبَحُوا بأيديهـم، ثـم بذيولهـم.

ورأيـت الأنوثـة نَبْعًـا خاويًـا في ضفـة لؤلـؤ، بـلا أوجـاع ولا حبـل، لا تَعِـدُ بـشيء، لكنهـا تنظـر بشـفقة وتفهُّـم لـكل مـا يمـر بهـا. وتكتـم أسـاها، وهـي تسـتمع لـصراخ مـن أعـماق الكـون عـن الفـوضى التـي تلطّخـت فيهـا مادّتُهـا واسـمها. ورأيتهـا مكتفيـة مشـبعة مـن ذاتهـا، تُشِـعُّ رغـم ذلـك رغبـة عارمـة، تجـد ارتواءهـا مـن اشـتعالها، وتـأبى الاقـتران، فتشـبع ذاتهـا، وتحبـل منهـا، وتجهـض نفسـها، ولكنهـا تتوالـد رغـم ذلـك، وتفنـي ولدهـا فيهـا. ورأيـت نفـسي أَمُـرُّ بنفـسي جالسًـا، ولم الحـق أن أتأمّلَنِـي؛ لِسُرْعَتِـي. وعـبرت قـوارب يحمـل أحدهـا رُفَاتِي،

t.me/qurssan

وتحمل الأخرى نَزَوَاتٍ، تصدر طنينًا تحت غطائها الشفّاف.

ورأيت أنهار خمر تمتزج بأنهار دم، يجلس عليها شياطينُ بِلِحًى وقرون، يغسلون خُصَاهُمْ بِتَلَذُّذٍ في مائها الْلزِج. وعلى الضفة المقابلة، نسوة مُدَّثِرَاتٌ بالسواد، ينثنين ليلعقن أعضاءَهُنَّ فتتقيَّح. ورأيت أسفلهن كهوفًا رطبة، تقذف بشرًا مرعوبين، وثعابين تلتهم بعضها.

استيقظت فجأة، واهِنَ الجسد مضطرب النفس. وصرت أبحث عن شيء آكله، فطرقْتُ بيوت المدينة، ولم أجد من يطعمني.

سرت في الطرقات، أتأمّل الناس في «أورنارا» بلاد النهر، وأتحسّر على ما كانوا، وما أصبحوا. لقد صاروا بِحَقٍّ مُتَدَيِّنِينَ، يذهبون إلى المعبد، ويقدّمون القرابين للآلهة، ويحفظون «الإيلمار»، ويردّدون صلوات التّاسوع، ويتسابقون في الصوم حتى الموت، ويحجُّون بالآلاف إلى بحيرة الآلهة، ولكنهم صاروا بلا أخلاق. وصلتُ إلى السوق، فأخذت أصرخ من جديد:

- لقد قسوتم على أنفسكم لإرضاء أصنامكم، لكنكم تسرقون وتكذبون وتظلمون، وذهبت السَّكِينَةُ من قلوبكم، وحلّتْ الكراهية. انظروا ماذا فعل بكم الكهنة، وماذا فعلتم ببلادكم التي كانت رَوْضَةً، فصارت جحيمًا لا يُطاق.

كنت ألمح بين الجمع فتًى، يستمع بإنصات، وقد مضى، مُكَلَّلًا

t.me/qurssan

بالشك. وأعظم معروف يمكن أن يُصْنَعَ بإنسان، هو أن تَضَعِي بذور الشك في عقله، تلك التي ستنبت شجرة من أسئلة، تحرمه النوم، وتجعله يستخدم عقله لأول مرة للتفكير، وليس كصندوق لحلوى وأقذار الطفولة.

ظللتُ أُلْقِي حِكْمَتِي، فأكسب كل يوم عَدُوًّا، وأعود مُكَلَّلًا بالفخر. كان السوقة يدفعونني بأسِنَّةِ عِصِيِّهِمْ، وأتباع المعبد يقذفونني بالحجارة. وإذا قابلت واحدًا مِمَّنْ يراهم الناس عظماءَ، يرمقني بازدراء وتَشَفٍّ. ويذهب بابتسامة المنتصر. لكنني ظللت أردِّد أنشودتي، وأنا أتعمَّد أن أغري عدوِّي لينهشني، وأدُلُّهُ على الموضع الأكثر إيلامًا؛ كي ينشب أسنانه، وأتركه يشعر بِلَذَّةِ النصر.

وصرت أُقَدِّمُ دَمِي لعدوِّي في كأس، وأمسك له المرآة، وأقف منتظرًا، حتى إذا شبع صعق من صورته. ورحت أنام مُتَصَنِّعًا الموت، تاركًا الضباع تحوم حول جثَّتي، والنسور تتصارع معهم على رُفَاتِي، وعندما يحتدمون، أنهض وأسير نحو شاطئ العالم الغارق في الضباب، أحمل قاربي على كتفي، وأجوس خلف قوارب أحبَّائِي إلى المجهول.

كنت أدرك أن الصدق يجعلنا وحيدين، فتعوَّدْتُ أن أكون أنيس نفسي، أؤرِّقها بخواطر تولَدُ حُبْلَى بأفكار، تلدها فتقدِّم نفسها لأبنائها لينهشوا لحمها بِنَهَمٍ. وصرت أقضي الوقت في انتزاع

t.me/qurssan

الموسيقى من صخب العالم، وكلّما أمسكت لحنًا، وَبّخْتُ قريحتي؛ لأن أقصى درجات الغرور أن ترى أنك على حق.

وكادت الموسيقى تجعلني مؤمنًا، فصرت أبدِّدها إلى سراب؛ لأني رأيت الإيمان يلحد العقل والحقيقة، ورأيت الشك صدقًا عاصِفًا يطيح بالأكاذيب.

صرت أقول: «لا أعلم» وَرَعًا، فرأيت قمة الكِبْرِ أن تستشعر تواضُعَكَ. ورحت أعبد إلهًا بلا معبد، فوجدت أنني هو، واستغفرت عن الوصول. وجاءني رسول مني يقول لي: ابتدِعْ صلاتك، فرقصت عاريًا محمومًا بالملذّات، وقال: أرسل كتابك للعالمين. فقلتُ: ليس سوى أنشودةِ عشق. قال ما صيامك؟ قلت: امتنعوا عن حديث الفضيلة، لا يلوكه سوى الأوغاد المتربِّصين.

جاءني الرعاة وقالوا لي أن افْرِضْ علينا صدقة، قلت: اكتبوا قصائد غزل للمحرومات. وقال النُّسَّاكُ: نريد حَجًّا. فقلت: حجُّوا إلى قلوبكم، تاركين العالم وراءكم. اغتسلوا في نهر طفولتكم، واصعدوا جبال الحقيقة، وشاهدوا الوجود من قِمَمِها المُسْكِرَة حتى العمى.

قالت الأشجار: لو كنت نبيًّا، فتعال نظلّل رأسك، قلت: في الوجود أنبياء أحق مني. انظروا لهم إذ يجاهدون الحرف حتى يَنِزَّ شِعْرًا، والوتر حتى يتفصّدَ لحنًا، واللون فيتدفّق لوعة، والجسد ليتهتّك خلاصًا، والحجر كي يلد آلهة، والكرم فيتقطّر أفكارًا. والعطر فينشع

t.me/qurssan

بالذكـرى. أولئـك يحيلـون جحيـم سـكونكم نعيـمًا مـن مكابـدات. إنهـم أنبياؤكـم، ولكنـي أتوسّـل لكـم ألّا تؤمنـوا بهـم. إنهـم جاؤكـم كي ترهقوهـم جـدلًا، وتتمرّغـوا في لَـذّاتِ إبداعهـم، ثـم تلفظوهـم جاحديـن نُبُوّتَهـم، وكافريـن بآلهتهـم، لائِذِيـنَ بِمَـنْ يُخَلِّصُكُـمْ منهـم، مؤمنـين بنقيضهـم، ومصدِّقـين أكاذيبـه، ومُمَنِّـينَ أنْفُسَـكُم بِجَنّـاتٍ، تقايضـون بهـا فضيلتكـم كَرِعَـاعٍ، وشـاعرين بالخديعـة، وأنتـم تبـصرون شروركـم تزهـر حُبًّـا، وخيركـم يتقيّـح عـن ريـاء.

عندئـذٍ قـال لي عـازف نـاي حزيـن: حَدِّثْنـا عـن نفسـك أيهـا النبـي الإلـه، إننـا نريـد أن نعرفـك. فقلـت لـه: أنـا مثلـك لا أعـرف مـن أكـون، ولسـت نبيًّـا ولا إلهًـا. ابحـث عـن نـاووس الـرب بـين ضلوعـك، وأخرجه، وضَعْـهُ بـدلًا مـن مرآتـك، وارجمـه كلَّ صبـاح.

قـال: فبـماذا نؤمـن؟ قلـتُ: مـا الإيمـان سـوى قـارب غـارق في وحـل نهـر مسـافر، وإذا أردت أن تعـرف بشـاعة إيمانـك، فانظـر إلى عقائـد الآخريـن. لمـاذا تريـد أن تصـدِّقَ مُغْمَـضَ العينـين؟ افْتَـحْ نوافـذك لتعـرف.

ومـرَّ موكـب نسـوة جميـلات مُعَطَّـرَاتٍ نحـو الشـاطئ، فَغَـضَّ الجَمْـعُ أبصارهـم، فقلت:

- متـى جرّبتـم العشـق، وكـم مـرّة أحببتـم؟ إنكـم لـن تحبُّـوا الوجـود مـا لم تحترقـوا بأَحَـرِّ لَذّاتِـهِ، وتطيـح بكـم عواصـف فتنتـه.

t.me/qurssan

وقال رجل عليه سَمْتُ النُّسَّاكِ: مُرْ النِّساءَ يُغَطِّينَ سيقانَهُنَّ الفاتنة، فقلت إني آمركم أن تستروا العرايا من الفقراء في الليالي الباردة.

قالوا فمَنْ أحبَّاؤُكَ؟ قلت: أُحِبُّ الثائِرَ إذ يبصق في وجه الظالم. إنه كبير آلهة، يصلح هندسة العالم، ثم يخلو لنفسه باكيًا على ما فعله بالرجل.

من ظلمات نَفْسُها فَأَشْبِعَتْ وأَزْهَرَتْ، طُوبَى لها إذ ترتجف بالحياة، وطوبى لها إذ تبكي ندمًا؛ لأنها منحت نفسها دون تعميد على مذبح العشق الأبدي. طوبى لها إذ ذاقت المُرَّ في عسلها، وإذ أبصرت طريق المذبح، فاشتهته نفسها، ومذبحها قلبها.

طوبى للجلَّادِ إذ يقسو، فَتَنْفَصِدُ من قسوته ذنوبُه، ليمر السوط على سُوَيْدَاءِ قلبه قبل أن يضرب جسد المُذْنِبِ، ثم يترك سوطه، باكيًا عند أقدام من يجلده. طوبى للمتمرِّغين في اللذَّات إذ يخلعون عن عصبهم العاري كِلْسَ المعبد، مكابدين لهيب شوقهم الحارق. طوبى لهم إذ يتألَّمون، وإذ يتدثَّرون بمحارات كُمُونِهِمْ حتى يَنْقَهُوا. طوبى للمستهزئين بتعاليم الكهنة ومُتُونِ المعبد، محتملين زَجْرَ السادة وقسوة الرعاع. طوبى لمن تَرِقُّ قلوبهم لحديثي، ولمن يلقونه تحت أقدامهم، ولمن يفتحون به أبواب سجونهم، ثم يخرجون مُنْكِرِي فَضْلِي؛ إذ لا فضل لي.

t.me/qurssan

كنت أسير ذات يوم، فالتقيت كاتبًا ينظر الناس له بإعجاب، وهم لم يقرأوا له كلمة، وكم من كاتب، يروِّج له، ولو قرأه الناس لتقيَّؤوه. وكم من كاتب، بالكاد يداعب سطح الماء، فيصنع منه أنصافُ القُرَّاء إلهًا، ويرفعه المحاربون والكهنة كقنديل يرشد الناسَ. وما هم سوى خدم.

كان الكَتَبَةُ الذين يعتبرون أنفسهم كُتَّابًا، ينظرون لي بكراهية؛ لأنني أعرف حقيقتهم؛ لذلك فإنني إذ رأيت الكاتب جريت نحوه، وأخبرته بتزلُّف أنني معجب به، ومتَّعت عيني بالزَّهْوِ والغرور في عينيه، يختلطان باشمئزاز من هيئتي، ثم انقضضت عليه واضعًا نَصْلِي على عنقه، ومُعْتَلِيًا به دَرَجَ بناية، وقد تحوَّل كِبْرُه إلى تَذَلُّلٍ وضيعٍ، وسط ذهول المارَّة، ورحتُ أصرخ:

- تعالوا وانحنوا أمام كاتبنا العظيم، إن الكُتَّابَ مَنْ يجعلون لوجودنا معنًى. إنهم خلاصات شعوبهم، وإن لَفَظَتْهُم. وروح بلادهم، ولو أَهْمَلَتْهُم؛ لذلك فإن الأعداء وأعوانهم قبل أن يدمِّروا «أورنارا» سحقوا مبدعيها وكُتَّابَها، فصاروا يعلون مثل هذا المسخ؛ ليموت الموهوبون والشرفاء كَمَدًا، ويَعُمَّ الجهل، فيصير الناس قطيعًا في قَيَافِي الكهنة والمحاربين.

وهنا شعرت أن الرجل الذي أضغط عُنُقَهُ بين ساعِدَيَّ وزِنْدِي، قد ضَعُفَ، وكاد ينهار، فوضعته على الأرض، وجلست عليه، وأكملت قائلًا:

t.me/qurssan

- إن الكاتب نبيٌّ تُرَبَّتُ كلماته على قلب العاشقة، حين تقذفها الآلهة بالحجارة، ويقدُّس حياةَ أعدائه، حين يهدرها الكهنة طمعًا في الغنائم، لكن إذا غمس قلمه في مداد الغَرَضِ والمنافع، فالبغايا أشرف منه. انْظُرُوا إليه، وقد تحوَّل قلمه مسواكًا ينظِّف به أسنان الأغنياء، وعصا يهش بها عن غنم السادة، ونصلًا يقتل الأبرياء ليرضيَ أولياء النعم، بل وعاهة يَسْتَدِرُّ بها عطف الجمهور.

مَنْ زَعَمَ أنه كاتب، فليقل لي: أيُّ فكرة خارجة عمَّا تَعَفَّنَ في مستنقع الأفكار أحيا؟ وأيُّ رسالة لا يرتضيها الحاكمُ قال؟ وكم مظلومًا تواطَأَ عليه السيد والرعاع أَنْصَفَ؟ وأيُّ إلهٍ أَسْقَطَ؟ من كان كاتبًا بحقٍّ فليس له جوقة تصفِّق له، وليس يُسَرُّ لأن الغوغاء استحسنوا ما كتب، وهو لا يكره كاتبًا آخر لأنه نهل من بئرٍ أعمق منه؛ بل يتحرَّقُ شوقًا وتَبَتُّلًا لكل كلمة عميقة، ولو كتبها منافسه. وهم يتنافسون لبلوغ روح الكلمات، ولا يبلغها إلا الأصفياء. أما المُدَنَّسُون، فيضغطون على قرائحهم لتخرج الكلمات، فلا تستجيب سوى أحشائهم، تخرج الفضلات مثيرةً للتقزز، وإن غُطِّيَتْ بِمُزَخْرَفِ اللغة ومُتَصَنَّعِ الشعور. وهم رغم من يروِّجون لهم مَيِّتون، وفي موتهم حياة.

أنهيتُ حديثي، وحلَّقتُ بعيدًا، وكنت أسمع الناس يقولون إن حالتي صارت خطيرة، ولا يمكن السكوت عنها.

t.me/qurssan

هـذه المـرة اقتـادوني إلى سـجن الأنبيـاء، في واحـة الصحـراء، ولم أكـن قـد سـمعت بـه مـن قَبْـلُ. عشـتُ سـنوات بـين أفـكار برَّاقَـةٍ وجنـون. كان هنـاك مـن يقـول بـأن الأرض لا تُمْتَلَـكُ، وأن كل مـن يسـتحوذ عـلى شيء منهـا، مُغْتَصِـبٌ لحـقِّ النـاس. وآخـر يـرى أن الآلهـة لم توجـد بَعْـدُ، والألوهيـة الحقيقيـة في طَـوْرِ التَّكَـوُّنِ، كجنـين سَـيَلِدُهُ عَقْـلُ الإنسـان ذات يـوم. وثالـث يقـول إن العـالم غـير موجـود سـوى كحلـم في عقـل الإلـه الحقيقـي، وهـو ليـس أحـد الآلهـة المعروفـة، وأننـا جميعًـا سنسـتيقظ يومًـا، ونجـد أننـا الإلـه. ورابـع يـرى أنـه يجـب التخلُّـصُ مـن كل البـشر الذيـن لا يضيفـون شـيئًا للحيـاة؛ لأنهـم ليسـوا فقـط عالـة عـلى الإنسـانية، ولكنهـم يتحوَّلـون رغـمًا عنهـم إلى أوغـاد وأفَّاقـين، يحاربـون المُمَيَّزِيـن، فيحرمـون الحيـاة مـن الارتقـاء.

قضينـا الوقـت في عِـراكِ أفـكار، يتطـوَّر بعضـه إلى مشـاجرات بالأيدي، مـا تلبـث أن تهـدأ، فيعـود كلٌّ مِنَّـا إلى أوراقـه، ويعكـف في زاويـة يسـتكمل دعوتـه. وكان الحـرَّاس يحلـو لهـم أحيانًـا أن يسـخروا مـن أحدنـا، ويسـألونه عـن فكـرة مـا، ويتصنَّعـون الاهتـمام، ثـم ينفجـرون في الضحـك. أمـا أنـا فقـد انعزلـت عـن الجميـع؛ لأننـي شـعرت بإنهـاك لا يُوصَـفُ، وعكفـت أُلَخِّـصُ حكمتـي وكل مـا قلتـه في السـاحات والأسـواق والمقابـر، وكنـت أتحـيَّن الفـرص، فأرسـلها إلى خـارج السـجن.

مـرَّتْ سـنواتٌ لم أُحْصِهَـا، واسـتيقظنا ذات صبـاح، فلـم نسـمع نفـيرًا،

t.me/qurssan

ولم يَطْرُقْ أبوابَنا سَجّانٌ. سادت حالة قلق، فصرنا نتصايح، مُنَادِينَ الحُرّاسَ دون مجيب. وعند الظهيرة جُنَّ جنوننا؛ لأننا لم نأكل، ولم نلمح أحدًا، أو نسمع صوتًا. بدأ السُّجَنَاءُ يطرقون الأبواب، ثم صاروا يحاولون فتحها بالقوة.

استطاع البعض الخروج من محابسهم، وأخبرونا بأن الحُرّاسَ قد هربوا، ولا أثرَ لهم. أتوا بأدوات، وجذوع أشجار، وكسروا الأبواب المغلقة. خرجنا، وفتحنا باب السجن، ووقفنا أمامه. نظرنا إلى الصحراء الواسعة، فتحرّكت شهوات التحليق المكبوتة في نفوسنا. وقرّر بعضنا الفرار دون تفكير في العواقب والتَّبِعَاتِ.

رأيت مع آخرين أن الخروج انتحارٌ؛ لأن المدينة بعيدة، والصحراء مَتَاهَةٌ. كان معنا من يَقُصُّ الأثَرَ، ويعرف مواقع النجوم، أقنعنا بأن نتبعه. ذهبنا نجمع بعض المؤن، والماء فلم نجد إلا القليل. كان الحُرّاس قد أخذوا معظمها قبل ذهابهم. سِرْنَا على آثار الخيول الهاربة، وفي الليل كُنَّا نهتدي بالنجوم.

قضينا في الطريق أيّامًا، نَفَدَ خلالها زادُنا، وتساقطنا تباعًا بين برد الليل، وقيظ الظهيرة، ومن العطش والجوع. كنّا ندفن مَنْ يَهْلَكُ مِنّا، في الرمال، ورحنا نضع حجرًا منتصبًا فوق كل جثة. رأيت رفيقًا لنا يتخلّف عنّا، ويدفع تلك الأحجار بقدمه، فيسقطها؛ لأنه رأى أنه محظوظٌ من يَفْنَى، ويغدو بلا قبر ولا شاهد. كان يتمنّى،

t.me/qurssan

أن يموت ذات يوم، فلا يبقى له ذِكْرٌ أو أثر. وقد شعرت بالحسد تجاهه؛ لأنه تسامى فوق الشهوة الأكثر إفسادًا لحياتنا، والوهم الذي يجعلنا نتقبَّل الأكاذيب، ونهدر أعمارنا.

وصلنا إلى مشارف المدينة. كنَّا على حافة الموت، ورأينا الاضطرابات تملأ الشوارع. وعرفنا أنها تضرب البلاد منذ أسابيع. تفرقنا، وذهب الجميع لبيوتهم. استيقظت في اليوم التالى على أصوات هادرة وصياح. جُبْتُ الشوارع مُحَاوِلًا فهمَ ما يحدث. عاصرت في الماضي خلافات الكهنة والمحاربين على اقتسام الغنائم، وشاهدت الخيول تحاصر المعابد. رأيت مناوشات المعبدين الشرقي والصحراوي، ومواجهات أنصار الفريقين. وعشتُ ويلات استيلاء أنصار معبد الصحراء على البلاد، واضطررتُ للهرب مع «إميلدا» أعوامًا. هذه المرة بدا الأمر مختلفًا. لم أجد الناس يؤيِّدون فريقًا ضدَّ آخر. كان الهتاف يَهْدِرُ بسقوط الجميع. سرت مع الغاضبين صَوْبَ الساحة الرئيسية. كانت مُكْتَظَّةً عن آخرها. حتى الأطفال والنساء راحوا يصرخون، ويضربون الأرض بأقدامهم.

كان الكهنة والمحاربون قد أرسلوا حملة إلى الغابات الجنوبية، ليرفعوا راية الإله الأكبر، ويغتصبوا النساء، ويعودوا بالغنائم. ولكن أغلب من سافر من الشباب هلكوا. قتلتهم الحرارة والرطوبة، وأمراض لم يعرفوها من قبل. نصبت القبائل لهم الفخاخ وسط

t.me/qurssan

الأدغـال، وسـلّطوا عليهـم الوحـوش، بـل أطلقـوا الأشـباح لِتُرَوِّعَهُـمْ، وصنعـوا لهـم سـحرًا، جعلهـم يوجِّهـون السـهام لزملائهـم. وحتـى الذيـن عـادوا صـاروا كالمجانـين يعيشـون في هَلَـعٍ دائـم. تَنَصَّلَ الكهنـة وكبـار المحاربـين مـن المسـؤولية كعادتهـم، مُكِيلِـينَ الاتِّهامـاتِ لبعضهم، فافتضحـت أمورهـم، وعَـمَّ الغضـبُ بـين النـاس.

خـرج الجميـع؛ لأن كل عائلـة في «أورنـارا» فقـدت ابنًـا أو قريبًـا. ازدحمـت الشـوارع والسـاحة الرئيسـية، تلـك التـي كان المحاربـون والكهنـة يبـدأون منهـا مواكـب النـصر، وسـط الجماهـير المؤيـدة. صاروا يهتفـون الآن بسـقوطهم، والقصـاص منهـم. شـاهدت بائسـين، أقـصى طموحهـم اسـتبدالُ كاهـنٍ بكاهـنٍ، ومحاربـين بمحاربـين، ونائحـاتٍ يَلْطِمْـنَ الخـدودَ حُزْنًـا عـلى الأبنـاء والإخـوة والأزواج المفقوديـن. ورأيـت مـن يَدْعُـونَ النـاس لاقتحـام بيـوت الكهنـة والمحاربـين وقَتْـلِ أبنائهـم.

وسـط الزحـام لمحـتُ جماعـةً طازجـة وجوههـم، متوقِّـدِي النظـرات، أعمارهـم مـن عمـر مِحْنَتِـي. إنهـم جيـل غيـابي، ولسـت أعلـم مـن يكونـون. سـمعتهم يتحـاورون، ودقَّ قلبـي لأني سـمعت عـلى ألسـنتهم أفـكاري، وصـدى دعـوتي. نظـرت في عيونهـم، فلـم يعرفـوني، ولم أُبَـالِ. كانـوا غاضبـين حتـى عـلى الجمـوع الغاضبـة، يسـتمعون لهتافـات البائسـين بِـأَسًى. شـعرت بالانتـماء لهـم، رغـم فـارق أعمارنـا، ورأيـت

t.me/qurssan

بريق عيونهم أُفُقًا من نور. نظرت حولي فلم أجدهم إلا قِلَّةً، وسط غثاء من أنذالٍ يلعبون الآن دور الضحية. احتدم الصدق في حناجرهم، وانفعل أحدهم، فصعد فوق قاعدة حجرية لإله لم يعد موجودًا، وكأنما نبتت له أجنحة، فراحوا يتطلّعون نحوه، وقد غشيهم بسحر فَحَلَّ الصمت على الجميع. أشار لهم نحو أصل بؤسهم، فخرجت الحقائق المسفوحة في صدورهم، ولمّا رأوها عاريةً صَعِقُوا؛ لأنهم أبصروا تغاضيهم فاضحًا عاهِرًا، وعرفوا أن تواطؤَهم قَتَلَ أبناءهم، فبكوا. كان يسأل، وكانوا مذهولين مأخوذين؛ لأنهم لم يجدوا إلّا التّاسوع وراء كل بؤس وشقاء. رأوه يمكّنُ كهنتَه ومحاربيه من رقاب الناس، ويتوعّد من يخرج عليهم، ويرسل أبناءهم للحرب، ويأخذ الغنائم لرجاله، وقرابين فقرائهم لِسَدَنَتِهِ، ووقت الشدائد لا يستجيب لأحد. رأوه هزيلًا تافِهًا، لم يكن في يوم من الأيام معهم، ومع ذلك انصاعوا لأوهامه.

توقّف الشاب عن الحديث، وتأرجح الصمت فوق الرؤوس. كان الجميع في انتظار حَدَثٍ جَلَلٍ، لم يعرفوا ما هو. رأيت اللحظة مواتية، وتمنّيْتُ ألّا تضيع. وفجأة اخترق السكونَ هتافٌ بسقوط الآلهة. نظرت حولي، فوجدت العجائز ذاهلين، وترنّحَ الصمت في أرجاء الساحة. أعادها الشاب، فهتف خلفه قِلَّةٌ من أقرانه على استحياء. أعادها مرّاتٍ، وفي كل مرة، كانت الأعداد تتزايد، والأصوات

t.me/qurssan

تعلو متحدِّيَةً خوفها. لم أصدِّقْ نفسي، وهم يتحرّكون، صوب المعبد. يصرخون ضدَّ زَيْفِ التَّاسوع، واصفين الآلهة بالدُّمَى الخَرْسَاءِ. كُنَّا قِلَّةً، لكنَّ الأعداد صارت تتزايد. وراحت الجموع تنضمُّ لنا في الطريق. صاروا يصرخون، ويصفِّقُون زاحفين كَسَيْلٍ. لم يكن الجميع على قناعتنا، لكن البعض وجد قطيعًا جديدًا ينضمُّ إليه.

وصلنا إلى بوابة المعبد الخارجية، وكانت الأعداد بالآلاف، يهدر هتافها بسقوط الإله الأكبر، ويرجع صداه، فيضاعف حماستنا. انطلقوا كالمخمورين دافعين البوابة الكبرى، فتهاوت كأكذوبة. دخلنا إلى الباحة الرئيسية، فلم نجد الكهنة. كانوا قد اختبأوا مذعورين، فشعرنا بالنصر. فتح المقتحمون البابَ الخشبيَّ المُزَخْرَفَ بترانيم «الإيلمار». دخلوا ممرَّ مقصورات الآلهة، وبدأوا بتحطيمها. أخرجوا الأرباب الثمانية، ووضعوها في الباحة الداخلية، وراحوا يركلونها، ثم أوقدوا النار فيها. توجَّهوا إلى باب حرم الإله الأكبر، فاقتحموه. وجدوا أنفسهم فوق البساط الأحمر الذي لا يطأه سوى كبير الكهنة. تقدَّموا صَوْبَ الباب الذهبي ذاهلين، لكنَّهم توقفوا في منتصف المسافة.

كانوا يشاهدون لأول مرة في حياتهم، بابًا بِدَرْفَتَيْنِ، مصنوعًا من الذهب الخالص، مزخرفًا بشرائح ذهبية على شكل كلمات من «الإيلمار» تمجِّد الإله، ومُطَعَّمًا بأحجار الياقوت الأحمر، والزُّفيرِ

t.me/qurssan

الأزرق، والزُّمُرُّدِ الأخضر، والكهرمان الأصفر، والجَشْمَتِ البنفسجي، والعَوْهَقِ القَاتِمِ، والكالسيدون الأبيض، مع الزبرجد واليَشَبِ والبِلَّوْرِ، فشعروا بخليط من الإعجاب والانسحاق والحسد والغيظ. كان بينهم فقراء نظروا للباب بأعْيُنٍ دامِعَةٍ، وماكرون يتحيَّنون لحظةً لم تَأْتِ بَعْدُ، وجبناء على الأطراف، يستعدُّون للهروب إذا صعقهم الإله فجأة.

أفاقت الجموع على شابٍّ غاضب يصرخ، أن افتحوا بوابة الخديعة، فاندفعوا صوب الباب الذهبي، وجذبوه بقوة، وتعلَّقوا به حتى خلعوه. راحوا يحطِّمونه، بينما تدافع الماكرون، يتبعهم الفقراء، ليحصل كل منهم على شيء منه، كان بعضها مقابض، والأخرى حروفًا من الزخارف البارزة، وغيرها أحجارًا من جواهره الملونة، تقاتلوا على بعضها، وأخذها الماكرون، وابتلعوا بعضها، وفَرُّوا. راح بعض الأقوياء، مُدَّعِينَ تنظيمَ الجموع، يبعدون الناس، ثم استحوذوا على قطع أكبر، وهربوا أيضًا. أما الشُّبَّانُ المتحمِّسون، فاندفعوا إلى داخل قُدْسِ الأقداس، ووقفوا أمام الناووس، وصرخوا في وجه الإله، فتزلزل عرشه. رأوه ضئيلًا بَائِسًا ضعيفًا، لم يَحْمِهِ طوال السنين سوى خوفهم. وعرفوا أن الخوف سياجٌ يصنعه الكهنة، ليحموا أكاذيبهم. أخرجوه إلى الباحة الداخلية، وراحوا يقفزون في الهواء، ويهوون عليه بأقدامهم. رفع بعض السوقة ملابسَهم، وبالوا

t.me/qurssan

عليه. ركلوه إلى النار المشتعلة، ليحترق مع مساعديه الثمانية.

نظرتُ نحو قُدْسِ الأقداس، فوجدتُ صِبْيَةً يتعاركون للجلوس مكان كبير الآلهة. ورأيت أحدهم يسرق مَبْخَرَةَ الإله، وآخرَ يسرق منفضة الريش، وغيرهم يستولون على مصابيح نحاسية وبخور. ورأيت سيِّدَةً تحمل طفلها، وقد دخلت وسط الزحام. كانت تنظر إلى قدس الأقداس بتهيُّبٍ وانبهار، وأخذت تمسح الجدران بيدها، ثم تمسح على رأس الطفل. وفي الناحية الأخرى كان بعض الغاضبين قد أخرجوا الكهنة من مخابئهم، واقتادوهم عرايا مُقَيَّدِي الأيدي، ليشاهدوا آلهتهم تحترق. رأيت في عيونهم رعبًا لا مثيل له. صعدت إلى درج القرابين، ورحت أصرخ فيهم:

- ها أنتم تشاهدون آلهتكم المهيبة، مُهانةً عاجزة، لا تستطيع دفع الأذى عن نفسها. لقد خرَّبْتُم حياتنا بتعاليمها الحمقاء، ومكَّنْتُمْ من رقابنا كُلَّ ظالِمٍ جَبَّار. كانت «أورنارا» بستانًا للفنون والأفكار، حتى جئتم، فقبَّحتم كل جميل، وسفَّهْتُمْ العقل، بأمر إله صنعتموه على شاكلتكم، فَظًّا غازيًا نخَّاسًا. لقد أحلتم بلادنا المتوقِّدة بالحياة إلى مقبرة، لا يُسْمَعُ فيها إلا صوت «إيلمار» تافه، قلتم للناس، فيه خلاصهم؛ فلم يزدهم إلَّا جهلًا وغِلْظَةً. لقد سمعتكم تقولون للمرضى، لا تتناولوا الدواء، وكنتم تقدمون لهم التراتيل، ومعها عشب مخلوط ببول الكلاب؛ لأنكم قَتَلَةٌ محتالون،

t.me/qurssan

تدّعون الرحمةَ والشرف. وليس غريبًا أن تجد كل فكرة متدنّيةٍ جُذُورُها في كتابِكم، وأن يجد كل وحش مسعور مُتَنَفِّسًا لأحقاده في نصرة تاسوعكم. لقد ضاعت «أورنارا» منذ دخلتموها، وأنا لم أستطع أن أنجب ابنتي «أورنينا» لأنني خفتُ أن أجلبها إلى جحيمكم، فاخترت لها أن تكون آمنةً في الأعالي، وأن تظلَّ فِكْرَةً نَقِيَّةً، لا تتلوّث بعالم تتنفّسون فيه.

كان قد دخل بين الحشود رجالٌ من معبد الصحراء، فثار الدُّعْرُ والتَّرَقُّبُ، وقاطعني أحدُهم بصوت جهور:

- أيها المجنون، لقد أنجبت أورنينتك، وقد صارت غانِيَةً، ثم ماتت، قتلها أحد زبائنها.

وكان أنْ جُنَّ جنوني؛ لأنّه ردُّد ما قاله المحاربون والكهنة عَنْكِ، لِيَطْمِسُوا ما فعلوه بكِ، فاندفعت نحوه، وأخرجت المُدْيَةَ من ملابسي، وطعنته في جنبه، وهَرَبْتُ وَسْطَ الحشود التي راحت تتقاتل بضراوة.

187

اعتزلت في الغابة نادمًا، وقضيت أيّامًا أبكي على ما فعلت. واستيقظت يومًا راغِبًا في الحديث إلى الفتى دارس الكهنوت. تذكّرْتُه فجأة، وأردت أن أحكي له ما جرى، وأن أستمع إليه، وأنا أشاهد براءةَ عينيه وإخلاصهما؛ لأنني رغبت أن أنظر في مرآة نقائي. لم أكن قد التقيتُ به منذ أودعوني سجن الأنبياء. لم أره في الساحة

t.me/qurssan

مـع الثائريـن، ولا في المعبـد. خشـيت أن يكـون ضمـن الكهنـة الذيـن اقتادوهـم عرايـا. ذهبـت، وسـألت عنـه في جزيرتـه، فأخـبروني بأنـه تـرك الكهانـة منـذ سـنين، وسـافر إلى بـلاد بعيـدة، وتنقَّـل بـين المعابـد، وعـرف تعاليمهـا، ثـم تـرك كل ذلـك، وصـار ينفـخ البـوق مـع جماعـة يرتحلـون بـين البلـدان. أخبرهـم بذلـك في رسـالة، ووعدهـم بالعـودة قريبًـا، لكنـه لم يصـل بَعْـدُ. امتـلأتْ نفـسي بالسـعادة لأجلـه. سرت وحيـدًا بمحـاذاة النهـر، وعرفـت أن الفتـى الـذي طعنتُـه لم يَمُـتْ، فارتاحـت نفـسي وهَـدَأتْ. لكننـي سـمعت أن أتبـاع معبـد الصحـراء، اسـتولوا عـلى البـلاد مُجَـدَّدًا، مسـتغلِّين الفـوضى، فانقبـض قلبـي.

واصلـت السـير، فعاودتنـي ذكـرى هـروبي مـع «إميلـدا» إلى مَصَـبِّ النهـر، وصحبتنـا في البحـر، وإقامتنـا في بـلاد الغابـات الصفـراء. كانـت أيَّـامَ اضطـراب أيضًـا، لكـن مـا أن علمنـا باسـتقرار الأوضـاع هنـا حتـى عدنـا. وكانـت «إميلـدا» قـد فكَّـرتْ أن تنجبـك هنـاك؛ لأنهـا أرادت أن يكـون لـكِ بَلَـدٌ خـيرًا مـن بلادنـا، رغـم أننـا لم نكـره أوطاننـا، ولكـن الوطـن يضيـق عندمـا يفقـد الأمـان والعـدل. يضيـق فيصبـح سـجنًا، ويضيـق أكـثر فيغـدو قـبرًا.

كانـت «إميلـدا» تقـول إن الوطـن مـكانٌ، يجـب عـلى الأقـل أن يسـمح لـك بالسـعادة، لكـن السـعادة والخـوف لا يجتمعـان. ونحـن لا نسـتطيع اختيـار أوطاننـا. إنـه مَحْـضُ صدفـة. وقـد يصبـح حمـلًا ثقيـلًا

t.me/qurssan

ن المظـالم والهزائـم والقيـود، ورغـم ذلـك تكونـين مطالَبَـةً بالمـوت
لـه، وأحيانـا لأجـل مجموعـة تسـتحوذ عليـه. ومـن الغريـب أن
ـياء التـي ننتمـي لهـا، ونحبهـا وندافـع عنهـا، وربمـا نمـوت دونهـا،
ي مَحْضُ مصادفـات. وربَّمـا لا تتميَّـز بـشيء عـن غيرهـا. إننـا لا نختار
ةً ولا وطنًـا ولا دينًـا. لا نختـار أجسـادنا بمـا تحملـه مـن أمـراض
عَـاتٍ، ولا ملامحنـا التـي كثـيرًا مـا تَحْكُـمُ مسـيرتنا، ولا قدراتنـا
ي تجعلنـا مَوْضِـعَ حَسَـدٍ وضغينـة. إنهـا كل الأشـياء المهمـة تقريبًـا
رض عليـك، ولا يسـمح لـك بانتقائهـا. وقـد رأيـت أنـه مـن العبـث
أجلبـكِ إلى عـالم تُرْغَمِـينَ فيـه عـلى كل شيء. لكننـا رغـم ذلـك قُلْنَـا:
أكيـد توجـد طريقـة لنجعلـكِ سـعيدةً.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

بيتو أريعو

وكان أنْ هَبَطْتُ مَدِينَةً بَرَّاقَةً بِلَا تاريخٍ، لا مَاضٍ فيها لِأَحَدٍ ولا أَبَ. رُحْتُ أدُسُّ أوْرَاقًا صَفْرَاءَ لِيَعْثُرُوا عَلَيْهَا. وَضَعْتُ آلِهَةً قَدِيمَةً في أَقْبِيَتِهِمْ. لَمْ يَلْتَفِتُوا لأشْيَائِي التَّافِهَةِ. جَمَعْتُ تَارِيخِي المُزَيَّفَ، وأَلْقَيْتُهُ في النَّهْرِ، لَكِنَّهُ انْسَدَّ وفَاضَ. أخَذُونِي، فَظَلَلْتُ مُشْرَعًا هُنَاكَ على صَلِيبِهِمْ إلَى الأَبَدِ، في مَدِينَةٍ بِلَا زَمَنٍ.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

توقَّف «أوديشو» عن إمْلَاءِ رسالته، ودَمَعَتْ عيناه. أدرك «نوربا» أن الحكاية أوشكتْ على الانتهاء. كان يعلم أن ما تبقَّى هو الأصعب. وأشفق على صديقه. لم يكن متأكِّدًا ممَّا ستؤول إليه الأمور، فقد مَرَّ «أوديشو» بصعاب وآلام، وعبرها بالكاد، متخبِّطًا على حافَّة الجنون. وهو الآن قد وصل إلى اللحظة الفاصلة. لم يكن «نوربا» واثقًا من قدرة صاحبه على المواجهة والاعتراف بما حدث. تملَّكَهُ الخوفُ، وغادر المقبرة عائدًا إلى كوخه.

نام «نوربا» عميقًا من شدَّة الإجهاد. مَرَّ يومان، وهو يتقلَّب بين أحلام، لن يتذكَّر تفاصيلها، لكنه عند ظهيرة اليوم الثالث، رأى نفسه يرسم جُثَّتَهُ من جديد. وجاء طائر أسود وكبير، محلِّقًا نحوه. احتضن «نوربا» صورةَ وجهه خائِفًا، ومتشبِّثًا بها، لكنَّ الطائِرَ أَنْشَبَ مخالِبَه في أذنيه، وانتزع رأسه، وحلَّق بها بعيدًا. استيقظ مُعْتَلَّ المزاج. هذه المرَّة أيقن أن الموتَ وَشِيكٌ، وأنَّه سيأتي بطريقة بَشِعَةٍ.

أعاد تفسيرَ أحلامه الثلاثة. وجد أن أولها قد أنبأه بقرب رحيله، والثاني جاء ليذكِّره برسم صورة وجهه، أما الأخير فيخبره بميتة، ستنفصل خلالها رأسُه عن جسده، وهي الطريقة المفضَّلة لدى أتباع معبد الصحراء. شعر بأنه نام دَهْرًا. وتذكَّر «بريثا» فأحسَّ بالعار من أن تكون قد رحلت، وتظنَّ «أورنينا» أنه تخلَّى عنها.

t.me/qurssan

أخذ الصورة، وأسرع إلى بيتها. كانت بالفعل قد ماتت قبل ساعات، ولم تُدْفَنْ بَعْدُ. تنفَّس بارتياح؛ لأن الأمر لم يَفُتْهُ. نظر إلى ملامح صورتها، والتي رسمها من ذاكرة سنوات بعيدة، وتأمَّل وجهها الميِّتَ. رآها وقد بدَّلها الزمنُ والمرض وآلام الاحتضار. لكنه وجدها قد شَفَّتْ، وتخلَّصَتْ من دَنَسِهَا. وضع لمساته الأخيرة على الصورة، وعندما انتهى التقت عيناه بعينَيْ «أورنينا» فلاحظ ارتباكها.

بدت ملامح «بريثا» في تلك اللحظة شهادةَ نجاة. رآها تَشِي بامْرَأةٍ مسكينة، تعذَّبت طويلًا، وامْتُهِنَتْ كمقابل لأن تبقى على قيد الحياة. فكَّر أن الامتهان هو الثمن الذي تُجْبِرُنا الحياة على دفعه مقابل البقاء، وأننا نفعل ذلك كلَّ يوم، مُسَدِّدينَ إيَّاه على أقساط، ونتعايش مع هذا الوضع ونُبَرِّرُه. ولكننا ذات مرَّةٍ، نجد أنفسنا أمام إذلال فادح، يجبرنا أن نركع، وأن نلعق الأرض، وأن نخلع ما تبقَّى من كرامتنا كثوب بالٍ، ونلقي به تحت الأقدام، ونتعرَّى من آخر ورقة توت تستر ضِعَتَنَا، ووضاعة العالم.

شعر «نوربا» بالتَّعاطف مع «بريثا». تذكَّر ما حَكَتْهُ له ذلك اليوم عن حياتها. إنها قصة مُكَرَّرة، لا تخصُّها بالذات، لحظة اختيار حَتْمِيٌّ بين قبول الامتهان إلى الأبد، وبين الرفض وتلقِّي العقاب، وهو الآخر سيكون مُهِينًا، وربما مُمِيتًا. هي لحظة تكشف فيها الحياة عن وجهها الحقيقي، والذي نراها كل يوم تعامل به

t.me/qurssan

كائنـات أدنى، بـل وغيرنـا مـن البـشر، ومـع ذلـك نظـلُّ نغـضُّ الطـرف، آملـين أننـا بأمـان. وكأننـا اسـتثناء ومميَّـزون، لسـبب غامـض وغـير محايـد. لكننـا في لحظـة نجـد أنفسـنا أمـام الوجـه نفسـه. لم تكـن «بريثـا» مِمَّـنْ خدعتهـم الحيـاةُ طويـلًا. عرفـت مُبَكِّـرًا ورأت، ولذلـك قَبِلَـتْ أن تَمْتَهِـنَ نفسـها؛ لأنهـا أرادت أن تعيـش، ولأنهـا لم تجـد الحيـاة جديـرةً بـأن تحتفـظ لأجلهـا بأيـة قيمـة أو فضيلـة.

تذكُّـر «نوربـا» الامتهـانَ الـذي تعرَّضـتْ لـه عائلتُـه عندمـا اضطـرُّوا لتبديـل عقيدتهـم، ليعيشـوا أيضًـا. رأى الانسـحاق في عينَـيْ والـده، وهـو يصطحبـه إلى المعبـد الشرقـي، ويجعلـه يسـتمع للكهنـة، ويعتنـق عقيـدة عـن عَـدْلِ التَّاسـوع، ورحمـة التاسـوع وروعـة الحيـاة التـي خلقهـا التاسـوع، والخلـود البـاذخ الـذي ينتظـر أحبـاء التاسـوع بعـد المـوت. رأى «نوربـا» المعبـد يشـبه الحيـاة، والحيـاة تشـبه المعبـد، ولذلـك صـدَّق بـأن التاسـوع هـم بالفعـل مـن صنعـوا العـالم، أو عـلى الأقـل «أورنـارا». ورأى امتهـان البـشر هـو الوجـه الـذي يؤكِّـد بـه التاسـوع عَظَمَتَـهُ وجلالـه.

تأمَّـل «نوربـا» وجـه «بريثـا»، وحدَّثهـا مُعَزِّيًـا بأننـا مُمْتَهَنُـونَ سَـلَفًا، ومنـذ تَطَـأُ أقدامنـا الأرضَ. مُمْتَهَنُـونَ لأنَّنـا مُجْبَرُونَ. وإن بـدا أننا نختار أحيانًـا؛ فإننـا لا نملـك بدائـل معتـبرة. نحـن ندفـع دون شـفقة لنسـلك طرقًـا مُهْلِكَـةً. نُدْفَـعُ في ظـلام حالـك لنتخبَّـط، ونُـرَوَّعَ ويُوَسْـوَسَ لنـا،

t.me/qurssan

وتترصَّدَنا الأخطار والمِحَن. نلهث وتتعذَّب أرواحُنا، بينما نستمع إلى ضحكات ماجنة للدروب تحت أقدامنا، وهي تذكِّرُنا بأننا مَنْ اخترنا أن نسلكها.

رأى «نوربا» أن «بريثا» مِثَالٌ للظُّلْمِ الذي نتعرَّض له. كان واثقًا من أنها كانت جديرة بحياة أفضل. ونظر إلى وجهها على اللوح الخشبي، فوجده يسمح بخلاصها. بل فكَّر أن التَّاسوع عندما يَرَوْن هذا الوجهَ سيشعرون بالذنب، وسيدركون أن الأرواح تأتي إلى عالمهم فتتلطَّخ، العالم الذي صنعوه على شاكِلَتِهم. تأمَّلَ «نوربا» وجهها فوجده إدانةً واضحةً للعالم وللتاسوع. تساءل هل سيتقبلُها الآلهة، ويسمحون بخلود روحها، أم سيواصلون التنكيل بها؟

التقت عيناه بعينَيْ «أورنينا» مجدَّدًا. شعر بالحزن؛ لأنه لم يتمكَّنْ من سؤال «بريثا» عَمَّنْ يكون والدَ ابنتها. أعطى الصورة للفتاة. تأمَّلتها طويلًا، وشعرت بامتنان كبير. بَدَتْ بعينَيْها الدامعتين مُنْدَهِشَةً. وكانت رغم كل شيء سعيدةً؛ لأنها وجدت الوجه الذي ظنَّتْ أن أحدًا سواها لن يراه.

كانت الفتاة تشعر بالخجل، بسبب ما فعلته في المرة السابقة. لقد تَعَرَّتْ لأوَّل مرَّةٍ في حياتها أمام رجل، واكتشفت نُبْلَهُ وطِيبَتَهُ. كانت وقتها قَلِقَةً ومُشَوَّشَةً؛ لأن الأمر تعلَّق بمصير أمِّها الأبدي. قرأ «نوربا» ما يدور بخاطرها، فَرَبَتَ عليها بِحُنُوٍّ. وأعطاها بعض

t.me/qurssan

المال. أخبرته بأن ما ينقصها هو أن تجد كاهِنًا يقيم طقوس الخلاص لروح أمِّها. وعدها بأن يجد لها واحدًا.

ذهب «نوربا» الرسَّامُ إلى حافَّة النهر، وعبر إلى الجزيرة. التقى بالكاهن السابق مُجَدِّدًا. كان يجلس عند دَرَجٍ حجري يهبط من الشاطئ إلى الماء، وينفخ بوقه بلحن حزين. أخبره بأمر الفتاة المسكينة، وحاجتها لأن يقرأ الصلوات على روح أُمِّها. بدا الرجلُ في حيرة من أمره؛ لأنه لم يتوقَّعْ بَعْدَ رحلته واستنارته، وخلعه رداء الكاهن، أن يعود من جديد قارئًا للتراتيل على أجساد الموتى، ولكنه رغم ذلك وافق مجدِّدًا على الذهاب.

لم ينظر الرجل إلى الأمر من زاوية قناعاته. لقد كان في يوم من الأيام يخدم التاسوع، وقد استنار بفعل لقائه مع «أوديشو»، وطاف بالعديد من بلاد العالم، فرأى آلاف الآلهة، وشاهد مئات الأديان، ووجد كلَّ قوم يعتقدون أنهم على صواب. وهذا ما جعله يوقن أن لا أحد يمتلك الحقيقة. ومع ذلك وجد نفسه يتعاطف مع الجميع؛ لأنه علم أن الناس ضعفاء، ويحتاجون إلى قوة يحتمون بها، وإلى حكمة يُرْجِعُونَ إليها ما يصيبهم. كان يعلم خطورةَ أن يقيم شعائر المعبد الشرقي، بعد أن سيطر أتباع معبد الصحراء، لكنه قرر أن يفعل ذلك لأجل أن يخفِّفَ عن الناس، كما أسعدهم وهو ينفخ البوق مع جوقته.

t.me/qurssan

عـاد «نوربـا» الرسَّـام إلى «أورنينـا» التـي صـار يعتقـد جازِمًـا أنَّهـا ابنتُـه. بشَّرهـا بـأن الكاهـن في الطريـق. أعـدُّوا كلَّ شيء في انتظـار أن يـأتي. قامـوا بِتَسْـجِيَةِ الجُثَّـة، ولَفَّهَـا بالكِتَّـانِ المُعَطَّـرِ. وضعوهـا في تابـوت خشـبي فقـير. ثبَّتـوا صورتهـا فـوق رأسـها. نـثروا الزهـور عـلى سـائر جسـدها. لم يبـق إلَّا وصـول الكاهـن، لكنـه تأخَّـر كثـيرًا. وأخـيرًا وصـل الخـبر بـأن أتبـاع معبـد الصحـراء قتلـوه، وهـو يغـادر جزيرتـه؛ لأنهـم علمـوا بأدائِـه الطقـوسَ، ولأنَّـه ينفـخ البـوق. ارتعـد «نوربـا» ألمًـا وخَوْفًـا. بَكَـتْ «أورنينـا» لأنَّ أُمَّهـا لـن تَحْظَـى بشـعائِرِ خلاصهـا. شـعرت بـأن الآلهـة مـن دبَّـرَتْ الأمـر؛ لأنهـا لا تريـد أن تقبـل خلاصًـا لـروح أمهـا. رأى «نوربـا» آلامهـا. ونظـر في عينيهـا فشـاهد لوعتهـا. ضمَّهـا طويـلًا، ثـم ابتعـد وحدَّثهـا بجديـة مفاجئـة:

- اسـمعي يـا ابنتـي.. سـتحظى أُمُّـك بشـعائرها، وسـتُقَامُ الصلـواتُ عـلى روحهـا. وأنـت مَـنْ سـتفعلين.

نظـرت لـه الفتـاة بتسـاؤل ودهشـة. كانـت عيناهـا تقـولان إنهـا امـرأة، وإن الآلهـة تشـترط أن يكـون مقيـمُ الصلـوات والشـعائر كاهِنًـا رجُـلًا. صـار «نوربـا» أكـثرَ جِدِّيَّـةً وحِـدَّةً، وهـو يقـول:

- إذا لم تقبـل الآلهـة إخلاصَـكِ ومحبَّتَـكِ، فليسـت جديـرةً بـأن نحـترم شـعائرها. لـو كانـت آلهـةً بِحَـقٍّ فلـن تخذلـكِ. أقيمـي الصلـواتِ عـلى روح أمـك. ليـس بوسـع أي كاهـن في العـالم أن يطلـب الخلاص لـها بمثـل صدقك.

t.me/qurssan

أتمّتْ «أورنينا» المراسمَ من «الإيلمار» وكتاب الصلوات. وحملوا تابوت إلى المقابر. وَدَّعَ «نوربا» الفتاةَ، والتي بَدَتْ مُرْهَقَةً، وتحتاج لى الراحة استعدادا لتلقّي العزاء في الغد. ووعدها بالحضور.

عاد «نوربا» الرسّام إلى المقبرة، فلم يجد صديقه. كان يفكّر في سر «أورنينا» التي صار على يقين من أنها ابنته. كل شيء أنبأه ذلك: حركتها، ونظراتها، والطريقة التي تلتفت بها، واهتزاز رأسها حظة دفن أمها، والشامة التي رآها على فخذها. كل شيء كان شبهه، أو يشبه أحدًا من عائلته. عمرها أيضًا مناسب جدًّا لتكون رة علاقته بأمّها. رأى قُدْرَتَها على المقاومة، وعدمَ انجرافِها لِتُصْبِحَ غِيًّا كَأُمّها دليلًا آخر.

شعر «نوربا» بالأسى على الكاهن المقتول. راودته فكرة أنه مَن سبَّب في مقتله؛ لأنه ورّطه في أداء الطقوس أكثر من مرّة. وها هو بدلًا من أن ينقذ شخصًا ما، يتسبَّب في قتل إنسان. فكّر أنه يضًا سيصبح مُلَاحَقًا، وتذكّر حلمَه الأخير، وقد هرب الطائر حاملًا أسه. لكنه شعر بأن شيئًا لم يَعُدْ يَهُمُّه. صار مستعدًّا للموت، كل رحابة صدر.

وجد «نوربا» نفسه منفردًا بالمقبرة. وعاودته رغبته في أن يرسم حداث حياته؛ لأنه شعر بأنه فقد كل شيء، وبأنه راحل لا محالة، لال أيام، وربّما ساعات. تأمّل الصور التي رسمها من أجل

t.me/qurssan

صديقه. وتزاحمت عليه مشاهد حياته. كل شيء على الجدران كان من السهل أن يُحَوَّرَ ليصبح جزءًا من حياته هو. فرغم أنه قضى عمره في رسم الموتى، والترحال، والهروب، وخوض قصص الحب البائسة، ورغم أنه لم يكن في يوم الأيام طبيبًا ولا محارِبًا؛ إلّا أنه وجد شيئًا في العمق يتشارك به مع صديقه. لم يكن بحاجة إلى جهد كبير ليجعل المقبرة تُخَلِّدُ حياتَه هو.

رأى «نوربا» المقبرة، دليلًا على أن الشخص قد عاش. والناس يحبُّون أن يتركوا أثرًا منهم؛ لأنهم يعرفون أن وجودهم هَشٌّ، وأنهم منسيُّون حَتْمًا. لذلك فهم يحاولون تأكيد مرورهم. وأسهل طريقة لذلك، هي أن ينجبوا؛ لذلك رأى الأطفال كمقابر، ينحتها الآباء، ويرسمون على جدرانها أفكارهم ومعتقداتهم، ولتكون شواهد حيَّةً، نتركها في العالم، لتدلَّ علينا إلى حين. لكنه رآه ثمنًا فادحًا، فهذه الشواهد تتعذَّب لأجل أن نُشْبِعَ رغباتِنا، ونعالج هواجسنا. قال لنفسه إنه لم يفعل ذلك مع «أبليتا». لم يتعامل معها كمقبرة تُخَلِّدُ ذِكْرَاهُ، بل كحياة حُرَّةٍ، ترسم وجودها كما شاءت، لكنه وجد هذا أيضًا مَلْمَحًا يَدُلُّ عليه، وهذا بالذات ما أدَّى إلى ضياعها، فالكهنة والمحاربون لا يريدون الناس أحرارًا.

عاد «أوديشو» مُكْفَهِرَّ الوجه لأنه علم أن المحاربين تحالفوا مع أتباع معبد الصحراء. كان هذا يعني أن الأمور ستعود لنقطة

t.me/qurssan

البداية، وربّما أسوأ. لكن «نوربا» لم يَرَ في الأمر جديدًا. لأنه عرف أنه لا غِنى للمحاربين عن الكهنة، ولا للكهنة عن المحاربين، وأن الخلاف عادة ما يكون على توزيع المزايا والغنائم.

أمسك «نوربا» القلم لكتابة الجزء الأهم من رسالة صديقه. لكن «أوديشو» شعر بثِقَلِ المهمَّة، وبأنه غير مُسْتَعِدٍّ، فطلب منه إمهاله بعض الوقت. أشفق الرسام على صديق طفولته؛ لأنه كان يدرك صعوبة الأمر؛ لذلك تركه يخلو بنفسه، وخرج من جديد، قاصدًا كوخَهُ.

عندما هَمَّ «نوربا» لصعود التَّلِّ شاهد من يسبقونه إلى بيته. عرف مِنْ هيئتِهم أنَّهم من أتباع معبد الصحراء، وعلم ما أتى بهم. إنه مصير الكاهن، وتفسير حلمه الأخير. أشفق أن يرحل عن العالم بهذه الطريقة. إن الذبح ميتة بشعة، وهو سيكون محظوظًا إذا حَظِيَ بها ضمن قائمة أساليب القتل المُتَّبَعَةِ. فَكَّر في العودة إلى مقبرة صديقه، ولكنه خَشِيَ أن يجلب له المتاعب. عاد أدراجه بسرعة وحذر. وسلك دروبًا نحو جبّانات قديمة ورطبة، يكسوها العشب، ولا يذهب الناس إليها لأنها باتت مأوى للهوام.

تذكَّر «نوربا» أنه لم يرسم صورة وجهه، وشعر بالخَيْبَةِ أن يموت، دون صورة تُخَلِّدُ روحَه، وهو الذي منح الخلودَ والخلاصَ للمئات. لكن أكثر ما أرَّقَهُ في هذه اللحظة، أنه لن يَفِيَ بوعده لابنته

t.me/qurssan

«أورنينا» بأن يكون معها، وهي تتلقَّى عزاء أمها. أراد أن يخبرها بأنه أبوها، وأنه يحبُّها. كان مشغولًا أيضًا، بأن يكمل رسالةَ صديقه، وأن يكون إلى جانبه في لحظة مواجهته واعترافه. وكان مُسْتَعِدًّا لأيِّ مصير بعد ذلك.

وجد «نوربا» أرضًا منخفضة، مفروشة بالعشب. هبط إليها، وجلس متأمِّلًا. لَمَحَ حيَّاتٍ مُرَقَّطَةً تسرح في الجوار مُصْدِرَةً أصواتًا موسيقية، تناغمت مع بعضها، وعلا صوتُ أقرانها من كل اتجاه متجاوِبَةً. شاهد حشرة خضراء زاهِيَةً تقترب من أخرى برتقاليَّةٍ وتفتك بها. كان مأخوذًا بتناسُقِ ألوانهما، وبجمال البرتقاليِّ، وهو يُبْتَلَعُ داخل الأخضر. سرح بخياله فتذكَّر قصة ثعبان صديقه.

كان «أوديشو» يجلس ذات يوم متأمِّلًا زهرة نادرة، وجاءت فراشة مُلوَّنة، ووقفت عليها فزادتها جمالًا. انشغل بها، وهي تَنْهَلُ من رحيقها لاهيةً، وفجأة أتى ضفدع، ودفع لسانه اللزج صوبها، وجذبها إلى فمه. كانت حركته سريعة، فلم تستطع الفراشة الهروب، وقبل أن يتحرَّك انقضَّ فأرٌ عليه، وعضَّه وثَبَّتَهُ، وبدأ يأكله. كان الثعبان بَطَلُ القصَّةِ يتحيَّن الفرصة مُتَخَفِّيًا، وكأنه عرف أن الزهرة البريئة ستجلب له فريسته. وفي لحظة اندفع، وأَنْشَبَ أنيابَه في جسد الفأر. وبدأ يبتلعه. كان يحاول دفعه ببطء إلى معدته، عندما لمح «أوديشو» حيوانَ الظَّرْبَانِ، ينقضُّ على الثعبان، ويعضُّ رأسه.

t.me/qurssan

ـدث الأمـر بسرعـة، وعندمـا انتبـه «أوديشـو» ألقـى حجـرًا نحـوه
هرب، بينـما جلـس يشـاهد الزاحـف الجريـح، يتلـوَّى مُنْتَفِخًـا بوليمته
تـى مـات. حملـه إلى مقبرتـه، وعالجـه بالملح والقطـران. حنَّطـه بالفأر
الضفـدع والفراشـة، وأتى بالزهـرة الجميلـة، وجفَّفهـا ووضعهـا في فمـه.
ـه الثُّعبـان الـذي قـرَّر أن يضعـه عـلى صـدره في التابـوت عندمـا
ـوت، بـدلًا مـن باقـة الزهـور. وقـد اعتـبره ردًّه ودليـلَ دفاعـه، في
ـال وجـد بعـد المـوت حسـابًا. كان يـرى أن البـشر يتلـذَّذون بخـداع
فسـهم؛ إذ يضعـون عـلى قبورهـم تلـك الزهـور، دون باقـي الحكايـة.
هـا أفـكار «أوديشـو» المبـشِّر كـما يعنـي اسـمه، والـذي رآه «نوربـا»
كيـمًا نافِـذَ البصـيرة، لكنـه مـع ذلـك لم يـترك نفسـه ليعتنـق أفـكاره؛
نـه كان يحـب أن يَغُـضَّ الطَّـرْفَ عـن بعـض الحقيقـة، ولم يَـرَ في ذلـك
داعًـا، بـل اختيـارًا لأحـد أوجههـا، والـذي بالـكاد يقـدر عـلى التعايـش
عـه.

فكَّـر «نوربـا» في حياتـه السـابقة. ورأى أنهـا لم تكـن سـوى مجموعـة
ـن الإخفاقـات. مـلأه شـعور بأنـه كان سَـاذَجًا بصـورة لا تُصَـدَّقُ، وأنـه
خـدع أكـثر مِـمَّا يجـب، وأن ذلـك لِعَيْـبٍ في تكوينـه وشـخصه. وكان
ـذا شـعورًا قاسِـيًا لشـخص يتوقَّـع المـوتَ بـين لحظـة وأخـرى. ألـحَّ
ليـه خاطِـرٌ مفاجـئ بـأن يـسرع بالهـروب، ويغـادر «أورنـارا».
سـمع صوتًـا يوسـوس لـه أن ينجـو بنفسـه، ويَكُـفَّ عـن سـذاجته.

t.me/qurssan

أَلَحَّ عليه بألَّا يجري وراء حماقات جديدة؛ لأن هذه المرة ستكون الأخيرة، وسيدفع ثمنها حياته. سَفَّهَ له الصوتُ أَمْرَ الرسالة التي يكتبها لصديقه، وأَمْرَ تلك الفتاة التي ليس متأكِّدًا من أيِّ شيء يتعلق بها. أَلَحَّ عليه بأنه لن يجني شيئًا من كل هذه الحماقات سوى الموت. وأن هذه الميتة، ستكون أبشعَ ما حدث في حياته؛ لأن أتباع معبد الصحراء يتفنَّنون في تعذيب قتلاهم وإهانتهم. رآهم وهم يشعلون النار فيه حيًّا، كما فعلوا من قبل مع كاهن عجوز. ورأى نفسه مُعَلَّقًا في الساحة مُقَطَّعَ الأطراف، تَنْهَشُهُ الطيور، كما فعلوا مع شخص تَشَكَّكوا في إيمانه. إنهم أشخاص لا يمكن التَّفَاهُمُ معهم؛ لأنهم يمارسون كل شرورهم، مُتَيَقِّنِينَ من أنهم ينفِّذون أوامرَ الإله الأكبر، ويستشهدون على ما يقترفون بنصوصٍ من «الإيلمار»، يتَّهمون المعبد الشرقيَّ بالتَّفْرِيطِ في تنفيذها.

أفاق «نوربا» من خواطره المُفْزِعَةِ، ووجد أنه أكثر تَشَبُّثًا بأن يحيا ليوم آخر، لِيُتِمَّ ما عليه. أدرك في هذه اللحظات عبثيَّةَ الحياة وقَسْوَتَها بشكلٍ غير مسبوق. شعر بأنه في حرب معها. وَوَقَرَ في صدره أن العالم هو مُسْتَوْدَعٌ للأماني المُحْبَطَة، والأحلام المُجْهَضَةِ، وأنَّ عجز البشر يجعل أعظم الأفكار تُبْتَذَلُ تحت أقدام وجود غبيٍّ لا يبالي. فكَّر أن يختبئ حتى تهدأ الأمور، ولكنه عدل عن الفكرة؛ لأنه تذكَّر حُلْمَهُ الأخير، وأيْقَنَ أن نهايته اقتربت. نهض

t.me/qurssan

وهَـمَّ بالعـودة، فـرأى عـلى البعـد أتبـاعَ معبـد الصحـراء ينبشـون القبـور، ويُخْرِجُـونَ الجُثَـثَ التـي دُفِنَـتْ معهـا صُـوَرُه، ويقومـون بإحراقها. شـعر بالتَّبَلُّـدِ مـن كـثرة مـا شـاهد مـن فظائعهـم، واختبـأ مُجَـدَّدًا حتـى رحلـوا.

عـاد «نوربـا» متخفِّيًـا نحـو مقـبرة صديقـه. مكـث برهـة عـلى مسـافة منهـا. انتظـر حتَّـى أظلمـت الجبَّانـات تمامًـا. ذهـب وطـرق البـاب الصغـير للمقـبرة. لم يجـد أن «أوديشـو» قـد علـم بمـا يحـدث في الخـارج. واطـمأنَّ إلى أنهـم لم يأتـوا للبحـث عنـه هنـا. أخـبر صديقـه بأنـه مُتَحَمِّـسٌ ليكتـب بسرعـة مـا تبقَّـى مـن الرسـالة. أمسـك بالقلـم، وبـدأ صديقُـه يُمْـلِي عليـه.

ابنتي الحبيبة أورنينا

كنـتُ أتمنَّـى أن أكـون راقصًـا، عازِفًـا، رسَّـامًا، أو صانـعَ عطـور، لكننـي صرت طبيبًـا عاجِـزًا عـن شـفاء الناس. ورُحْـتُ أُضَمِّـدُ المحاربـين، فَصِرْتُ قاتِـلًا. كنـتُ أعـرف أن النـاس مضطـرُّون ليخوضـوا حروبًـا؛ لأنهـم إن لم يفعلـوا فقـد يفقـدون كل شيء. وعشـت يومًـا مـع المحاربـين، ورأيـت تفانِيَهُـم، وتدرَّبـت معهـم عـلى القتـال، رغـم أن عمـلي لم يكـن سـوى طبيـب، لكننـا نكـون عـلى حافَّـة المـوت، ولا بُـدَّ مـن سـلاح، نحمـي بـه

t.me/qurssan

أنفسنا. وكم تعرَّضَتْ مشافينا الميدانية للعدوان.

ذات مرة اضطُرِرْتُ أن أستعمل سلاحي، وأن أَقْتُلَ؛ لأن أحدهم كان يصوِّب نحوي، وكنتُ أمام مَوْتٍ مُحَقَّقٍ. لكنني عندما نظرت في عينيه، تجمَّد السلاح في يدي. أردت أن أحدِّثَه، وأقول له:

- لماذا نفعل هذا ببعضنا؟ إننا إخوة.

لأنني لمحت في عينيه أنه أبٌ، وله ابنةٌ ما جميلة، تنام الآن في حِضْنِ أُمِّها، وتَعِدُها بعودته مُنْتَصِرًا، ولأنني رأيت في عينيه أنه كان يقف في الأعياد، وهو طفل يرفرف برايةِ بلاده، كما كنَّا نفعل. وكان يذهب مع أبيه إلى المعبد، حيث قالوا له إننا أعداؤه، وإن قتلنا يُسْعِدُ الإله، تمامًا كما قال كَهَنَتُنَا عنهم.

ولأنني رأيت في عينيه أنه كان يقطف الورود ليقدِّمَها لحبيبته الأولى، ويقف تحت المطر حامِلًا زهوره البنفسجية، منتظرًا أن تفتح شرفتها، وتُطِلَّ من خلف ستائرها الشفَّافة. ولأنني رأيت في عينيه أنه كان عاشقًا جيِّدًا، وأنه رقص مع حبيبته الأخيرة في عرسهما على أنغام موسيقى القِرَبِ المصنوعة من جلود الماعز، وحوله أصدقاء رائعون يحبُّونه؛ لأنه لم يتردَّدْ في مساعدتهم.

ولأنني رأيت في عينيه طِيبَةَ أبيه وحنانَ أُمِّهِ وامتنانَ خالَتِهِ التي كان يُصْلِحُ لها سور الحديقة، فرأيتُ أمامي إنسانًا رائِعًا تصادف أنه يقوم الآن بمهمة، وينفِّذُ الأوامر في المنطقة التي أعمل بها.

t.me/qurssan

وهـم يـردُّون عـلى هجومنـا المباغـت عليهـم ليلـة أمـس، والـذي أوْقَـعَ منهـم قتـلى وجرحـى. وقـد تمكَّنـوا اليـوم مـن التوغُّـلِ داخـل معسـكرنا، حيـث أحرقـوا الخِيـامَ، وقتلـوا الجرحـى، وصـاروا يقتلـون الأطبَّـاءَ. فكانـت اللحظـة حيـث التقـت عينانـا سريعـةً وخاطِفَـةً. لكننـي رأيـت خلالهـا حياتـه كاملـة. ورأيـت أنهـا أغـلى مـن أيِّ اعتبـار أتى لأجلـه، وأهـم مـن وعـود رجـال معبدهـم، وأكاذيـب آلهتهـم. ومـع ذلـك صوَّبْـتُ تجاهـه، ورأيتـه، وهـو يسـقط عـلى الأرض، ويتهـاوَى كبنـاء شـامخ، عـلى مَهْـلٍ، يميـل نحـو الأرض، فتتسـاقط منـه الذكريـات والأحـداث والشـخوص، ويهـوي عـلى كتفـه، مُمْسِـكًا بسـلاحه الـذي سـقط مـن يـده في اللحظـة التـي ضرب رأسـه الأرض، والـذي نشـع بالـدم في الحـال، بينـما كنـت أصـوِّب نحـو آخريـن، وأتقهقـر هاربًـا. هكـذا لأتحـوَّل في لحظـة مـن مُضَمِّـدٍ للجـراح إلى قاتـل رغـم كل شيء.

كنـت مُضْطَـرًّا للقتـل. وكنـت مضطـرًّا للهـروب، وإلَّا لعـدت إليـه، وضمَّـدْتُ جُرْحَـهُ؛ ليعـود لابنتـه، ولهمسـتُ في أذنـه ألَّا يُصَـدِّقَ الحُـكَّامَ ورجـالَ المعبـد، وأن يعمـل كبسـتانيٍّ أفضـل لـه. وكان سـيقول لي إنـه إذا عمـل الجميـع في زراعـة الزهـور وتهذيـب الحدائـق؛ فـإن الجيـوش سـتأتي مـن كل اتِّجـاه، وتدهـس الزهـر والأطفـال والنسـاء، ولـن يبقـى وطـن. وكنـت سـأنظر في عينيـه، وأقـول لـه انْـجُ بحياتـكَ الآن. عُـدْ إلى ابنتـك، أو اسـتمر في القتـال، ولكـن لا تجعلنـي أراك مـرَّةً أخـرى،

t.me/qurssan

ولا تُهَاجِمْ مَشَفًى للجنود المصابين؛ لأنني في المرّة القادمة، سأكون مضطرًا لقتلك. وكان سيشعر بأنّه في حلم، لن يحاول الإفاقةَ منه، بل سيجري دون أن ينظر خلفه.

لكنني لم أَعُدْ له؛ لأنّنا كُنّا مضطرّين لإخلاء المنطقة، والنجاة بحياتنا. فهل ما زلتِ تسألين يا ابنتي، لماذا لم نسمح لك بأن تكوني معنا؟

لست واثقًا من أننا فعلنا الصوابَ بشأنكِ، فرغم كل شيء، توجد أشياء جميلة هنا. والناس يتحايلون ليعيشوا. ويغضُّون الطَّرْفَ مُنْهَمِكِينَ في اللعبة. يفرحون ويحزنون ويتقاتلون لأجل أشياء تافهة. هذا التهافُتُ الذي يبدو لي أحيانًا عملًا عظيمًا؛ لأنه يجعلهم ينشغلون بركاكة الواقع عن بشاعة المصير. إنهم أبناء الحياة، وأنا لم أَعُدْ أنظر لهم بِتَرَفُّعٍ؛ لأنني عرفت أن مصائرنا جميعًا مُعَلَّقَةٌ بأشياءَ تافهة، تحيينا وتهلكنا. وشئنا أم أبينا؛ فإننا نفرح ونحزن لأسباب تَخُصُّنا، وقد لا تعني شيئًا للآخرين.

كفتاة رقيقة وحالِمَةٍ مثلكِ، كان يمكن أن تُحِبّي هنا أشياءَ كثيرة: ربما الاستماع للماء المندفع عند نَبْعٍ مُحَاطٍ بالزهور في أعالي «أورنارا»، أو الجلوس ساعة الغروب في «أورشمايا» بَلْدَةِ أُمّك، حيث تمتلئين بسحر الألوان، حتى تسمعي صوتها، كما كانت تشعر «إميلدا». كنت ستحبّين أن تجلسي عند حافّة الوجود، تراقبين السماء، وما

t.me/qurssan

بها من أجْرَامٍ تدور، مُنْدَهِشَةً أن ثَمَّ إيقاع واحد للرقصة، ينبض مع إيقاعك، وكأنك من تنظِّمين حركةَ الكون بِدَقَّاتِ قلبك.

كنت سَتُحِبِّين الاستماعَ للمُغَنِّي الغجري حاملِ الآلام، وهو يعزف ألحانه الموجِعَة، ويسرع إيقاعها حتى الجنون، لكنها تظلُّ رغم ذلك حزينة، حتى أن الفتاة الغجرية، بتنُّورتها الواسعة المزركشة، وهي ترقص على الأغنية، لا تملك في آخر الرقصة، وهي تقفز وتتمايل لتلحق بالإيقاع إلَّا أن تبكي، وتواصل الرقص بعينين دامعَتَيْن، يشوِّشان رؤيتَها للمروج من حولها، ويجعلانها ترى وسط الأشكال المتداخلة أسلافها، وهم يرتحلون بين البلاد تاركين الأوطانَ للمحاربين، وباحثين عن أرض بلا أطماع، فقط كي يستطيعوا أن يعلِّموا أبناءهم الرقصَ والغناء.

وكنت يا حبيبتي، وأنت ترقصين ستحبِّين نظرة ذلك الشاب الطيِّبِ من بين كل الذين ينظرون لك، من بين عيون العجائز المَوْشُومِينَ، والنسوة اللاتي يفوح مِنْهُنَّ رائحة الحليب، والرجال الذين حَمَّرَتْ الشمسُ بشرتَهم، والشباب المغرورين، والشابَّات الغيورات، والقطط التي تعبر وتلقي نظرة، والعازف الذي يبتسم رغم مرض أُمِّه، والرجل السمين الذي يُفْرِطُ في الشراب، ومن بين شباب آخرين أذكياء ووسيمين، كان قلبك سيخفق دون سبب واضح لأجل تلك النظرة بالذات. وكان ذلك ليظهر في رقصتك أُمْنِيَاتٍ وأحلامًا، وبيتًا

t.me/qurssan

وزهـورًا وعصافـيرَ، وقَـوْسَ قُـزَحٍ، وغابـةً وجبـالًا وجَـذْوَلًا وأسـماكًا، فيصفُق النـاس ويشـهقون؛ لأنهـم يشـاهدون رقصتـك تجسِّـد كل أشـياء العالَـم.

وكان الشـاب سـيأتي مُعَـبِّرًا عـن إعجابـه برقصتـك، شـاعرًا بالخجـل؛ لأن كلماتـه عادِيَّـةٌ، لا تليـق بجمالـك، ولكنـك ستبتسـمين لـه، فتضيـق عينُـكِ اليُمْنَـى قليـلًا كـ«إميلـدا»، فيشـجُعه ذلـك ليدعـوك إلى الحديقة، حيـث تحتارين في اختيـار ثـوب اللقـاء الأول، وتلبسـين ثيابًـا مزدحمـة بالـوردات الصغـيرة الحمـراء عـلى القـماش الأبيـض الشـفاف، ثـم تخلعينهـا، لأنـك لا تريديـن أن تكـوني حديقـةً أُخْـرَى تسـير، وتجرِّبـين رداءً أَسْـوَدَ مُرَصَّعًـا بالنجـوم الذهبيـة، لكنـك سـتخلعينه أيضًـا، لأنـه لا يناسـب مَوْعِـدًا أوَّلًا في حديقـة صباحيـة. وكنـتِ في النهايـة سـترتدين ثوبًـا مـن فراشـات رقيقـة وكثـيرة، تمسـك ببعضهـا، وتنظريـن في المـرآة، فترينهـا، وهـي تطـير مُحَلِّقَـةً نحـو السـماء مبتسـمة، وتاركـةً جسـدك الخجـلان وسـط زهـور الحديقـة، التـي سـتسرع لتصنـع مـن بتلاتهـا تَنُّـورَةً، تُدَثِّريـنَ بهـا خجلـك.

نعـم كنـت ستعيشـين في صِبَـاكِ ومطلـع شـبابك مَشَـاعِرَ حُلْـوَةً تتدفَّـق داخلـك، وتحملـك إلى عوالِـمَ جديـدة. ولسـت واثقًـا كيـف كنـت سأشـعر حيـال ذلـك؛ لأننـي أيضًـا خضعـت في طفولتـي لما يفعله رجـال المعبـد بالعقـول. لكنـك كنـت سـتخلبين ألبـاب النـاس بجمالـك، وأنـت تشـاهدين مـن قبـل الـزُّرَّاع، تسـيرين بـين المـروج، وتنشـدين

t.me/qurssan

بصوتك الجميل أغنياتٍ تجعل الآلهة تستيقظ وتفكّر.

وكانت «أورنينا» إلهة الغناء التي منحتُك اسمها، ستشعر بالسعادة؛ لأن صوتك يذكّرها بصوتها، وهي في سِنِّك، ولأن غناءك ينبع مثلها من بئر مسحورة، ويحمل رنينه صدى الآلهة في أيامها الحلوة، وأيضًا لأن صوتك سيذكّر الجميع بصدى من صوت «إيلوما» صديقتها؛ إلهة الطهارة، التي لم نعد نعرف ما إذا كانت تعيش أم ماتت؛ لأنها لم يعجبها ما يفعله رجال المعبد، واعتكفت منذ زمن بعيد، منذ دنّسوا اسمها، قائلين إنهم يمنعون الحُبَّ بِأَمْرٍ منها، وهي لم تَقُلْ ذلك أبدًا، بل كانت لها أنشودة شهيرة، غنّتها في صباها مع «نانار» إله القمر. كانت تقول فيها إن الحب هو الطهارة. وتطلب من الناس ألّا يَحْشُرُوا أنوفهم، وأن يتركوا العشّاقَ يستمتعون مع مَنْ يحبُّون في أمان، مُشَبِّهَةً الحب بالموسيقى. ويرد عليها «نانار» بأنه عاش أسعد أيامه عندما وقعت ابنته «نورسين» في الحب، وأنه كان يختبئ خلف أغصان الأشجار، ويلقي إليها بضوء خافت، وهي تُقَبِّلُ حبيبها «نوريل»، وتعانِقُه، بينما يتفنّن في العزف على أوتارها. ولكنَّ الكهنة أَخْفَوْا هذه الأغنيةَ وغيرها؛ لأنها كانت تجعل الناس يشعرون بِلَذَّةِ العشق دون إحساس بالذنب، ودون رغبة في الاستغفار وتقديم القرابين.

هكذا كان صوتك ليجسُّد كل تلك المعاني، ويوقظ الناس في

t.me/qurssan

كل مكان. وما كنت واثقًا وأنا أختار لكِ اسْمَ إلهة الغناء أنَّها ستمنحكِ على الفور صوتها. وهل لو كنت سمَّيْتُكِ «زوفين»، كانت رائحة العطر ستفوح من جسدك؟ ولو سمَّيْتُكِ «ناهيرتا»، هل كنتِ ستُشِعِّين بالنور في كهوف أيّامنا المعتمة؟ حلمت يومًا أنني أسميتُكِ «شمايا» ولكن أمَّكِ خافت أن تصبحي عالية، فلا نستطيع لَمْسَكِ.

استيقظتُ ذات صباح على صوت عصفور يغرِّد عند النافذة. فجال بخاطري أن أسمِّيَكِ «سافرونتا». وفي ذات اليوم نزلت لأتنزَّه مع أمك في الغابة القريبة، حيث كانت تُعاني أعراضَ الحمل بك. ورأينا نخلة جميلة، يتدلَّى منها تَمْرٌ بلون الكهرمان، يقطر شَهْدًا يَنِزُّ على الجذع، فجال بخاطر أمِّكِ أن تسمِّيَكِ «تمارا»، ولكنني وجدته اسْمًا شائِعًا في بلادنا. وكان أن رأينا حمامة صغيرة بالكاد تتعلَّم الطيران مع أمها، ففكَّرنا معًا أن نسمِّيَكِ «ياونينتا»، لكن أمَّكِ تراجعتْ وقالت: نريد اسمًا يظلُّ صالِحًا لها عندما تكبر، وتصبح أمًّا.

هكذا كُنَّا في البداية نفكر ككل الناس هنا وفي «أورشمايا»، وحتى في «أوركينا». كنَّا نسعى لاختيار اسم يليق بك، وبعدها كنَّا سنبدأ في الاستعداد لقدومك بحياكة ملابس صغيرة لتوضَعِي فيها عندما تولدين، ورحت حتى أفكر: أيُّ العازفين المَهَرَة سيعلِّمُكِ العزفَ

t.me/qurssan

على «الكينورا». كنّا منذ علمنا بأنّ بذرتك قد تكوّنتْ، نفكّر مثل الناس، رغم أنّني وأمّكِ كُنّا نقول دائمًا:

- لا نريد أن ننجب أطفالًا في هذا العالم. لا نريد أن ننجبهم ليعانوا ويمرضوا ويموتوا، في عالم مُبْتَذَلٍ وفوضويٍّ.

لكن عندما علمنا بأنك على مقربة، نسينا، وانهمكنا في اختيار اسمك، وفي الاستعداد لتكوني معنا. وفجأة عاد رجال معبد الصحراء من جديد، وحاصر أتباعُهم المحاربين في قلعة المدينة، وحاصروا المعبَدَ الشرقيَّ نفسه، وبدأ التّطاحُنُ، ولم نعد نعلم مَنْ يقتل مَنْ. ولمّا انتصر المحاربون قتلوا الكثيرين منهم. وصاروا يَفْتِكُون بِكُلِّ مَنْ يخرج على طاعتهم. وفي هذه الأثناء سجنوا «أبيلتا» الجميلة؛ لأنّها كانت تطالب بالحرية. حرّضت الناس ليقاوموا، من أجل حقوقهم، فاقتادوها إلى السجن، وحبسوها وحيدةً في غرفة مظلمة تحت الأرض، بلا نافذة، حتى أنها لم تَكُنْ تعلم الليلَ من النهار. صارت «أبيلتا» تَضْمُرُ، حتى ماتت، فدفنوها في أرض محبسها. وكان البعض يقول إنها تستحق؛ لأنها أغضبت حُمَاةَ الوطن ورجال الآلهة، ولم تَرْضَ مثل الناس بالحياة كما قَسَمَهَا التّاسُوعُ. ولا عَجَبَ فالجبناء يكرهون الشجعان، والأوغاد يَمْقُتُونَ الشرفاء.

ولما علمت «نوهرا» بأنهم دفنوا ابنتها، نهضت وارتدت أجمل ثيابها، وصعدت فوق تَلَّةٍ تُطِلُّ على المقابر. وظلّت تبكي

t.me/qurssan

بـ«كينورتهـا» حتـى مـلأ البـكاء كل مقـبرة، وكل بيـت في «أورنـارا». وذهـب البـكاء مـع النهـر حتـى قبائـل المصـبِّ. وصـار البـكاء سـحابةً رماديَّـةً، تـذرف الدمـوع فـوق البـلاد شـهورًا. وعجـز النـاس عـن الـكلام لأن حلوقهـم صـارت تـردِّد صـدى بـكاء «الكينـورا».

ظلَّـتْ «نوهـرا» تعـزف نحيبَهـا حتـى ماتـت في مكانهـا. إنـه الموضـع الـذي اتَّخَـذَهُ زوجُهـا «نوربـا» مكانًـا لكوخـه، ومـا زال يعيـش فيـه إلى الآن، تـاركًا المدينـة بآثامهـا. وقـد عـاد إلى كآبتـه أكـثر مِـمَّا كان؛ لأن «أبيلتـا» هـي آخِـرُ مَـنْ اعتقـد أنـه خُلِـقَ لينقذهـا، وقـد أدَّى مـا عليـه تجاهها، حتـى صـارت زهـرةً تمـشي عـلى الأرض، لكـن المحاربـين دهسـوها بأحذيتهـم الغليظـة، دون رحمـة. وهـم الذيـن كانـوا ينسـحقون أمـام الأعـداء، ويعقـدون الصفقـات، ويتنازلـون عـن الأرض؛ حفاظًـا عـلى مكاسـبهم.

العـالم هنـا أقـسى مـمَّا تتصوَّريـن يـا حبيبتـى. وأنـا لم أكـن قويًّـا بمـا يكفـي لأتحمَّـل أن يقطفـوا زهـرة شـبابك، ويضعـوكِ في سـجن تحـت الأرض. كنـت لأقاتـل العـالم، وأحرقـه حتـى يتفحَّـم لأن قوانينه سـمحت لأشرار ملعونـين أن يَدْهَسُـوا جمالَـكِ.

فكَّـرتُ أننـي بِحُكْـمِ قـربي مـن المحاربـين يمكـن أن أوفِّـر لـك حمايـة مـا، ولكـن قـدرتي عـلى ذلـك كانـت سـتتوقَّف عـلى أن أجعلـك مَسْـخًا جبانًـا، تعيشـين وتفكِّريـن كـما القطيـع، وكانـت سَـتُرْتَهَنُ بوجـودي إلى جـوارك.

t.me/qurssan

لقد خفتُ أن أموت في أيّة لحظة، وأتركك فريسة لمصير مجهول. ولأن ما فعلوه بـ «أبيلتا» فاق كل وصف؛ فقد خفنا عليك، وقرّرنا إنقاذَكِ.

كنتِ في الطريق، وكل شيء دفعنا لمنعكِ. صارت أُمُّكِ تبكي؛ لأنها أرادت إنقاذك، وفي الوقت نفسه تشتاق لرؤيتك. أما أنا فعلمت كطبيبٍ سابق خطورةَ الأمر. ليس فقط على «إميلدا»، ولكن عليك أيضًا؛ لأن هذه الأمور قد تفشل، فيولد الطفل مُشَوَّهًا. وكان هذا مُرْعِبًا. لذلك حاولت البحث عن طريقة آمنة. وتردّدتُ في إتمام الأمر. كانت أُمُّكِ قد أخذت القرار؛ لأنها لم ترد أن تجلبك إلى الحياة في هكذا وطن، حيث الجهل جَنَّةٌ يتمرَّغ فيها الكهنة والمحاربون، ويسوقون الرعاع ومن خلفهم الأوطان إلى الجحيم.

ظلّت «إميلدا» تحدّثُكِ كلَّ ليلة وتبكي، تخبركِ بسوء الأوضاع، وبالأخطار التي يمكن أن تتعرضي لها هنا. رحت أسأل عن وصفات جديدة أكثر فاعلية وأمانًا مِمَّا أعرف. فعلت ذلك بِحَذَرٍ، تَجَنُّبًا للملاحقة والازدراء. لم أكن قادرًا بعد أن تركت الطِّبَّ، وبعد هروبنا الطويل، وما عانيناه أن أتولّى الأمر. بحثنا عن طبيب يمكن الوثوق به ليمنعك من القدوم. وجدنا بالكاد مساعدة لطبيب، تقدّم العون لمن يريدون إنقاذ أبنائهم. كانت واثقةً من عملها. لكننا مع ذلك عشنا تجربة مريرة، ومخاطرة حقيقية، خضناها سويًّا متماسكي الأيدي، لنقتسم الألم بيننا. كنّا ندفعك باستماتة؛

t.me/qurssan

كي لا يُـزَجَّ بـك إلى العـالم. عشـنا ليلـةً رُعْـبٍ ثقيلـة، كانـت «إميلـدا» خلالها عـلى حافَّـة الموت. عانـت أَلَـمًا لا يُحْتَمَـلُ. غابـت عـن الوعـي. فقـدتْ الكثـيرَ مـن الدمـاء. صـار وجهُها بلـون أوراق الخريـف. لم يكـن الوقـت يَمُـرُّ. واعتـصرني النَّـدَمُ عـلى مـا فعلنـا.

أفاقـت في الصبـاح، لكنهـا عاشـت يومـين مـع آلام مُهْلِكَـةٍ. وفي اليـوم الثالـث ارتفعـت حرارتُهـا، فأصابنـا الهلـع. غابـت عـن الوعـي مـن جديـد. حلَّـق المـوت فـوق رؤوسـنا، ونـشر جناحَيْـه فَأَعْتَـمَ الأُفُـقُ. وفي اليـوم التـالي أفاقـت، وكانـت مُنْهَكَـةً بِشِـدَّةٍ. قضيـت نهـارًا مـن الترقُّـب. تحسَّـنَتْ قليـلًا، ثـم دخلـتْ أسـبوعَيْن مـن التعـافي البطـيء، حتـى تأكَّدنـا أنَّكُـمَا نَجَوْتُمَـا: هـي مـن المـوت، وأنـتِ مـن الحيـاة.

لقـد خاضـتْ أُمُّـك معركـةً إنقـاذك بشـجاعة. وظلَّـتْ رغـم ذلـك تتألَّـم وتبـكي لأجلـكِ. وظلَّـتْ تحدِّثُـكِ راجِيَـةً أن تتفهَّمِـي مـا حـدث. وقـد تفاقمـت الأحـداث المأسـاوية في «أورنـارا» وقتهـا، لكنهـا كانـت بالنسـبة لنـا بَلْسَـمًا يُضَمِّـدُ جُرْحَنـا؛ لأنهـا جعلتنـا نوقِـنُ أننـا فعلنـا الصـواب، وأننـا أنقذنـا ابنتنـا وثمـرةَ حُبِّنـا مـن الحيـاة في بـلاد تُعـادي الحيـاة.

قـد تعتقديـن أننـي ضعفـتُ عـن مواجهـة العـالم، أو ضَنَنْـتُ عليـكِ بواجبـات الأُبُـوَّةِ، ولكـن لـو كنـتِ معنـا لعرفـت أن الأمـور كانـت أقـوى مـن أيِّ أمـلٍ في المقاومـة. كنـا سـنجلبُكِ إلى حيـاة بائسـة. لقـد

t.me/qurssan

خُضْتُ معارك عديدة، وفعلتُ أشياء لا يُسْتَهَانُ بها، ووقفت ضدَّ قُوًى، كان يمكن أن تسحقني، وتحمَّلتُ مُنْفَرِدًا كافَّة التَّبِعَاتِ، لكن السماح لك بالحضور إلى الحياة، كان بمثابة مُقامَرَةٍ خاسرة. وكنتِ أنتِ مَنْ ستدفعين ثمنها، إذ مهما فعل الآباء ليس بمقدورهم أن يحملوا عن أبنائهم الألَمَ والامْتِهَانَ، وأحاسيسَ الضياع والـلا جدوى. لم يكن بمقدورنا أن نضمن لكِ الأمان، في عالم تضربه الفوضى.

النَّاس يتحدَّثون هنا عن أشياءَ جميلة في الحياة، ولست أُكَذِّبُهُمْ، فهنا توجد أيضًا لحظات سعادة: عندما تنجحين في إنجاز شيء ما، وعندما تومض في عقلك فكرة لم تَرِدْ على عقلٍ من قبل، وفي اللحظة التي تُحَوِّلين أفكارك إلى واقعٍ، وعندما تتمكَّنين من إسْعَادِ أناس آخرين، وتشاهدين نظرات الامتنان في عيونهم، أو تخبِّئين نفسك، كي لا يكونوا مدينين لك بشيء، والحب أيضًا سعادة خالصة.

البعض يرى لحظات الشفاء والنجاة ضمن أوقات السعادة. لكنني لم أتمنَّ أبدًا أن تَمُرِّي بها؛ لأنها دائمًا مسبوقة بالآلام. وما معنى أن يتمَّ دفعنا لنسقُطَ فنُصَابَ بالفزع والرعب، ثم يتم الإمساك بأيدينا في اللحظة الأخيرة، ويكون علينا أن نفرح ونَمْتَنَّ؟! ولماذا تُطْلَقُ علينا كائنات صغيرة لا نراها لتأكل أكبادنا، ثم نشعر بالسعادة والرضا، لأن جزءًا من أحشائنا قد نجا؟ إنه واقعنا على كل حال. والناس الذين قادهم حظُّهم ليكونوا هنا هم مناضلون

t.me/qurssan

حقيقيُّون، وهم يحاولون فقط أن يُقَلِّلُوا من آلامهم وعذابهم، ويعيشوا.

لم يكن بوسعي أن أجلبكِ إلى الحياة، لِتَجِدِيهَا بكل هذا القَدْرِ من الفوضى والخشونة واللامبالاة؛ لذلك أطلب منكِ أن تسامحيني، وأن تسامِحِي أُمَّكِ، وأن تلتمسي لنا الأعذار، وتُقَدِّرِي ما فعلناه لأجلك، وأن تَهْنَئِي بالسكون والسكينة، وبالأمان التام والراحة المطلقة، حيث لا شيء يؤلم، وحيث لا ابتذال ولا إذلال ولا ألعاب خرقاء ووعودًا كاذبة.

قلتُ لـ «إميلدا» إن علينا أن نفرح؛ لأننا أنقذنا ابنتنا الحبيبة. كانت تمرُّ بحالة من الحزن، وجاء اليوم الذي كنتِ ستولدين فيه، فخرجنا لنحتفل. سِرْنَا في الحدائق، وجمعنا الزهور لأجل طقوس ميلادكِ. وصرنا نتشمَّم رائحتها الجميلة، ونتنسَّمُ معها رائحتكِ. كنَّا نغمض أعيننا، فنراكِ حيث أنتِ في أمانك التام، نائمةً في مخدع من ورود. واصلنا السير، وصرنا نجرِّبُ الأسماء التي تصلح لك من جديد. سمَّيْنَاكِ «برولا»؛ لأننا رأينا أنَّكِ جوهرةُ حياتنا، وسمَّيْنَاكِ «كالونتا»؛ لأن أمَّكِ بَكَتْ وهي تتخيَّلُكِ بملابس العُرْسِ، وسمَّيْنَاكِ «إيثوثا»؛ لأنكِ كنتِ الوجود لنا، وسَمَّيْنَاكِ «شافير»؛ لأنك جميلة بشكل لا يُصَدَّقُ، وسَمَّيْنَاكِ «روزو»؛ لأنَّكِ كنتِ سِرَّنَا الدفين.

لكن عندما أطلقنا عليك اسم «أورنينا» تذكَّرنا ما حدث لأورنينا؛

t.me/qurssan

تلك الفتاة التي وُهِبَتْ أيضًا صوتُ إلهة الغناء والموسيقى، وكانت جميلة ورائعة. وعندما تغنّي كأنَّ أنهارًا من لَذَّةٍ تتدفَّق في أجسادنا، وتصبُّ في قلوبنا. وكان أن رآها أحد المحاربين، واستمع إليها، وفكَّر أنها يمكن أن تكون مفيدة جدًّا لبلادنا «أورنارا»؛ لأن ملك الأعداء في «أوركينا» كان مُولَعًا بالموسيقى والنساء، ولأنها كانت تجمع بين جمال الأنثى، ورِوْعَةِ الصوت؛ لذلك أخذها، قائِلًا إنها ستقوم بخدمة كبيرة لأرض وشعب «أورنارا».

لم تكن الفتاة المسكينة تعلم عن أيِّ شيء يتحدَّث. كانت بريئة ونقيَّةً. وما أن أخبرها، وقال لها هكذا ستفعلين، حتى بكت؛ لأنه أخذ يصف لها كيف ستغنِّي في حديقة قصر الملك، وكيف أنه سيسمعها، ويطلبها في حجرته، وعندما يراها سيركع تحت قدميها، ويعطيها زهورًا وجواهرَ مُقَابِلَ أن تنام عاريةً في فراشه، حيث سيظلُّ طوال الليل يستمع لغنائها، وهو يَلْعَقُ جسدَها بلسانه، وينام بلحيته البيضاء الكثيفة على بطنها.

خافت الفتاة، ورفضت، وقالت إنها لا يمكن أن تفعل هذا. أخبرها بأنه عجوز لن يمسَّ عُذْرِيَّتَها، ثم هدَّدها بِفَضْحِ ما فعلت في حديقة الملائكة مع الشابِّ الذي يعزف على «الكينورا»، وكيف أنه رآها، وهي تستسلم بين يديه بعد أن قَبَّلَهَا، وقد رفع ثوبها وتَحَسَّسَها. وهنا بكَتْ «أورنينا»؛ لأنها كانت في الحديقة مع

t.me/qurssan

شخص تُحِبُّه، ولأنها فعلت ذلك وهي تشعر بأنه أجمل ما حدث في حياتها، لكن أن تَتْرُكَ الملكَ العجوز الشاذَّ يَلْعَقُ جسدها، وهي مستلقية تُغَنِّي؛ فهو أمر مُقَزِّزٌ. ولمَّا كان شعب «أورنارا» لا يُفَرِّقُ بين الحبِّ والبغاء؛ فقد خشيت الفتاة من الفضيحة، وضعفت مقاومتها.

ذهبت «أورنينا» إلى المعبد، لتستخير الآلهة، فأرسل لها المحاربُ الكاهِنَ الأكْبَرَ بنفسِه ليحرِّضَها على القبول. قال لها إن عملها هو لأجل نصرة الإله الأكبر في قدس الأقداس، وأن تاسوع الآلهة سيكافئها بالسعادة في الدنيا، والخلود بعد الموت. وبين تهديد المحارب، وتحريض الكاهن، استسلمت «أورنينا». أخذها المحارب، وجهَّزها لِتُوقِعَ بملك «أوركينا». وقد انبهرت عندما دخلت قصر الملك، وشاهدت أشياء لم تعرفها في بلادنا، كما أن الملك السكران راح يحكي لها عن طريقته لإدارة بلاده، والمسمَّاة بلاد العدالة، وكانت تعلم أنه مجرَّدُ اسْمٍ، وأن الملك كان يقسم شعبه إلى طبقات، ويرى في ذلك قمَّةَ العدل.

عادت «أورنينا» بما طلب المحارب، وظنَّتْ أنها أصبحت حُرَّةً بعد أن تركت الملك العجوز يَلْعَقُ جسدها خِدْمَةً للوطن، ونُصْرَةً للإله الأكبر. لكن المحارب أراد أن يستعملها محظيَّةً له، وليُوقِعَ بها منافسيه. وكان أن انكشف الأمر، فقتلها أحدهم انتقامًا. لذلك

t.me/qurssan

يـا حبيبتـي فإننـا لسـنا واثقـين مـن أننـا اخترنـا لـك الاسـم المناسـب. لقـد أعطينـاكِ الاسـم لأنـه كان لإلهـة الغنـاء والموسـيقى، ولأننـا أمّلْنَـا أنـه سـيمنحكِ جـمال الصـوت، وسـيجعلكِ معبـودة، يخفـض الجميـع رؤوسـهم إجـلالًا لـك عندمـا تعبريـن. لقـد أردنـا أن تكـوني إلهـة، ولم نقصـد أبـدًا أن يَفْـتِنَ صوتُـكِ وجمالُـكِ المحاربـين وملـوكَ الأعـداء. لم نُرِدْ يـا «أورنينـا» أن يرسـلوا لنـا جُثَّتَـكِ في صنـدوق، ويقولـوا هـذه ابنتكـم، سـقطت مـن شرفـة أحـد القصـور، دون أن يكـون مـن حقِّنـا أن نسـأل عـن سـبع طعنـات في جسـدك، ولا عـن آثـار حـروق في صـدرك، ولا عـن وجهـك المـزرقِّ اختناقًـا، ولا عـن البنايـة التـي كان يؤجِّرهـا أحـدُ الكهنة للمحاربـين، والتـي خرجـتْ جُثَّتُـكِ منهـا. لذلـك فقـد حملنـاكِ، أغنيـةً مُلَطَّخَـةً بالدمـاء، وشـيَّعْنَاكِ أنـا و«إميلـدا» إلى ظُلْمَـةِ القـبر، وحفرنـا عميقًـا جـدًا، وأغلقنـا عليـك بإحـكام، حيـث سـتكونين أخـيرًا، وبِحَـقِّ هـذه المـرةَ في أمـان تـامٍّ، وحيـث لـن يسـتطيع أحـد أن يبتـذل جمالـك وصوتَـكِ مجـدَّدًا، وأن يحوِّلَـكِ مـن إلهـة إلى بغـيٍّ، وأن يفعـل هـذا باسـم «أورنـارا» وشـعب «أورنـارا» ومعابـد وآلهـة «أورنـارا». فلتسـقط «أورنـارا» بمحاربيهـا ومعابدهـا وآلهتهـا، بسـوقتها وسـادتها وعبيدهـا، بأبنيتهـا وشـعبها، بأغانيهـا وتراتيلهـا، بحاضرهـا وتاريخهـا. لِتَعْقُـمَ نِسَـاءُ «أورنـارا» إلى الأبـد كي لا يَلِـدْن محاربـين ولا كَهَنَـةً ولا مُغَنِّيَـاتٍ، لِتَنْمَحِي «أورنـارا» مـن الوجـود، ولتوضـع مكانهـا لعنـةٌ تخيـف الأشـباحَ الهائمـة

t.me/qurssan

كي لا تقترب من جحيمها. هكذا كنت أقول بينما كانت «إميلدا» تعضُّ بأسنانها على حافّة قبركِ. ولم يكن لي من مخرج بعد أن رحلت أمُّك بَعْدَكِ بأيّامٍ سوى أن أعيد القصة من أولها، وأن نأخذ القرار الصائب، وهو أن نبقيكِ آمِنَةً، وألّا نُخَاطِرَ بكِ.

أورنينا الحبيبة، يا زهرةَ عمري التي ضيّعتُها، أُعَرِّفُكِ يا حبيبتي أنني أدفع الآن الثمنَ، وحيدًا بعد رحيلك و«إميلدا». وما زلت بعد مرور تلك السنوات أفكّر فيما جنيناه عليكِ. كان بإمكاننا أن نتركِكِ حيث الأمان التام. لقد خدعنا أنفسنا، إذ منحناك اسم «أورنينا»، وإذ مَنَحَتْكِ صوتَها، وإذ زرعناكِ كزهرة، وربَّيْنَاكِ كزهرة، وإذ سَعِدْنَا بالفراشات تحوم حولكِ، فالعالم ليس حديقةً، والناس ليسوا فراشات. لقد مرَّ الوقت سريعًا، منذ سمحنا لك بالعبور حتى سَجَّيْنَا جسدَكِ. هل فعلنا كما يفعل الناس؟ لقد حظينا بطفلة رائعة، واستطعنا رغم كل شيء أن نجعلك سعيدة. وكنت تؤنسين وحدتنا. كنا نحكي لك عن رحلة هروبنا، وعن كوخنا عند مصبِّ النهر، وعن القارب الذي عشنا فيه، وعن مزرعة الكروم، وقَبْوِ النبيذ. وشعرنا رغم كل شيء بامتنان للعالم. ولم نشأ أن تحرمك مخاوفنا من أن تعيشي، وتشاهدي، وتجرِّبي؛ لأننا لم نُرِدْ أن نكون كالآباء الذين يشعرون بامتلاك أبنائهم، فيُبْقُوهُمْ بجوارهم كثمن لِجَلْبِهِمْ إلى العالَم. ما كنت لأدعوكِ للحياة، ثم أطلب منك

t.me/qurssan

المقابـل؛ فالآبـاء ينجبـون؛ باختيارهـم. لذلـك تَرَكْتُـكِ لحياتـكِ مُخْفِيًـا قلقـي. كنـت أعـرف أن جَعْلَـكِ سـعيدة؛ يقتـضي أن نَكْفُـلَ لـكِ وطنًـا أفضـلَ، ولم يكُـنْ هـذا بوسـعنا. ورغـم أننـا فعلنـا كل شيء لتكـوني آمنة؛ لكننـا أخفقنـا، وكان الثمـنُ ضياعَـكِ.

لكنـك سـتظلّين فراشـتي الجميلـة، التـي أبهروهـا بالضـوء فاحترقـت، وأغروهـا بالعطـر فاختنقـت. فالحيـاة يـا حبيبتـي فِخَـاخٌ. والفخـاخ بطبيعتهـا جميلـة ومُغْوِيَـةٌ، فالنـور قنـاع النـار، والعطـر الحـالم أنامـلُ نسـيمٍ تتسـلَّلُ إلى صدورنـا، فـإذا تمكَّنَـتْ صارت مخالِـبَ شرسـة. لكنّنـا نخطـئ إذ نمعـن في الاقـتراب؛ لأن البقـاء يقتـضي أن نـرضى بالمسـافات، والإمعـان هـلاكٌ مُحَقَّـقٌ؛ ففـى أعـماق كل عـين حيـاة، تنتظرنـا هـوام المـوت. لكننـي المذنـب؛ لأننـي عرفـت أنـكِ صافيـةٌ كمـرآة، والنـاس مسـعورون لامتـلاك تلـك المرايـا، واهمـين أنهـا سـتبعث مـا خَفِـيَ مـن جمالهـم، فـإذا بهـم يـرون مُسُـوخَ نفوسـهم المرعبـة، فيتوحَّشـون مُحَطِّمِـينَ البِلَّـوْرَ اللامِـعَ، بـكل مـا لديهـم من أحقـاد. لذلـك كان أَوْلَى بي أن أتـركِ هنـاك، تنشـدين ترانيمـكِ في شرفتـك السـماوية، آمنـةً كإلهـة، لا يمسُّـها دَنَـسُ الحيـاة.

إنـه ذنبـي أنـا، مَـنْ لم أشـأ أن أكـون غنيًـا ولا فقـيرًا، قويًـا ولا ضعيفًـا، حاكـمًا ولا محكومًـا، ظالِـمًا ولا مظلومًـا، تابعًـا ولا مَتْبوعًـا، كـمًّا ولا عدمًـا، فقـط وجـودٌ لا يزيـد العـالم بـه، ولا ينقـص بدونـه. لم أشـأ سـوى

t.me/qurssan

أن أكون فكرة مكتفية بذاتها، ليست بحاجة لتأكل كائنًا لتعيش. شئتُ أن أكون مكتفيًا لا مُتْخَمًا؛ لذلك لم أستطِعْ حمايتَكِ؛ لأن البقاء في العالم للأقوياء والأوغاد، ولأن الحياة على قَدْرِ خِسَّتِهِمْ وتَدَنِّيهِمْ. كان عليَّ قبل أن أزرع زهرتك أن أضمن لها مكانًا لا تدهسك فيه الأقدام.

لقد فُجِعْتُ إذ أتَوْا لي بجثَّتِكِ، ومكثت إلى جوارك طوال الليل غائبًا، مُتَجَمِّدًا في اللحظة، مثبتًا عند أول الدهر، حتى حلَّ الصباح، وضربت الشمس عيني، فحملتك إلى قبرك. قالوا: لقد عذَّبوها، كانت آثار النار على جسدها، مزَّقوها بالطعنات، خنقوها حتى الموت، قالوا وقالوا. لكن حفَّارِي القبور بَكَوْا، واختلطت دموعهم بالتراتيل، واختلطت بثوبك، واختلطت بالتراب، وهو يُهَالُ على جسدك.

لكنني أنقذتكِ، فقبر مَنْ هذا؟ من أين أتَوْا لك بجسد ليدفنوه في التراب، وأنت معنًى جميل لم يُدَنَّسْ بالوجود؟ لقد فعلتُ وأُمُّكِ كلَّ شيء لإنقاذك. وقد خاطرتْ بحياتها حتى لا تأتي لمصير كهذا، وكادت تموت، وهي تمنعك من السقوط في الجحيم حيث نعيش. لا أظنُّ أنني دعوتكِ إلى المأدبة المسمومة. هل سمحتُ لكِ بالسَّيْرِ في غابة تملؤها الوحوش؟ هل تركتكِ تسيرين بين الفخاخ، ووقفت أتفرَّج؟ هل فعلت ذلك بكِ وأنت حبيبتي؟ هل قامَرْتُ بك وأنت

t.me/qurssan

قطعةٌ منّي؟ أم أنني بالفعل أنقذتك؟ إن اسمك على القبر مقرونٌ باسْمِي، والناس يردِّدون حكايتَكِ مع المحارب الكبير. الناس يقولون إنك كنتِ غَانِيَةَ المحارب. والبعض يقول: فعلت من أجل «أورنارا»؛ فماذا أنتِ بِحَقِّ الجحيم؟ أخبريني يا ابنتي.

إنكِ منذ رحلتِ جلستُ إلى جوار قبرك أبكي، حتى مَرَّ مَوْكِبٌ، وعرفت أنه لـ«إميلدا»، فحفرت لنفسي إلى جواركما، وصِرْتُ أنام، وأجلس معكما، أناجيكما طوال الليل، فإذا جاء الصبح آويت إلى قبري، حتى يأتي الليل، وتهدأ الأصوات. وكان حَفَّارُو القبور يمرُّون بي. وأشاهدهم، ينبشون التوابيت، ويسرقون لآلِئَها، ويبيعون حتى عظام الموتى. لذلك قرَّرتُ ألَّا أبرح مكاني؛ لأنني خفت أن تباع عظامكما. لقد صرت أشعر بالألفة هنا؛ لأنني صرت بعدكما ميِّتًا. إنني أرى القبور كل مساء تنير بأضواء برتقالية، وأشاهد داخلها شبابًا يقرأون، وآخرين يلعبون الورق، وثالثًا يقطع شرايينه ليلةً بعد ليلةٍ، ورابعة تجهض نفسها، وشيوخًا يقرأون «الإيلمار»، ونسوة يُرْضِعْنَ أطفالَهُنَّ، ومرضى الكبد يتألَّمون، وقد انتفخت بطونهم. الجميع في عزلاتهم متوحِّدون مع ما كانوا عليه. وحدي أراهم، لا أعرف ما إذا كانوا يشعرون بوجودي؛ لأنني لم ألمح منهم حركة خارج سياق ما يفعلون. وعند الفجر تُظْلِمُ القبور، وينامون، فأنهض أيضًا، وأذهب إلى مقبرتي لأنام.

t.me/qurssan

لقد قضيت أيامي إلى جوارك. وكنت أشاهد الزهور الصغيرة، وهي تنبت عند رأسك. إنها زهور لم يزرعها أحد. وربما زرعها حبيب لكِ رحل إلى بلد بعيد منفيًا. وحيث يمكن أن يكون قد عَمِلَ كعازف «كينورا» في ملهًى ليليٍّ ممتلئ بالدخان، ويمكن أن يكون قد أدمن الشراب إلى حَدُّ أن الأرملة الهالوكَ غانِيَةَ المَلْهَى قد دَأَبَتْ على امتصاص دمائِه كلَّ ليلة، أو لعله من قرَّر الارتماءَ على صدرها ليقتلع نهائيًا ذكراكِ. أيكون قد عادَ ذات يوم متخفِّيًا، وألقى حِفْنَةً من بذور تلك الزهور الغريبة والرقيقة؟ إن الفراشات تستحي أن تقف عليها أو تلمسها، وفقط تواصل التحليق قُرْبَها، مُتَيَمَّةً ونَاظِرَةً صَوْبَها، كأنَّما تمارس طقسًا تعبُّدِيًّا.

ربما يكون قد زرعها ابنُ حفَّار القبور الوسيم، ذلك الذي كان يرسم على المقابر خيولًا وسيوفًا وبيوتًا ونخيلًا وأشجارًا وزهورًا ومرايا ومكاحلَ وخناجِرَ صغيرةً وأباريقَ وزجاجاتِ شرابٍ وعناقيدَ كرومٍ وأوراقَ توتٍ وأجْنِحَةً ودُمًى وحَلْوى. وكان يعرف ماذا يجب أن يضع على كل قبر ما يجعل الروح ترقد في سلام. وكان يعرف كيف يجعل القبر ملائمًا لرجل أو امرأة أو محارب أو طبيب أو طفل. ولعلَّه من غرس تلك الزهرات التي ربَّما جلبها من مكان بعيد.

وربما يكون مَنْ غرسها عابرُ سبيل، أو شخص لا تعرفينه سمع بما حدث لك، فجاء ووضع زهوره ومضى. وقد يكون طائر

t.me/qurssan

مـا جلبهـا إلى هنـا، أو عاصفـة هبَّـتْ ليلـة مصرعـك حاملـةً معهـا دمـوع «أورنينـا» الإلهـة، فأنبتـت تلـك الزهـور. إنهـا عـلى كل حـال زهـورك التـي لا مثيـل لهـا. أغلـب الظـن أنهـا لم يبذرهـا أحـد، ولكنهـا خلاصتـك، فهـي لا تشـبه زهـور «أورنـارا» ولا «أورشـمايا»، وليسـت كزهـور «أوركينـا»، إنهـا زهـورك المعطـرة برحيقـك، والتـي تجتـذب تلـك الفراشـات الغريبـة التـي ترقـص بالقـرب منهـا، فراشـاتك الملونـة والرقيقـة، ذات الأجنحـة الشـفافة، والتـي تـضيء في المسـاء، وتظـل تهتـزُّ، وأسـمعها تُـرَدِّدُ أغنياتـك التـي كَـمْ جعلتنـا نُحَلِّـقُ.

صحيـحٌ لقـد صرتُ شـيخًا هَرِمًـا بذاكـرةٍ مراوِغـةٍ، وتعافيـتُ مـن نفـسي ونُبُـوَّتِي، لكننـي واثـقٌ مـن أننـي أنقذتـكِ في اللحظـة المناسـبة، وحميتـكِ مـن المـوت والألم، وجعلتـك مصونـةً رفيعـةً، بمنـأى عـن العبـث والفـوضى. وأبقيتـك في عِلِّيِّـينَ الإمْـكَانِ، ومسـتودع الأفـكار، لا تتورطـين في دَنَـسِ الحيـاة وركاكتهـا؛ لأننـي كنـت أعلـم منـذ البدايـة أن المـكان هنـا غـير آمـن، ولا يصلـح لاسـتضافة مـن نُحِـبُّ، وأنـا أحببتـك بجنـون؛ لأنَّـكِ ابنتـي، وابنـة «إميلـدا»، وتشـبهينها كثـيرًا. لذلـك كان يليـق بـك أن تَبْقِـي حيـث أنـتِ، لتظـلِّي فكـرةً نقيَّـةً في انتظـار أن يتنفَّسَـها عالَـمٌ نظيـف وشريـف، عـالم يقـدِر عـلى اسـتضافتك.

لقـد عشـتُ في المقابـر، وشـاهدتُ التوابيـت تذهـب إلى قبورهـا، وخلفهـا النائحـات. رأيـت توابيـت أمِّـي، وشـقيقاتي العـذراوات،

t.me/qurssan

والمحاربين الأربعة. ورأيت تابوت جَدَّتِي العجوز، أم المحارب الذي وضع بذرتي وذهب، فأصرَّتْ أمِّي أن تحفظ وديعته، وانتظرته ليعود ويلقي على أُمِّهِ نظرتَه الأخيرة، لكنه لم يعد. ورأيت التوابيت الصغيرة لإخوة لم أعرفهم، كانوا أيضًا في الحجرة المغلقة. رأيتهم جميعًا، وأنا أجلس إلى جوار قبرك، ولم يلتفتوا نحوي، وأنا أهْذِي. قال الناس إنني جُنِنْتُ، والآباء لا يصبحون هُمْ عندما يفقدون أبناءهم، ولا يبقون أحياءً، ولو ظلُّوا يتنفَّسون. لكنني لم يكن بوسعي أن أقامر، وأن أضع نفسي في احتمالٍ كهذا، رغم أنه في الغالب يموت الآباء قبل أبنائهم، لكنه يحدث أحيانًا هنا.. يحدث.

قولي إنني رجل جبان، وسأشعر بالفخر؛ لأن جبني أنقذك، فبقيتِ في قلب أبيك أجملَ طفلة، تبتسم عن أسنان صغيرة، وأروعَ صَبِيَّةٍ، تُغَنِّينَ فَتُحِيلِينَ حياتي إلى بهجة. تركتك في قلبي تكبرين وتحبين، ولكنني لست أعرف هل سأجعلك تنجبين طفلةً جميلة مثلك، أم سأفضِّل أن تفعلي ما فعلناه، فتمنعي ابنتك من القدوم. أنا الآن مُشَوَّشٌ؛ ففي الأحلام تصبح الحياة مُمْكِنَةً، ويكون الاسترسال غير مُكَلِّفٍ، والحياة مثل جَنَّةٍ بلا مشكلات. سأخبرك سِرًّا، ربما أميل إلى أن تنجبي، ولستُ أعلم لماذا، ولا كيف يَتَّسِقُ هذا معي، إنه فقط شعور أبٍ يريد لابنته أن تنجب، تمامًا كما أرادت أُمِّي أن أنجبكِ، ولم أقل لها إنني منعتك، ولو عرفتْ لقاطعتني ما تبقَّى من

t.me/qurssan

عمرها. بصراحة لست متأكّدًا، فالحياة هنا قاسية، لكنّها فرصتنا للوجود، وهي مُوحِشَةٌ، لكن فيها أشخاصًا مثل «إميلدا»، يمنحون وجودنا معنًى ، حتى لو رحلوا سريعًا وتركونا. وهي ظالمة، لكن فيها أيضًا أشخاصًا مثل «أبيلتا»، مستعدون أن يدفعوا حياتهم ثمنًا للعدل والحرية.

لقد سجنوها، وقتلوها، لكنّ شيئًا منها ظَلَّ حيًّا في قلوب من سمعوا بها، شيء بطعم العدل والحرية، تمامًا كما أنتِ تنبضين في قلبي حقيقة، لا يَقْوَى الموتُ على مَحْوِهَا، لذلك قرَّرتُ أن أكتب هذه الرسالة لِتَعْلَمِي، ويعرفَ العالَمُ مَنْ تكونين. أنت ابنتي «أورنينا» الجميلة، فراشة قلبي التي لا تَكُفُّ عن إرسال النسمات بأجنحتها لِتُلَطِّفَ أيّامي. أنت زهرة عمري التي آثرتُ أن أتركها في الأعالي بِمَنْأًى عن وحل وجودنا، وابتذالِ الحياة، بِمَنْأًى عن جبروت السادة ووَضَاعَةِ الرِّعاعِ، بمنأى عن قانون الطبيعة: أن تقتل لتعيش، أو تعيش لتقتل في زنزانة تحت الأرض، أو على أيدي المحاربين، وهم يُصَفُّون خلافاتِهم، ويشربون الكؤوسَ في صحّةِ الأوطان، بِمَنْأًى عن الآلهة وكَهَنَتِها، عن الإخفاق والعَجْزِ، عن الألم والقهر، عن التَّبَلُّدِ والاستسلام، بِمَنْأًى عن أن تكوني لعبةً في يد المصادفات، وأن تكون نجاتك المؤقتة معجزةً تتكرَّر فقط لتخدعك، وعن أنْ تحاصِرَكِ وجوه المفسدين والمنتفعين والعبيد والأفّاقين

t.me/qurssan

والقَوَّادِيـن والأوغـاد والمُدّعِـينَ والجَوْعَـى والمُتَوَسِّـلِين والمُتَمَرِّغِـينَ في الانحطـاط، فأنـتِ أرقـى وأجمـل وأَرَقُّ وأَنْقَـى مـن أن تشـاهدَ عينـاكِ هـؤلاء. أنـت عنـدكِ بأمـانٍ، فابْقـي في سـلام. ابقـي معنًـى جميـلًا ناصِعًا برّاقًا لا ينطفـئ، ابقـي نقطـةً مـن النـور وسـط ظـلام العـالم، ووسـط العتمـة التـي تمـلأ قلـب أبيـك، ابقـي زهـرتي وشـمعتي ونجمتـي وقاربي ومجـدافي، حيـث أهتـدي بـكِ إليـكِ، وحيـث أمـضي في الحيـاة نحـوك، لا أتعجّـل الأيـام ولا أبطـئ. فقـط أنظـر نحـوكِ، وأطفـو مـع السـديم باتجاهـكِ. فانتظرينـي عنـدك، وتمسّـكِي جيّـدًا بمكانـك، وتَمَسّـكِي بِيَـدِ تلـك المـرأة التـي تركـت العـالم يومًـا، واختـارت أن تكـون معـي، ثـم تركـت كل شيء، وتركتنـي إلى الأبـد. إنهـا الآن عنـدك، لعلـك التقيـتِ بهـا، لعلـك اهتديـتِ بملامحهـا التـي تشـبهك، وبنظرتهـا التـي تشـبه نظرتـك، وبعينهـا اليمنـى التـي تضيـق قليـلًا عندمـا تنظـر بِحُـبٍّ أو تبتسـم. تَمَسّـكِي بهـا جَيّـدًا، وأنـا في الطريـق إليكـما، حيـث سـيضمُّنا ذلـك المجهـول. ولسـت أظُنُّـه يشـبه عالَمَنـا القـاسي. أنـا قـادِمٌ الآن، حيـث لـن أفتقـد مـن هـذا العـالم سـوى فراشـاتك، التـي تحـوم قُـرْبَ زهـورك، فراشـاتك الملونـة الرقيقـة والمضيئـة، فراشـات أورنينـا، الأثـر الـذي بقـي منـي ومنـك. انتظرينـي يـا حبيبتـي، أنـا في الطريـق.

*****

t.me/qurssan

أَنْهَى «نوربا» رسالةً صديقه، وخرج من المقبرة دون كلام. كان مُشَوَّشًا فاقِدًا لليقين. ألقى نظرة على المقابر من حوله. كانت على مرمى بصره عشرات الشواهد التي تحمل اسم «أورنينا»، وغيرها حملت لقب «إميلدا» والتي تعني «أم المولود». بدا المكان موحِشًا، والليل يقترب. خَشِيَ أن يعثر عليه أتباع المعبد، فأسرع الخطا إلى بيت «بريثا».

اقتصر العزاء عليه. أخبر الفتاةَ بشكوكه حول أُبُوَّتِهِ لها. استشهد بجسدها الضئيل، وشَحْمَةِ أُذُنِها الملتصقة، وحركتها وبعض طباعها، وبِشَامَةِ فخذها التي رآها يوم تعرَّتْ. ابتسمت الفتاة لأوَّلِ مرَّةٍ منذ رآها. قالت إنها تعرف مَنْ يكون أباها، وأنَّ أُمَّها أخبرتها بذلك منذ فترة. لم يَدْرِ «نوربا» هل فَرِحَ أم حَزِنَ. نظر إليها منتظرًا أن تخبره. قالت إن أباها رجل يدعى «أوديشو» وقد أصابه الجنون، بعد فاجعة أَلَمَّتْ به.

كانت «بريثا» قد أعطتها قِلادَةً منحها لها «أوديشو» قبل سنوات. ذهبت الفتاة إلى أبيها لِتُذَكِّرَهُ بِأُمِّها، وتخبره بأنها ابنته، لكنها وجدت حالته لا تسمح، فظلَّتْ تتردَّدُ على المقابر، وتراقبه من بعيد. وجدته يناجي قبر فتاة تُدْعَى «أورنينا»، قُتِلَتْ منذ فترة، ويعرف الناس حكايتها. ذهبت واشترت بذورًا من بائع غجريٍّ، جلبها من بلاد بعيدة، ووضعتها عند رأس القبر، وظلَّتْ

t.me/qurssan

تذهب لترويها. لكنها سمعت أن الجبّانة خاوية بلا تابوت ولا جُثّةٍ، وأن «أوديشو» النبيَّ قد بناها لأجل ابنته التي لم ينجبها، فانقبض قلبُها؛ لأنها شعرت أنه قبرها هي. وكَفَّتْ عن الذهاب.

طلب «نوربا» أن تصحبه. كان الظلام دامسًا. تَوَجَّها مَعًا إلى مقبرة «أوديشو». طرق بابها عدة مرات، دون مجيب. بذل جهدًا ليفتح الباب المُغْلَقَ من الداخل. هبط درجات السُّلَّمِ، فوجد صديقه، قد سَجَّى نفسه داخل تابوته الخشبيِّ، واضعًا تُعْبَانَه المُحَنَّطَ على صدره.

تراجع «نوربا» خطواتٍ، وجلست «أورنينا» تُصَلِّي إلى جوار جثمان أبيها. ألقى نظرة أخيرة على المقبرة، فوجد حياةً صديقه كاملةً مرسومة على الجدران. كان كل شيء وكل شخص، وكل حدث موجودًا، عدا تلك الفتاة التي تقرأ «الإيلمار» على روحه الآن. شعر باحتقارٍ لاشتهائه مقبرةً صديقه، ودمعت عيناه. خرج، وعاد إلى بيته، فوجدهم بانتظاره كما توقَّع. استسلم؛ لأنه عَلِمَ أن أحدًا ليس باستطاعته أن ينقذه، تمامًا كما أنه لم يستطع أن ينقذ أحدًا. أنفذوا فيه حكم الإله، وأشعلوا الكوخ، فأضاء المقابر، ورأى الناسُ من بعيدٍ الدُّخَانَ الساطع يرتفع عاليًا، ويومض بوجوه موتاهم.

قبيل الفجر، انتبهت «أورنينا»، ونهضت على مَهْلٍ. وجدت الرسالة ملفوفة، وموضوعة بأعلى التابوت. قرأت اسمَها عليها،

t.me/qurssan

فأخذتها. صعدت درجات المقبرة، وفتحت الباب الخشبيّ. رأت القبور تنير بضوء برتقاليٍّ من داخلها. شاهدت الموتى مُنْهَمِكِينَ في عوالمهم، ولم تَرَ منهم من يَبْكِي أباها، أو يَأْسَى لحالها. لَمَحَتْ على مقربة ذلك القبر الذي كان أبوها يجلس عنده ساعات، وحيث زرعت بعضًا من الزهور. رأت نورًا خافتًا يتحرّك بالقرب منه. اقتربت، فوجدت مجموعة من الفراشات الصغيرة المضيئة، تتراقص فوق زهورها. شعرت برعشة في قلبها، وسالت دموعها، وهي تستمع لغناء شَجِيٍّ ينبعث من داخل القبر.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

حَلَلْتُ بِمَدِينَةٍ رَائِعَةٍ، أَلْوَانُهَا كَخَيَالٍ. وَجَدْتُ فَرَاغَاتٍ عَلَى شَكْلِ بَشَرٍ، سَأَلْتُ فَقَالُوا هُمْ الرَّاحِلُونَ، وَوَجَدْتُ فَرَاغَاتٍ عَلَى شَكْلِ بُيُوتٍ، فَقَالُوا كَانَتْ بُيُوتَ آبَائِنَا، وَوَجَدْتُ السَّمَاءَ فَرَاغًا كَبِيرًا، فَعَرَفْتُ أَنَّهَا آثَارُ الآلِهَةِ.

وَكَانَ هَذَا أَوَّلَ الطَّرِيقِ.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

المؤلف

- ليسانس الحقوق - جامعة القاهرة - ١٩٩٣
- صحفى بمؤسسة أخبار اليوم منذ عام ١٩٩٤
- عضو بنقابة الصحفيين المصرية منذ عام ١٩٩٦
- نائب رئيس تحرير مجلة آخر ساعة منذ عام ٢٠١٢
- صدر له ديوان «تماما إلى جوار جثة يونسكو» عن مركز الحضارة العربية عام ١٩٩٩
- يمارس الفن التشكيلى، وأقام معرضا خاصا بأتيليه القاهرة تحت عنوان «حفريات الجسد» عام ٢٠٠٢ كما شارك فى معارض جماعية بالقاهرة والإسكندرية.
- صدرت له رواية «الجبانات» عن دار كيان، ورشحت لجائزة البوكر العربية عام ٢٠١٠
- مصور فوتوغرافى، صدر له كتاب مصور بعنوان «سحر الواحات» عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٥
- كاتب مقالات، فى عدة مجالات ثقافية وفى التراث وأدب الرحلات والنقد التشكيلى فى عدد من المجلات العربية.
- عمل فى مجال إعداد البرامج التليفزيونية فى عدد من القنوات المصرية والعربية.

t.me/qurssan

- قام بتصميم وإدارة ورشة عمل حول التصميم المستوحى من تراث الواحات، بالتعاون مع محافظة الوادى الجديد وكلية الفنون الجميلة عام ٢٠٠٨

- شارك منتصف التسعينات بعدد من الورش والعروض المسرحية.

- لديه اهتمام بحثى بالتراث والعمارة البيئية والفنون الفطرية والحرف التقليدية.

- له تحت الطبع كتاب «سحر الواحات٢ البحرية - سيوة» عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

فراشات أورنينا

"بين الفُصول والدَّهشة والرُّعب، وقفتُ أمام الجُثمان، غير مُصدِّق أنَّ في بيتنا قبرًا، ظلَّ مُخبأً طوال تلك السَّنوات خلف الباب المُغلق. تساءلتُ عن تلك السيِّدة المُسجَّاة، ذات الشَّعر الأبيض، والوجه والجسد الضامرَين. هل هي من العائلة؟. لعلَّها جدَّتي؟. أتكون أمًّا لوالدتي أمْ لأبي؟. أمْ تُراها سيِّدة كانت تعمل بالبيت ورحلت؟. ولكن لماذا لم تُدفَن في المقابر كباقي الناس؟ هل قُتِلت، وخافوا أنْ تَلْصَق التُّهمة بِهِم؟. لو كان الأمر كذلك؛ لألْقوا جُثتها في النَّهر، أو دفنوها في مكانٍ ما. وبينما أنا أفكِّر، وقعتْ عيني على صورة للسيِّدة العجوز نفسها مُعلَّقة على الجدار المُقابل".

"فَرَاشَاتُ أُورْنِينَا" روايَةٌ مُشوِّقة ومُثِيرَة، تحتفل بالحُبِّ والرومانسيَّة، ومُزدَحِمَة بالأفكار الغريبة، والعَوالِم التي تُشْبِهُ الأساطِيرَ، لكنَّها من قَلْبِ الواقِع، بل تنطق بالمسكوت عنه بشاعريَّة، وتصرخ ببديهيَّاتٍ يَعْجَزُ الكثيرون عن الاعْتراف بها. إنَّه نَصٌّ حَميمٌ، سَيَعْثُرُ القارِئُ على شيءٍ يَخُصُّه بين سُطوره.

غلاف: عبد الرحمن الصواف

منشورات بتانة

9 789776 233997

t.me/qurssan